حرب الألف سنة

حتى آخر مسيحي

أمراء الحرب المسيحيّون والمغامرة الإسرائيليّة في لبنان

جوناثان رندل
مراسل «الواشنطن بوست»

حرب
الألف سنة

حتى آخر مسيحي

أمراء الحرب المسيحيّون
والمغامرة الإسرائيليّة في لبنان

جوناثان رندل
مراسل «الواشنطن بوست»

ترجمة:
بشار رضا

حرب الألف سنة



صدرت طبعة الكتاب الاصلية باللغة الانكليزية في ايار - مايو ١٩٨٣ بعنوان:

«كل شيء حول..، امراء الحرب المسيحيون، المغامرة الاسرائيلية والحرب في لبنان».

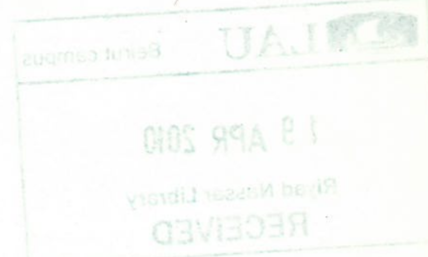
Going All the Way: Christian Warlords, Israeli Adventurers and the War in Lebanon.

اما ترجمته الفرنسية في كانون الثاني يناير ١٩٨٤ فحملت عنواناً مغايراً.

«حرب الالف سنة حتى آخر مسيحي حتى آخر بائع، مأساة لبنان».

La Guerre de Mille ans jusq'au dernier Chrétien,

jusqu'au dernier Marchand, la tragédie du Liban.



الطبعة الاولى: تموز - يوليو ١٩٨٤

الطبعة الثانية: آب - اغسطس ١٩٨٤

الطبعة الثالثة: ايلول - سبتمبر ١٩٨٤

تنبيه

في عصرنا هذا، حيث الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة يجب أن يظهر، سيلاحظ القرّاء انني لا احدد دائماً، في كتابي هذا، اسماء محدثيّ، ولا مصادر معلوماتي. على ذلك أجيب، دفاعاً عن نفسي، ان العديد من اللبنانيين وغيرهم من الشهود الذين، بكل لطف وشجاعة، قدموا لي يد العون في ابحاثي اشترطوا عليّ غالباً عدم ذكر اسمائهم. في اكثر من حالة، كانت «الضرورات الأمنية» خلف هذا الحذر - تعبيراً عما يسود لبنان من غياب الأمن والنظام - لان هؤلاء الاشخاص لا يزالون فيه. كل ما استطيع تأكيده للقارىء، ان هدفي الاساسي كان الاقتراب من الحقيقة قدر الامكان، في منطقة من العالم حيث تبدو الحياة اكثر من أي مكان آخر، ذات لون رمادي وليس اسود او ابيض.

إنني على استعداد أيضاً للقَسَم بأنني لم أجعل الأمور أكثر مأساوية، ولم اضخم الوقائع. قد يصاب العديد من أصدقائي بالإحباط، من الذين كرّسوا وقتاً لي. إلا انني، وكما قلت لهؤلاء آنذاك، لن أكتفي بأحكام مسبقة، شخصية كانت أم سياسية. آمل أن يسمحوا لي على الأقل بهذا الحق.

ليس الكتاب تلخيصاً لأحداث لبنان، ولا أدّعى انني تابعت كل واحد من أبناء هذه المأساة المتداخلة، وليس لي أن أفعل ذلك، لأن هذه المهمة ليست من حق غربيّ، بل هي حق للبناني، الفلسطيني، الاسرائيلي، أو السوري. أما من جهتي، فقد حاولت مراقبة بعض الممثلين الرئيسيين للمأساة، علّني أفهم ما يفعلون.

تقديم

أكثر من أي مسافر آخر، يتعرّف المراسل الأجنبي، مثلي، على المدن في إطار مخادع. بيروت مثلاً، هذه المدينة، بالنسبة لنا، نحن أهل الصحافة، كانت البار في فندق السان جورج، والكباريهات الوضيعة الى جانبه في الشارع نفسه، والمطاعم الممتدة على شاطىء البحر بصحون «مازاتها» الستة والثلاثين. أو هي، بعض المحلات في الشارع التجاري الفخم، الحمرا، أو سهرة في كازينو لبنان، حيث السعوديون وغيرهم من عرب الخليج الفارسي يلتهمون الاوروبيات العاملات بأنظارهم، خاصة الشقراوات منهن. أما من الناحية المهنية، فالحصول على المعلومات فيها يسير المنال، الى درجة أن الصحافيين المقيمين في بيروت يعلمون عن الدول الاخرى اكثر مئة مرة، لا بل ألف مرة من الدبلوماسيين هناك. باستثناء بعض التعقيدات الهاتفية، وأزمات السير الخانقة، كل شيء يعمل في بيروت - إذا دُفع الثمن المناسب - وتضم بيروت كل شيء: اساتذة في الجامعة الاميركية، زملاء صحافيين لبنانيين ينتمون لأكثر الصحافات حرية ومصدراً للمعلومات في العالم العربي، لاجئين وثواراً من الايديولوجيات كافة، يقيمون في مقاهي الحمرا، تأشيرات مؤقتة وتحويلات من جميع الانواع دون أي اشكالات. لا أثر لحضور السلطة، إلا نادراً. كان الصحافيون في سلام تام. باختصار، كانت بيروت قاعدة عمليات مثالية، الجميع يُقرّ بفائدتها العامة، ولا يكتب عنها أحد، لأن هناك أشياء كثيرة أكثر أهمية في بلدان الشرق الاوسط الأخرى، على الاقل هذا ما كنا نظنه.

من اليسير حتماً، تحويل الادعاءات اللبنانية بالعظمة الى كاريكاتور. رغم سيل الزوار من انحاء العالم الاربع، بقيت بيروت ريفية الطابع. إنها تذكّر بالجزائر قبل رحيل الفرنسيين، قد يكون علّة ذلك الشمس والرطوبة، أو سطوح القرميد الحمراء وسط أبنية الباطون المتراصة، أو ذلك الشراب المسمى «باستيس» في الطرف الآخر من المتوسط، وهنا «العرق»، أو التلال الوعرة، أو هي الفرنسية التي يتكلمها الكثيرون هنا، أو الفرنسة التي يتظاهرون بها.

ثم، في نيسان - ابريل - عام ١٩٧٥، اندلعت الحرب وحصل تشابه جديد مع الجزائر، شهية متوسطية للعنف لم أرَ مثيلاً لها منذ آخر أيام حرب الجزائر، قبل عشر سنوات خلت. فجأة، انبثقت التناقضات من الضباب، وطافت على السطح تعقيدات لبنان وسرعة عطبه. منذ البداية، كان هناك ميل حقيقي، لرفض أي تفاهم، واستمتاع عميق بتكرار مسالك لن تؤدي إلا الى مزيد من المغامرات الدموية. لا شيء يفسر عمق القوة التدميرية التي حطّت في كل مكان. الانتقال بين طرفي المدينة، يحتاج اليوم الى اجتياز عقبات وحواجز المسلحين، والمغامرة بالذات، بعد ان كانت المسافة نفسها لا تحتاج لأكثر من دقائق. الاحياء الجانبية باتت ممرات حيوية، رغم خطورتها، بين شطري هذه العاصمة التي كانت تفاخر بأنها إحدى أكثر العواصم حضارة في العالم بأسره. كلما عنف القتال، خفّت حركة المواصلات؛ بهذا المعنى يصبح على المراسلين تجنب العنف بأسرع ما يمكن. انها حرب في التاكسي. الأكثر حذقاً لم يستمروا؛ فقد غادر البلاد اللبنانيون الاذكياء؛ والاختصاصيون اصحاب الاموال؛ والغربيون الذين اختاروا بيروت مركزاً لهم؛ والعرب المقيمون هرباً من الاضطرابات في بلادهم، حملوا معهم رؤوس اموالهم ومواهبهم؛ جميعهم تركوا بيروت لامراء الحرب وللناهبين الذين نزعوا عنها ببساطة متناهية قشرة الحضارة الغربية التي طُليت بها.

أصبحت بيروت مرادفاً للبربرية الجديدة، بات اسمها في عناوين

الجرائد رمزاً للفوضى، كما الكونغو قبل عشرين سنة. حلت الاسلحة الثقيلة محل المسدسات الفضية والذهبية، والبنادق الروسية، تلك الدلالات الظاهرية للثراء. أصبح بمقدور سكان المدينة التمييز بين أصوات المدفعية الثقيلة وبين القذائف الصاروخية. عام ١٩٨٢، ترك العنف المضبوط مكانه لحرب حقيقية عندما اجتاح الاسرائيليون البلد، فقصفوا بطريقة تقليدية كلاسيكية من الطائرات والبوارج الحربية الاماكن السكنية داخل العاصمة. قذائف مضادة للأفراد، ألعاب مفخخة، غازات سامة، فوسفور أبيض، قنابل فراغية، استعملوا كل ذلك. قسم كبير من هذه المعدات، اميركي الصنع، مما جعل الولايات المتحدة تتحمل مسؤولية كبيرة في أحداث لبنان. الا ان الاميركيين في بعض اللحظات، لم يشغلهم الاعتراف بهذا الجانب من مساعدتهم لاسرائيل، اكثر من مراقبة فعالية اسلحتهم في أرض المعركة. تواصلت شحنات القنابل المضادة للأفراد، رغم إعلان الحظر عليها. ادّعت الولايات المتحدة انها تحقق لمعرفة مدى الخرق الاسرائيلي لاستخدام الاسلحة الاميركية في الشرق الاوسط. إلا أن الوثائق تشير بوضوح، ان الحكومات الاميركية المتعاقبة لم تجد اسرائيل ولو مرة واحدة مذنبة بهذا الشأن. بالنسبة للبلدين، ولباقي العالم أيضاً، اصبح لبنان، لا شيء. اضيفت الى إرث المساوىء المزمنة في لبنان جميع الامراض الاجتماعية الحديثة، فلم يبق للبنان أي حظ في البقاء. مع استمرار الصراع، ومرور الشهور، كان التفاؤ ل الرسمي يتضاءل، ثم فجأة، اصبح كل شيء متأخراً. مرة اخرى لم يفهم اللبنانيون بسرعة ماذا اصابهم.

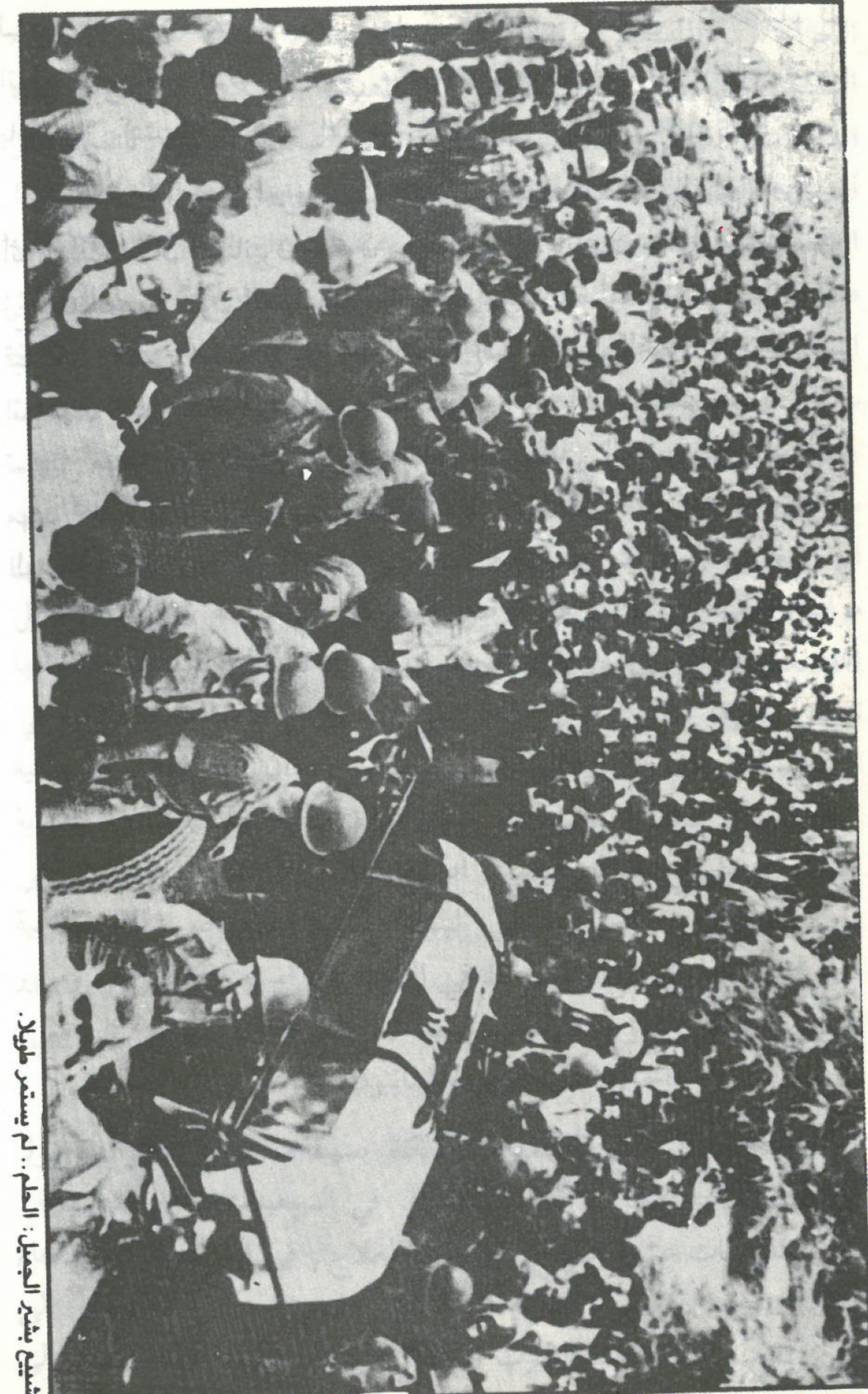
«رحلت الى الشرق المعقد، بأفكار بسيطة»، كتب الجنرال ديغول في مذكراته عن الحرب العالمية الثانية. في السبعينات، بلغ التعقيد في لبنان مبلغاً بات عسير الشرح، أو حتى العلاج. في ايلول ـ سبتمبر ـ عام ١٩٧٤، وخلال اسبوع قضيته في لبنان، دفعني حدسي الصحافي الى التنبؤ بقرب اندلاع هذه الحرب الاهلية، فمنعت بسببه من الدخول الى

لبنان، الى ان تحققت نبوءتي بعد ستة اشهر. الا انني شخصيا، لم اتوقع عنفاً بهذا الاتساع ضمن متغيرات لا نهاية لها، وتحالفات تتبدل باستمرار لتشمل الشرق الاوسط بأكمله.

إكتشفت انني لا أعرف شيئاً كثيراً عن لبنان، ولا عن العالم العربي. أثناء ذلك، كان اللبنانيون يعانون من أعراض مماثلة، ويشارك بعضهم في زج بلدهم في أتون الدم والنار والدمار بمساعدة أصدقائهم وجيرانهم. قبل ان تنقضي السنة الاولى من الصراع، اصبحت القوى الاجنبية على انواعها، تدير الحلبة، وليس اللبنانيون. اما هؤلاء، فلم يفعلوا سوى تسهيل مهمة هذه القوى، لانهم عقدوا العزم على المضي حتى النهاية، مهما كلّف الامر. لا يزالون كذلك. ولا يبدو لغاية الآن انهم استنفدوا الوسائل كافة.

جوناثان راندل

شباط (فبراير) ١٩٨٣ بيروت ـ لبنان



تشييع بشير الجميل: الحلم.. لم يستمر طويلا.

معجزات وأوهام

عندما تمّ إخراج ما تبقى منه من بين الانقاض، بعد ست ساعات على وفاته، كان بشير الجميل، الرئيس الجديد للجمهورية اللبنانية، أزرق اللون، مؤخرة الرأس غير موجودة، وكذلك القسم الاكبر من الظهر. «هذا بشير»، قال كريم بقرادوني، متفحصاً الأنف والذقن وخاتم الزواج السداسي في اصبعه، قبل أن يكتشف في جيبه ورقة من راهبات دير الصليب تتمنى له حماية العذراء. لقد تناول الجميل الغداء معهم. لم يكن عند بقرادوني ادنى شك في التعرف على الجثة. الا ان احد الاطباء الستة في مستشفى «أوتيل ديو» في بيروت الشرقية، اراد المناقشة مع هذا المستشار السياسي المقرّب من الجميل. فهو يعلم تماماً، من الوجهة الطبية، ان بشير كان ميتاً، لكنه لا يجرؤ على قوله، ولا حتى على السماح لبقرادوني بمعرفته؛ ولكن، يجب إعلان الحقيقة للجميع. أراد الطبيب أن يلزم محدثه الصمت، ويوقف الزمن. «لا يا كريم ـ قالها متوسلاً ـ ان مسؤولية كبيرة تقع على عاتقك».

لم يصغِ بقرادوني لما قاله الطبيب، فهو يعلم ان المسؤوليات جسيمة ويتحملها كما يجب. انطلق في سيارته «الرانج روفر»، إحدى أقصى مظاهر الثراء في لبنان، الى مقر قيادة القوات اللبنانية، ميليشيا الجميل، قرب المرفأ. ومع فادي فرام، القائد الجديد لجيش الجميل الخاص، منع حمل السلاح في الشوارع وطلب من شبان الميليشيا البقاء في احيائهم.

شخص ما اغتال الجميل ـ ولم يكن المرشحون لذلك قلة، نظراً للاساليب القاتلة التي استخدمها الرئيس الشاب المنتخب للوصول الى القمة ـ مما يستتبع انتقاما جماعياً كما يحصل عادة أثر الاغتيالات السياسية في لبنان. في عام ١٩٧٨، وانتقاماً لمقتل طوني فرنجية، ابن رئيس جمهورية سابق، مع زوجته وابنته، قُضي على حوالى ثلاثمئة مسيحي مؤيد لآل الجميل. وفي عام ١٩٧٧ قتل الدروز اكثر من مئة وسبعين مسيحياً في الشوف، جنوب بيروت، بعد مقتل زعيمهم كمال جنبلاط.

إلا أن ما لم يرغب بقرادوني رؤيته على الاطلاق في الغيتو المسيحي، هو ميليشيات عطشى للانتقام. فأكثر من مئة الف مسلم، ممن هربوا من بيروت الغربية اثناء حصار الجيش الاسرائيلي لها، كانوا لا يزالون في «الاراضي المحررة» ـ كما تطلق عليها القوات اللبنانية ـ مقارنة مع ٨٥ بالمئة من البلد لا يسيطرون عليه. كان فرام وبقرادوني على ثقة بأن الاحتياطات الاولية لتهدئة مقاتليهم أكثر أهمية من أزمة هيستيريا عامة كتلك التي أصابت الكثير من اللبنانيين المسيحيين، صباح هذا الاربعاء ١٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢. لم تكن الدهشة التي أصابت الطبيب في «أوتيل ديو» استثنائية، فسنوات الرئاسة الست القادمة، ستحل العديد من المشاكل، لمختلف الاطراف المعنية، داخل البلد وخارجه.

منذ سنوات، حرصت اسرائيل على صلات جيدة مع بشير الجميل. قدمت لرجاله سلاحاً وتدريباً عسكرياً، ومساعدة لا تقدر لشخصه في الخارج، اثناء سعيه لكسب الاحترام الدولي. كان في مصلحته الخاصة غزو اسرائيل للبنان في ٦ حزيران (يونيو)، ولكن بدون الدعم السياسي واللوجيستي الذي وفّرته القوات اللبنانية في المؤخرة، كان من غير المحتمل ان يقدم مناحيم بيغن رئيس الوزراء وأرييل شارون وزير الدفاع، على مثل هذه العملية. وضمن حسابات الدولة العبرية ايضاً ان

يضمن انتخاب محميّها رئيساً للجمهورية، نظاماً موالياً على حدودها يهيمن عليه المسيحيون.

أما الولايات المتحدة، فقد أيّدت متأخراً جداً، قضية بشير الجميل. ولم توافق عليه الا بعد تردد طويل، انسجاماً مع سلوك اي دولة عظمى تحذر من اساليب (بينها محاولة اغتيال السفير الاميركي) وتشك في استمرارية نظام مصمم على تأكيد الهيمنة المسيحية على الاغلبية المسلمة.

حصل الانفجار في الساعة الرابعة وثماني دقائق، بعد ظهر الاربعاء ١٤ ايلول - سبتمبر ١٩٨٢. ارتفعت سحابة من الدخان والغبار فوق المبنى المؤلف من طابقين، حيث مقر الفرع الرئيسي لحزب الكتائب في بيروت الشرقية. أيدٍ وأرجل ممزقة، واشلاء اخرى امتزجت بحجارة الباطون والحديد. في الشارع الصراخ يعلو: «بشير، بشير، بشير في الداخل!» احد افراد الميليشيا يضرب الارض بقدميه، والغضب يعصف به، الآخرون يصبون نقمتهم على رجال الصحافة، فينتزعون منهم الافلام ويضربونهم ويطلقون النار على المصورين. حضرت سيارات الاسعاف والفرق الطبية. وكذلك قيادات الحزب، وصولانج، زوجة بشير. الجميع ينتظر.

رفض بشير الغاء هذا الاجتماع الاسبوعي، أو حتى تغيير موعده، حبور الانتصار الانتخابي دفعه الى اللامبالاة. مقر قيادة الكتائب في الاشرفية كان مهد خطواته السياسية الاولى، وإليه كان يأتي بعد ظهر كل ثلاثاء بانتظام. حتى بعد انتخابه رئيساً، كان ينوي العودة إليه من حين لآخر، ليستمع الى سائقي التاكسي والبائعات والمسنين.. حين التقيته في المكان نفسه قبل سنوات، قال لي: «يجب ان يرد المرء بنفسه على الاتصالات الهاتفية، ويصغي لكل محادثة، ويستقبل كل زائر. هكذا نكسب ثقة الناس ونعرف ماذا يفكرون».

سأل بقرادوني أحد الاطباء وهو يراقب رجال الانقاذ والقلق يخيم عليه عن مدة بقاء الانسان حياً تحت الانقاض. اجاب الطبيب: ساعتان تقريباً... تقدير تردد على الالسنة كافة. في السادسة مساءً حل الظلام، التوتر لا يحتمل، على ضوء المصابيح بعمل رجال الانقاذ بسرعة متلاحقة.

فجأة، أُخرج رجل من بين الانقاض، دفع على عجل الى إحدى سيارات الاسعاف التي انطلقت مسرعة، ضج الحشد صارخاً: «بشير! بشير!» يبدو ان الامر لا شك فيه: الرئيس الشاب المنتخب سليم معافى. اي بركة! لقد حمته السماء. حتى لوسيان جورج مراسل جريدة اللوموند الفرنسية اكد أنه «رأى» رجال الانقاذ يساعدون بشير على الانتقال الى سيارة الاسعاف. احدى المروحيات التي ظهرت في السماء سرعان ما ابعدتها الرشقات النارية في الهواء. صوت لبنان الحر، اذاعة القوات اللبنانية، المعروف بإذاعة بشير، أعلن ان الرئيس شكر الرب لانه انقذه، وانه عاد الى منزله، لأن الجرح الذي اصيب به في ساقه لا يستدعي البقاء في المستشفى.

هدأ كل من صولانج وبقرادوني، وغادرا المكان نحو مستشفى «أوتيل ديو»، فقيل لهما ان بشير ليس هنا. اتجها دون أي قلق، الى مستشفى رزق، حيث استقبلهما الدكتور أسعد رزق، قائلا: إن بشير ليس عندنا.

صرخ بقرادوني: لا تمزح!

رد الطبيب: «أمجنون أنت، يا كريم؟ وهل باستطاعتي فعل ذلك بشأن بشير؟».

كانت الساعة حوالى العاشرة ليلاً. في هذا الوقت فقط أدرك كل من صولانج وبقرادوني أن بشير لا يزال تحت الانقاض، وعلى الأرجح ميتاً. إنها النتيجة التي توصلت اليها عدة سفارات قبل ساعات. رجع بقرادوني الى مبنى القيادة العامة في الاشرفية. مازحه حين وصوله رجال الانقاذ ظناً

ان بشير هو الذي أنقذ. لم يعلق، بل طلب منهم متابعة العمل. كانت جثة بشير بين آخر الجثث التي عثر عليها بعد العاشرة ليلاً، فتم نقلها حينئذٍ الى مستشفى «أوتيل ديو».

أعلن رئيس الحكومة شفيق الوزان في منتصف الليل، وفاة الرئيس المنتخب. ولكن منذ ساعات والشك يحوم حول الحقيقة. فنشرة الاخبار المسائية في التليفزيون، أنجزت في ثلاث دقائق. لاول مرة منذ بداية الاقتتال في لبنان، في ١٣ نيسان (ابريل) ١٩٧٥، قطعت الاذاعة الرسمية برامجها لتبث موسيقى كلاسيكية. لم تحظ أي من الـ٧٥ الف ضحية بهذا الاحترام. استمر بث الموسيقى الكلاسيكية اسبوعاً كاملاً.

قطعت هذه الموسيقى الهذيان الجماعي لكثير من مسيحيي لبنان، الذين أبوا التصديق ان بشير الجميل قد مات. اذا نظرنا الى الامور من وجهة نظرهم، على غرابتها، فكيف نلومهم؟ انهم لم يجرؤوا حتى في الاحلام على تخيّل بشير رئيساً للجمهورية بهذه السهولة. أما الآن، فقد اصبحوا منطقياً، مع الفلسطينيين والمسلمين ضمن معسكر المهزومين، هذا المعسكر الذي طالما قاوموه منذ سنين. في الواقع، نزع موت بشير من يدهم أفضل فرصة لإعادة فرض قانونهم على الاغلبية المسلمة في البلد، وهو هدف ضمني رافقهم طيلة السنوات السبع من الحرب والدمار.

راهن المسيحيون، خاصة الموارنة منهم، عدة مرات، وخسروا قبل ان يعيدوا الكرّة. لم يصغوا إطلاقاً للنصح بالاعتدال، اقتربوا من حلفاء غرباء، يصفونهم بالخبث، وبأنهم اسوأ من الشيطان. لم يصابوا باليأس ابداً؛ لكنهم افقدوا اللبنانيين الآخرين الأمل، بمن فيهم اخوانهم الاقل تطرفاً. وقّع المسيحيون إتفاق القاهرة الذي يبرر لمنظمة التحرير وضع الدولة ضمن الدولة. ثم، في عام ١٩٧٦ قلبوا الدنيا رأسا على عقب لكي يأتي الجيش السوري ويدافع عنهم ضد هؤلاء الفلسطينيين

انفسهم. تحالفوا بعد ذلك مع اسرائيل، بعد مدة طويلة من علاقة السادات بالدولة العبرية. الملك عبد الله، ملك الأردن في ١٩٤٨، أنور السادات في ١٩٨١، والآن بشير الجميل، كل القادة العرب الذين تجرأوا على التعامل علناً مع اسرائيل انتهى امرهم بالقتل.

لم يشهد المسيحيون طيلة صيف ١٩٨٢ في الغيتو الذي يرقبون الاحداث عبره، معجزة واحدة، بل سلسلة حقيقية منها.

في البداية، نفّذت اسرائيل عمليتها ضد الفلسطينيين والسوريين وبدّلت الأمر الواقع. لبنان للبنانيين، طالما نادى المسيحيون بذلك، الآن وقد بات شعارهم قيد التحقق، حرصوا على ان يحكم المسيحيون هذا اللبنان. والأفضل من ذلك كله انهم غير مضطرين لخوض الحرب: الاسرائيليون يقاتلون، وهم يتأهبون لتقاسم ثمار النصر، شاركوا بالمعارك ام لا. لم يُخْفِ المقاتلون الاسرائيليون امتعاضهم من «جنود الشوكولا» حلفائهم الذين لم يحفظوا وعدهم ولم يشاركوا في القتال؛ لكن بشير الجميل نفى في مناسبات عدة التزامه بأمور مماثلة. وقيل إن على اسرائيل ان تكتفي بما وفّره لها الغيتو المسيحي في بيروت من بنية تحتية في المؤخرة، وتحالف اعتمدت عليه الدولة العبرية لتبرير غزوها.

عندما قرّرت القوات اللبنانية الا تقاتل الى جانب الاسرائيليين، اقتنع الاميركان بدعم طموحات بشير الجميل الرئاسية، لانهم أوجسوا خيفة من ان يؤدي اشتراك الميليشيا المسيحية في القتال، الى تقسيم نهائي للبلد، والى استحالة المصالحة مع الاكثرية الاسلامية.

وضع آخر، اكثر اعجازاً ايضاً، فالحكومة الاميركية لم تفعل شيئاً لإيقاف الاسرائيليين، لا خلال اليومين الاولين للغزو في جنوب لبنان، ولا حين حاصر الغزاة خمسمائة الف لبناني وقيادة منظمة التحرير الفلسطينية داخل بيروت الغربية. هذا التسامح، كان بالنسبة للجميل، تغييراً في الموقف الاميركي لانه خلال الاجتياحين السابقين لجنوب

لبنان في ١٩٧٨ وفي ١٩٨١، واثناء معركة زحلة وأزمة الصواريخ في البقاع تدخل الاميركان لإيقاف اسرائيل. اما الآن، وبوجود سكرتير الدولة ألكسندر هيغ، يبدو ان حكومة ريغان على استعداد لترك الاحداث ـ وهي احداث فرضتها الدولة العبرية ـ تسير على غاربها. عندما ارسلت الولايات المتحدة المارينز الى بيروت رغم انعكاسات ذلك على أطراف النزاع الآخرين، ظنت القوات اللبنانية ان الاميركان أيّدوا أخيراً وجهة نظرها وانهم على استعداد لتأمين حل منفصل للبنان، دون ربط مصيره باتفاق شامل في الشرق الاوسط. الولايات المتحدة، أول قوة عالمية يرى الجميل انها أكثر قبولا من العالم العربي. وإذا ارادت اسرائيل الآن العمل لتقسيم لبنان، خلافاً لوعدها بدعم حكومة مركزية وقوية، فإن باستطاعة المسيحيين الاعتماد على الولايات المتحدة لتقاتل باسمهم. هكذا كانت نظريتهم، كما كانوا على ثقة بأنهم سيثيرون الولايات المتحدة ضد اسرائيل لاجل مصلحتهم الخاصة. تحدث بعض ضباط الجميل حتى عن تحويل لبنان الى دولة محايدة، الى سويسرا الشرق الاوسط التي طالما تغنى بها سياح ما قبل الانفجار عام ١٩٧٥. هاتان المعجزتان ليستا شيئا، قياساً الى الثالثة.

فبعد اسابيع من انتخابه، بدأ الجميل يكسب جميع اللبنانيين، هذا الامر كان ناتجاً عن تصريحات تنتزع الاعجاب: التوحيد، المصالحة، طي صفحة الماضي، الشهداء، حرية الصحافة، وهي وعود لم تصدر عن حس سليم، بل هو إلحاح الاميركيين. أمير الحرب المتوحش، عديم الرحمة، المتعطش للدماء دفاعاً عن المسيحية، كما يوصف غالباً، تحول فجأة الى رئيس للبنانيين كافة. وأي مهمة على عاتقه! توحيد ثلاثة ملايين من ست عشرة طائفة دينية، تعيش في بلد بالكاد اكبر من مقاطعتين فرنسيتين يجمعهما خوف وكره متبادل. بالنسبة للموظفين نجح الجميل في مهمته، فهؤلاء المواظبون منذ سنوات على الغياب والبلادة، لا يبرحون الآن مكاتبهم، ولا يجرؤون حتى على تناول البخشيش الذي اعتادوا عليه، كما فعل ذلك

أحد الموظفين الذين اصلحوا لي هاتفي الذي يتعطل باستمرار.

الى ذلك تضاف مظاهر استقلال بشير عن الاسرائيليين الذين يدين لهم بالكثير. ولكي يمحي صورة المنسق والمتعاون، حاول جاهداً تخفيف الضغوط الاسرائيلية لتوقيع سلام منفرد مع لبنان. فاتفاق من هذا النوع لن يؤدي الا الى زيادة التوتر بين المسلمين والمسيحيين في الداخل، والى مقاطعة اقتصادية من الدول العربية، فالعنف المتواصل دمر قسماً كبيراً من البنية التحتية للاقتصاد اللبناني، ودفع المئات بل الآلاف الى الرحيل بحثاً عن العمل في دول الخليج الفارسي؛ وقد سمح المال الذي يرسلونه الى عائلاتهم في تعويم الاقتصاد اللبناني. هذا دون ان نذكر ان البترودولار العربي سيساهم في تعويض اضرار الحرب الفادحة، التي تسبب بمعظمها الغزو الاسرائيلي.

الا ان مناحيم بيغن رفض قطعياً التنازل عن هذا الاتفاق، الذي بدا له مماثلاً لاتفاقه مع مصر. منذ سنوات وغاراته الجوية او الارضية، وهي غالباً دون سبب، تترافق مع دعوات للقاء الرئيس الياس سركيس لتوقيع هذا الاتفاق كحل للمشاكل الثنائية بين البلدين. ادرك الجميل خطورة اتفاق من هذا النوع ـ على الاقل قبل حصول اتفاق شامل في الشرق الاوسط ـ رغم النبوءة القديمة منذ عشرين سنة التي تؤكد ان لبنان سيكون ثاني دولة عربية تقدم على خطوة مماثلة. خلال صيف ١٩٨٢ اعلن الراديو الاسرائيلي نفسه ان بيغن امام خيار بسيط جداً: اما حكم لبناني قوي ومركزي منفتح تجاه اسرائيل، او اتفاق سلام. اما هذا وإما ذاك. وامام تردد الجميل في الخضوع لالحاح بيغن، هدأ كثير من مخاوف اللبنانيين مسلمين ومسيحيين تجاهه.

على كل حال، بات الجميل معنيا بما يدور بين اسرائيل والولايات المتحدة، مما عزز احساسه بأهميته. كان يتناول غداءه علناً مع اريبل شارون في كل مرة يزور فيها هذا الاخير بيروت. ويلتقي الوزراء

والسناتورات الاميركان الذين بدأوا بالتوافد بانتظام الى العاصمة اللبنانية.

في الاول من أيلول (سبتمبر)، طلب الرئيس ريغان وقف المستوطنات الاسرائيلية في الضفة الغربية وقطاع غزة، طالما لم تحل مشكلة هذه الاراضي المحتلة. تصاعد التوتر إثر ذلك بين واشنطن واسرائيل. وبعد يومين، انتهكت اسرائيل التزاماتها تجاه الولايات المتحدة، وتقدمت ستمئة متر داخل بيروت الغربية، الى مواقع تشرف على مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا. وكما حصل غالباً في الماضي، كان على لبنان ان يدفع ثمن الاستياء الاسرائيلي من الحليف الاميركي.

إلا أنه في الوقت الذي أعلن ريغان ذلك، كان بيغن يجتمع سراً بالجميل في شمال اسرائيل في الحادية عشرة ليلاً غادر رئيس الحكومة الاسرائيلي اوتيل كارلتون في نهاريا، متوجهاً الى مكان اعتادت حكومته ان تستقبل فيه الزوار المميزين قرب الحدود اللبنانية؛ الجميل كان هناك منذ ساعتين. رافق بيغن شارون وسعد حداد الرائد المستقيل من الجيش اللبناني ومسؤول الميليشيا الحدودية، تموّله اسرائيل وتقدم له السلاح. اعتاد بيغن ان يستخدم هذا الرائد «لجس النبض»، والتصريحات الاخيرة لحداد تعكس خوف الدولة العبرية المتنامي من «جحود» بشير بعد تدخلها ومساعدتها الانتخابية له.

لم يكن اللقاء ساراً. فهدف الاجتماع بالنسبة لبيغن وشارون هو اتفاق سلام يوقعه الجميل بأسرع ما يمكن في الشهر الذي يلي تسلمه لمهامه الرسمية. عندما عرض لهم الرئيس اللبناني مرة اخرى المصاعب التي يسببها له توقيع هذا الاتفاق، واقترح بديلاً له اتفاق عدم اعتداء، اشار بيغن الى سعد حداد قائلاً: «هو يعرف كيف يطيع، ويعرف ما ينفع اسرائيل ولبنان، هذا هو النموذج والقدوة». لكن بشير الذي كان يفكر بمحاكمة شكلية لهذا الرائد، يرى ان بيغن يريد هذا الرجل وزيرا للدفاع

او قائداً للجيش في الحكومة الجديدة. انتهى النقاش الى اسوأ ما يكون بين بيغن والجميل. اما شارون فأضاف: «عندما أتعرض لشخص ما أو لقضية ما، فلا أدعها مطلقاً. ان اسرائيل تدير اللعبة وعلى بشير أن يفعل كل ما ينتظر منه».

في احدى اللحظات مد الجميل ذراعيه قائلاً: «حسناً، ضعوا الاغلال في يدي!» قبل أن يتابع: «لست خادماً لكم».

بالنسبة للعديد من المراقبين، كان الجميل كذلك فعلياً. وهذا ما كان يقلق الكثير من اللبنانيين، خصوصاً بعدما سرّب الاسرائيليون في ذروة غيظ بشير، خبر الاجتماع الذي تعهدوا بكتمانه. نفى مكتب الرئيس المنتخب حصول هذا الاجتماع. اما في جلساته الخاصة، فلم يخف الرئيس ما دار بينه وبين الاسرائيليين. لف يديه حول عنقه للاشارة الى تكتيك بيغن: «عوملت كأنني ولد عاق»، لقد «خانني وأهانني» رئيس الحكومة، «لم يعاملني بأي احترام».

بين هؤلاء الذين استمعوا الى بشير، عدة اميركيين، ابرزهم وزير الدفاع كاسبار واينبرغر اثناء زيارته للبنان. أعلن بشير امامه عن رغبته في «التحرر» من أي التزام مسبق نحو اسرائيل نظراً لكراهة موقف بيغن. بعد خمسة ايام من اجتماع نهاريا قدم بشير للولايات المتحدة قواعد عسكرية وتسهيلات لانشاء محطات رادار في الجبال اللبنانية ومراقبة البحر المتوسط الشرقي والداخل العربي، وباختصار «كل ما ترغبون به». تجاهل واينبرغر الامر، وانتقل الى موضوعات اخرى. من البديهي ان بشير كان على ثقة بأن هذا العرض للتنسيق العسكري يتلاءم تماماً مع رغبة حكومة ريغان بقوة تدخل سريع على استعداد لحماية دول الخليج الفارسي النفطية. إلا أنه، لم يلاحظ على ما يبدو ان المصلحة الاميركية في هذا المشروع، كانت في صلب نظرية تعتبر أن الخليج الفارسي هو الذي يمثل اكثر من فلسطين، المحور السياسي في الشرق

الاوسط، وان هذه النظرية في تراجع. وأن شاباً حديث العهد بالابعاد السياسية العليا، لن يدرك ان على الولايات المتحدة، بالنسبة لواينبرغر، ان تتجنب الغوص في رمال لبنان المتحركة مهما كلّف الامر. هذا بالاضافة الى ان واينبرغر لم يأت الى لبنان إلا ليتأكد من رحيل المارينز بعد اسبوع وذلك قبل انتهاء مدتهم بشهر.

«لم يعرف تاريخ لبنان القديم او الحديث، رجلاً واحداً أيقظ مثل هذه الآمال وسالت من أجله الدموع بهذه الغزارة». غطت هذه الجملة بإطارها الاسود نصف صفحة الجريدة، غداة مقتل بشير الجميل. الا ان هذه الكلمات التي تمجد الرئيس الراحل ذات دلالة بارزة. فقد دفع ثمنها عمال وادارة مصنع «سليب كونفورت» للمفروشات، الذي كان مسرحاً لاحدى اكبر المجازر في لبنان في كانون الثاني (يناير)١٩٧٦. يوم قتلت الميليشيات المسيحية مئات المدنيين من الاكراد، واللبنانيين المسلمين الشيعة، والفلسطينيين، اغلبهم عزل دون سلاح. انها مجزرة الكرنتينا (نسبة الى الاسم العربي القديم الذي كان يطلق على الحي الذي تبقى فيه السفن اربعين يوماً في مرفأ بيروت) التي حصلت على بعد خطوتين من مقر مجلس القوات اللبنانية الحربي. كانت الكرنتينا ايضاً أول مذبحة اشاهدها في لبنان، شبان من الميليشيا حول عنق كل واحد منهم صليب خشبي ضخم، مخدرين بالحشيش أو بالكوكايين، بعضهم يعتمر خوذاً خرجت لتوها من المخازن النازية، يقتلون بقلب منشرح. دائماً الشيء نفسه: رجال، نساء، اطفال. في بعض الاحيان قتل مسيحيون على أيدي الفلسطينيين واللبنانيين المسلمين، لكن في الغالب كانوا هم من يقتل الفلسطينيين واصدقاءهم وجيرانهم اللبنانيين. فقبل الكرنتينا، كان هناك ضبيّة، السبت الاسود، الدامور، العيشية، جسر الباشا، تل الزعتر، القاع، الخيام، إهدن، الصفرا مارين، زحلة، تلاها كثير غيرها أقل أهمية. اعلان «السليب كونفورت» هذا تذكير لا واع بوحشية بشير

الجميل الماضية، ام تمهيد لمذابح جديدة قادمة؟ هذا ما خطر لي ضمناً. اما اللبنانيون الذين انهكهم العنف الذي لا نهاية له فلم يطرحوا اسئلة من هذا النوع.

في الثالثة والنصف صباح الاربعاء ١٥ ايلول (سبتمبر)، اجتمع اهم مساعدي الجميل العسكريين مع الجنرال رافايل ايتان، قائد الاركان الاسرائيلي، والجنرال امير درووري قائد المنطقة الشمالية، المسؤول الرسمي لعملية لبنان. الاسرائيليون يستعدون لاجتياح بيروت الغربية، تجاوزاً لكل الوعود التي قطعوها للولايات المتحدة وللبنان، ومنظمة التحرير الفلسطينية اثناء رحيل اكثر من عشرة آلاف فدائي فلسطيني قبل اسبوعين تقريباً. خلق موت بشير احتمالات لاخطاء قد تطيح بتضحيات ومكتسبات اسرائيل لغاية الآن. لو بقي الجميل حياً لاعتمد الاسرائيليون عليه لتنظيف بيروت الغربية من الميليشيات اليسارية المسلمة ومن الفي مقاتل تركتهم منظمة التحرير، كما استنتجوا من تنصت الكتروني خاطىء. الآن وقد اختفى هذا الاخير، خشي شارون وبيغن من العواقب، وقررا انه من غير الممكن ترك بيروت الغربية، في الوقت الذي لم يقبضوا فيه على الوضع في لبنان. تقرر غزو بيروت الغربية، الذي طالما ترددوا امامه، بعد ساعة ونصف. (امر شارون قبل لقائه قادة الميليشيا المسيحية، بإحضار مجموعات ومعدات احتياطية من اسرائيل، وحطت اولى طائرات الهركيل س- ١٣٠ في مطار بيروت بعد ساعتين من انفجار الاشرفية).

عندما أعلمت الحكومة الاسرائيلية، حاولت تبرير انتهاك الاتفاقات مع المبعوث الاميركي الخاص، فيليب حبيب، فادعت ان قواتها «تقدمت الى مواقع جديدة في بيروت الغربية حقناً للعنف ولإراقة الدماء والفوضى» التي قد تلي موت الجميل. في الواقع، لا مسيحيو بيروت الشرقية، ولا مسلمو بيروت الغربية مسؤولين عن اي عنف. «فنصف الناس اصابهم يأس عميق، والنصف الآخر رعب قاتل». كما قال احد

الفلسطينيين. بعد رحيل مقاتلي منظمة التحرير، ونزع الالغام من الطرقات، والغاء معظم الحواجز الترابية، بات اجتياح بيروت الغربية لا يتطلب اي عبقرية عسكرية، كما ان الخسائر البشرية، التي طالما اعاقت الاسرائيليين، لن تكون مرتفعة.

إلا أن الاسرائيليين، ولأسباب سياسية، أبوا الدخول الى مخيمات اللاجئين لاخراج المقاتلين الفلسطينيين منها - «الارهابيين» كما يقولون - التي تؤكد مخابراتهم وجودهم فيها. فهناك طريقة أخرى كما يتصور شارون. هذا الأخير لم يخفِ رغبته في الدخول الى بيروت الغربية، وقد دفع قواته حتى باتت على خطوتين من المخيمات. وبسبب النجاح الذي احرزته منظمة التحرير اثناء حصارها في بيروتَ في كسب الرأي العام العالمي الى جانبها، صمم شارون على تدمير مخيمات اللاجئين - واسطورة منظمة التحرير - وعلى استخدام المسيحيين في سبيل ذلك. في الواقع يمكن ان نتساءل، اذا كان شارون يظن حقاً ان المخيمات تأوي الفي مسلح فلسطيني، فلماذا لم يجهز سوى مئتين من رجاله لهذه العملية؟. لاسرائيل مجموعاتها الخاصة داخل القوات اللبنانية؛ وبدءاً من فادي افرام، شعرت هذه القوات بارتباك تام بعد مقتل بشير الجميل؛ لذا كانت على استعداد للاصغاء للاسرائيليين، عندما اكد لها هؤلاء ان فلسطينيي المخيمات هم وراء العملية وعليهم بالتالي دفع الثمن. ولمزيد من الضغط على اصدقائهم القوات اللبنانية، ادعى الاسرائيليون ان رجال سعد حداد على استعداد لدخول المخيمات لوحدهم، كما روى ذلك احد القادة الكتائبيين في ما بعد. «تم الاتفاق في هذا اللقاء، على دخول المخيمات في ساعات الصباح الاولى من نهار الاربعاء، كما اعترف شارون بعد اسبوع امام برلمان بلاده. منذ الخميس، وبعد لقاء جديد مع افرام، وايلي حبيقة، مسؤول المخابرات وآخرين اتّصل دروري بشارون قائلا:

«إن اصدقاءنا سيدخلون المخيمات. لقد امرتهم بالدخول مع مسؤوليهم.

اجاب شارون:

- تهانينا «إن عملية اصدقائنا مسموح بها».

تتقاطع في هذه العملية اهداف اسرائيل والقوات اللبنانية. وكما اشارت مجلة الجيش الاسرائيلي الشهرية Skira Hodechitch، ان القوات ارادت حصول «نزوح فلسطيني جماعي، اولا خارج بيروت، ثم خارج لبنان». وتضيف المجلة، ان المسيحيين سعوا عبر ذلك الى خلق توازن ديمرغرافي جديد في بلدهم». لم تكن عناصر الميليشيات اكثر من مائتين، تجاوزوا الخطوط الاسرائيلية المحيطة بالمخيمات، في ليلة الخميس تلك. وطيلة ثماني وثلاثين ساعة متواصلة دون انقطاع، ذبحوا بكل اعصاب باردة الرجال، النساء، الاطفال، وحتى الخيول والكلاب والقطط. وبالرغم من معرفة الجنود الاسرائيليين وقادتهم المحيطين بالمخيمات، بما يجري في الداخل، كما نشر ذلك تقرير لجنة كاهان حول المجزرة، فإنهم لم يفعلوا شيئاً لوضع حد له. احد الضباط الاسرائيليين الذين شاهدوا قتل الفلسطينيين العزل، سمع من قائد كتيبته الجواب التالي: «اجل، هذا لا يعجبنا البتة، ولكن لا تتدخل». جميع الضحايا تقريباً كانوا مدنيين ودون سلاح.

استخدم المسيحيون في وحشيتهم القنابل اليدوية، السكاكين، الفؤوس، المسدسات، البنادق، وبعض قطع المدفعية. قطعوا في بعض الاحيان أثداء النساء، وحفروا صلباناً في الاجساد، بقروا بطون الحوامل، حتى الاطفال قطعوهم إربا. وجدت أطراف طفل مقطعة وموضوعة حول رأسه. لغّموا العديد من الجثث، حتى بات من الصعوبة والخطورة مسها او دفنها. قبل ان تتوقف اللجان المختصة عن احصاء الجثث - تحت الشمس المشرقة يتعذر فوراً تمييز الاجسام - قدّرت اللجنة

الدولية للصليب الاحمر عدد الضحايا ثلاثمئة وثلاث عشرة ضحية. منظمة الدفاع المدني اضافت اليها ثلاثاً واربعين ضحية جديدة، ثم مئة وستاً واربعين اخرى، تعرف عليها افراد من عائلاتها. هذا عدا المقابر الجماعية التي لم تنبش. بعد اشهر من المأساة، كان كثير من الفلسطينيين يؤكد ان عدد الضحايا والمفقودين حوالى ثلاثة آلاف شخص. في غياب الاحصاءات الدقيقة، تشير بعض التقديرات الموثوقة ان عدد الفلسطينيين لا يشكل واقعياً ثلث الضحايا. . مصادر اخرى تقول ان اللبنانيين الشيعة يشكلون ثلثا آخر ـ وحتى النصف ـ اما الباقون فهم مصريون وسوريون ومن مختلف الجنسيات العربية. البعض الاخر يحصي ٩٩٩ من سكان المخيم لم يعثر عليهم، ثلثهم من اللبنانيين. ان استعمال الجرافات لمحاصرة اللاجئين في مخابئهم، واخفاء الادلة يبين مدى بربرية الهجوم، والخوف من اكتشاف آثار الجريمة.

بعد اشهر، روى لي احد القتلة بطريقة مثيرة، كيفية مشاركته في المجزرة، فقرأ يومياته بصوت عال: «اطلقنا عليهم النار امام الجدران، ذبحناهم في عتمة الليل». كم من الفلسطينيين قضى نحبه في هذا الهجوم؟ اجاب مسؤوله الذي يستمع الينا: «ستعرف ذلك يوما ما، اذا حفروا نفقاً للمترو في بيروت.»، ملمحاً الى ان عدد الضحايا اكبر بكثير مما اعلنته الارقام الرسمية.

من يعرف الوضع في لبنان، يدرك ان هذه المجزرة كانت واقعة لا محالة، منذ سُمح للقوات اللبنانية بالدخول الى المخيمات. اذ لبّى هؤلاء نداء غريزة تدفع القطط خلف الفئران، كما كان من السهل التنبوء بالرغبة الاسرائيلية في لصق مسؤولية ما سيحصل بالقوات اللبنانية. رغم ذلك، ومع انني كنت اول من حضر الى المخيم، لم افهم ما يحصل. لكن مما لا شك فيه ان المجزرة دامت طيلة ليلة الجمعة وحتى ساعات

الصباح الاولى من يوم السبت. افترضت ان سكان المخيم لا بد أن يكونوا قد هربوا مذ ابصروا افراد الميليشيا، كما فعلوا في حزيران الماضي حين طالتهم القذائف الاسرائيلية من البحر والبر والجو. لكنني كنت مخطئا، فأغلب اللاجئين ظن ان الحرب قد انتهت، وان لا داعي للخوف من الاسرائيليين طالما رحل الفدائيون. هؤلاء بقوا حيث هم، اما من حاول الهرب فقد فاجأته حواجز الجيش الاسرائيلي، واحياناً حواجز الجيش اللبناني، لتسد عليه منافذ المخيمات.

امام الاستنكار العام الذي اثارته المجزرة، نفت قيادة القوات اللبنانية اشتراكها في الامر. وقد ادعت انها قامت بتحقيق خاص، قدمت تفاصيله الى اسعد جرمانوس المدعي العام العسكري المكلف بالتقصي حول المجزرة لصالح الحكومة اللبنانية (سجل هذا الاخير رقماً قياسياً في عدم الكفاءة لعجزه عن محاكمة اي واحد من الذين تسببوا بعشرات الآلاف من الجرائم العنيفة منذ عام ١٩٧٥؛ على كل حال حتى قبل بداية التحقيق، اعلن جرمانوس ان قضية المجزرة «كذب ومبالغة، فليس هناك سوى مائتي قتيل»). رفض قادة الميليشيا رسمياً، اي اشارة الى مشاركتهم في المجزرة، لانهم كما زعموا، كانوا «خائفين جداً جداً». وعلى حد قول فادي فرام: «قلنا نعم، لاننا لا نستطيع ان نختلف مع اسرائيل». من الصعب التحديد علام تشير القوات اللبنانية، او اي تفسير تفترض لكلامها هذا. أتريد القول أن اسرائيل، وخاصة مخابرات الموساد التي تتعامل معها منذ زمن طويل، على علم بسر خطير تهددها بإفشائه مما ارغم «القوات» على القبول بالعملية؟ الامر غير محتمل، لان السياسيين الاسرائيليين باتوا يقرون علنا بعلاقاتهم التي كانت مستترة مع القوات المسيحية، رغم ذهول هذه الاخيرة.

أو ان «القوات» تريد القول أن اسرائيل تعبت من قادة الميليشيا الذين

يرفضون مشاركة رجالهم ـ الملقبين «جنود الشوكولا»، لقلة حيويتهم ـ ام ان اسرائيل سيطرت على حركتهم الى درجة باتت معها تشرف على وحدات «القوات» وقياداتها الاساسية؟ في تقرير كاهان، يمكن ان نقرأ ان الجنرال إيتان، أمر خلال لقائه صباح الاربعاء القادة الكتائبيين، إعلان التعبئة العامة في صفوف قواتهم، وفرض منع التجول على مجمل الاراضي التي يسيطرون عليها، والاستعداد للمشاركة في المعارك». إذن، لقد «أمر» إيتان، وهو نفسه اعلن يوم الاحد الذي تلا المجزرة «اننا لا نعطي الاوامر للكتائبيين ولسنا مسؤولين عن تصرفاتهم. الكتائبيون لبنانيون ولبنان بلدهم؛ انهم يتصرفون كما يحلو لهم».

أليس من المحتمل، ان قادة القوات اللبنانية يظنون ضمناً ان الاسرائيليين مسؤولون عن موت بشير الجميل، وانهم تخلصوا اليوم منه تلبية لغرائزهم العدوانية. ان ضباط بشير كافة، دون استثناء ملحوظ، أعدوا في اسرائيل، ولديهم بالتالي عدة اصدقاء اسرائيليين.

مهما كان هدف الرحلة التي ترافق فيها الاسرائيليون و«القوات اللبنانية»، فإن هؤلاء ـ وكثير من اللبنانيين غيرهم ـ باتوا اليوم على ثقة بأن حلفاءهم لعبوا بهم. اذن لم لا نلقي اللوم عليهم؟

لم تشر الحكومة الاسرائيلية، عبثاً، الى ان لبنان (والعالم بأسره) يطبق نظاماً مزدوجاً للقيم بتحميل جيشها مسؤولية المجزرة. أجل لقد اعترف شارون بتنسيق قواته، ومراقبتها للعملية، وبأنها لم تفعل شيئاً لمنع المذبحة التي استمرت طيلة ساعات النهار والليل (بفضل القنابل المضيئة)، لكن المذبحة نفذها مسيحيو لبنان. وكما قال بيغن: «لماذا هذا الضجيج، الأن مجموعة من الغوييم» ذبحت مجموعة اخرى، وتريد القاء اللوم على اليهود؟».

عندما اكتشفت المجزرة، لم يكن رد الفعل اللبناني والعربي متشابهاً. (اعلن الجنرال ايتان فيما بعد، انه كان يعلم تماماً اين تكمن جدارة الميليشيات المسيحية. وكما شرح ذلك للجنة كاهان: «استطعت رؤية الانتقام في عيونهم. كانوا يشحذون خناجرهم»). اذا حرص بيغن وشارون على اجتياز العاصفة، فإن اللبنانيين بذلوا ما بوسعهم من اجل ذلك ايضاً. على كل حال، لم يتحرك العالم الغربي ولم يتأثر لمذابح اللبنانيين كافة. فلماذا كل هذه الضجة الآن؟

المهم الآن بالنسبة للبنانيين، تجنب المزيد من التدهور، بات خنق المجزرة واصدائها ضرورة للدولة. صممت القيادات المسيحية والاسلامية، رغم خلافاتها العميقة، على الا تسمح لهذه المذبحة بالقضاء على القليل الباقي مما يجمعها.

اتفق الطرفان، لاسباب خاصة بكل واحد منهما، على ادانة اسرائيل. شعر المسيحيون بأن اسرائيل استخدمتهم، وبأنها ليست بريئة تماماً من اغتيال الجميل. في معقل هؤلاء في بكفيا، وبين اهم افراد العشيرة، كان الحديث عن لقاء نهاريا بمثابة تأكيد ان الاسرائيليين يفضلون لبنان مجزأ على حكم قوي تحت سلطة الجميل. بالمقابل، شارك كثير من اللبنانيين وجهة النظر هذه، مؤكدين ان الدولة العبرية وحدها قادرة على الوصول الى بشير حتى في قدس الاقداس، في حي الاشرفية. في بيروت الغربية، ومن موقع الذي لا يستطيع ان يفعل شيئاً للفلسطينيين، اختارت القيادات الاسلامية ايضاً اتهام اسرائيل. فهم ايضاً اذلهم الاسرائيليون. الا ان اي مسلم، بخلاف المسيحيين، لم يستقبل الجنود الاسرائيليين في بيروت بالرز والورود. ان كرامة المسلمين لم تمس.

في صباح السبت، عندما بدأت أولى احصاءات المجزرة تتسرب

الى بيروت الغربية (أشير الى ثلاثين ضحية فقط) وصل احد الاشخاص المذعورين الى منزل صائب سلام الفخم، في حي المصيطبة؛ صائب سلام، له من العمر ستة وسبعون عاماً، انتخب ست مرات رئيساً للحكومة، لعب دوراً بارزاً في المفاوضات المضنية بين الولايات المتحدة ومنظمة التحرير.

صرخ القادم: «صائب بك القوات اللبنانية اجتاحت بيروت الغربية. انها توقف المارة وتقتلهم».

سأله أحد مستشاري سلام: كيف عرفت انهم «القوات اللبنانية»؟

اجاب: هذا مكتوب على ثيابهم، على صدرهم.

- ومتى تعلمت القراءة يا هذا؟» صرخ المستشار قائلاً.

هز صائب بك رأسه موافقا.

هذه الايماءة لا تعني ان صائب سلام كان موافقاً على ما يجري. لقد حذّر الزعيم المسلم بشير الجميل من اخطار تقسيم البلد، وحالات عنف جديدة، اذا شاركت «القوات اللبنانية» في المعارك الى جانب اسرائيل. لا، هذه الايماءة، دليل تعقل. فصائب سلام عريق في السياسة، من طائفة اعتادت منذ زمن على الحكم والسلطة. ولكن ماذا يفعل شخص مثله امام تلاقي الغرائز العظامية لدى كل من الاسرائيليين والميليشيا المسيحية؟.

احد الاسرائيليين المرموقين من اصحاب الخبرة الطويلة مع «القوات اللبنانية»، عبّر لبعض الصحافيين عن دهشته من ان منظمة بهذا الانضباط الظاهر قادرة على اقتراف جريمة كهذه. لم يخطر بباله وهو الذي يعرف كل ما يدور داخل «القوات اللبنانية»، اكثر من أي اسرائيلي آخر، ان هذا الانضباط بالضبط هو الذي دفعهم لذلك. ان الطريقة الوحيدة والمضمونة لمنع الميليشيات من التهور كانت في مواكبة الضباط

الاسرائيليين لهم كما فعلت ذلك الجيوش الفرنسية والانكليزية، مع مجموعاتها المحلية منذ قرون. لكنه اسلوب استعماري، يكفي ذكره ليرتجف اعضاء الادارة الاسرائيلية، وذلك رغم تراكم الاشارات التي تجعل من حرب الصيف في لبنان عام ١٩٨٢ اول حرب استعمارية تخوضها الدولة العبرية، تماماً كما كان احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة عملاً استعمارياً بشكل اساسي.

أما بالنسبة الى «القوات اللبنانية»، حتى في منطقة من العالم يسود فيها الانتقام كحالة يومية، كان من الصعب فهم السبب الكامن خلف هذه المجزرة وفي هذا الوقت بالذات. في الماضي، في عام ١٩٧٦، عندما كانت إراقة الدماء لا تزال ظاهرة جديدة نسبياً في لبنان، كان من الصعب متابعة الاسباب التي تقدمها الميليشيات المسيحية لتبرير سلسلة المذابح التي طغت على هذه الحرب الاهلية. قيل بأن الكرنتينا أدت الى مجزرة الدامور. فقامت الميليشيات المسيحية بذبح آلاف اللاجئين في مخيم تل الزعتر. ولكن ما الظن الآن في عنصر من عناصر الميليشيا المسيحية، يقول لجندي لبناني حين همّ بدخول المخيم: «إنني انتظر هذه اللحظة منذ سنوات»؟ متى يتوقف التقاتل؟ لقد أقسم الشبان المنضوون في وحدة خاصة من وحدات «القوات اللبنانية»، وحدة الدامور، على الانتقام لعائلاتهم وعلى الاستمرار حتى طرد الفلسطينيين كافة من لبنان. ولكن ليذهبوا الى اين؟ لم يرغب أي بلد عربي أو غير عربي، في استقبال المدنيين الفلسطينيين. هذا ما لم يرغب اللامسؤولون في القوات اللبنانية، معرفته.

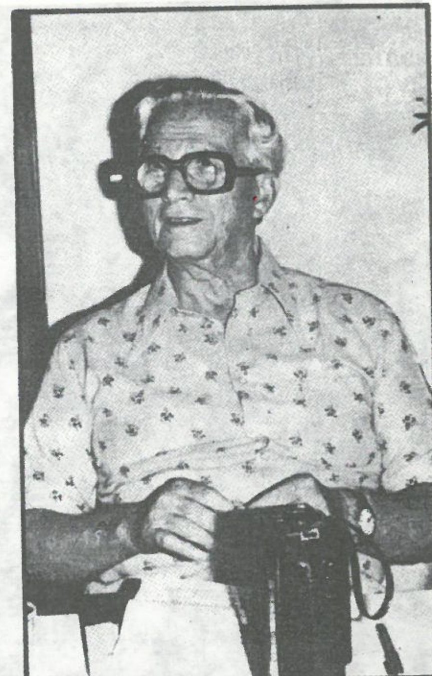
على هذا المستوى يتقاسم هؤلاء ازدراء الاسرائيليين للفلسطينيين. غولدا مائير، عندما كانت رئيسة لحكومة اسرائيل، ساهمت في بث هذه الفكرة في مقابلة لها مع «الصانداي تايمز» في حزيران (يونيو) ١٩٦٩. فأجابت رداً على سؤال حول الفلسطينيين: «انهم غير موجودين». الآن، وبعد أكثر من عشر سنوات، لا يزال الفلسطينيون موجودين، ولكن



بشير الجميل

كإرهابيين، مما يبرر للدولة العبرية عدم معاملتهم كأسرى حرب. في حزيران (يونيو) وصفهم بيغن بأنهم «حيوانات على قائمتين». لم يُشر الى قتلاهم، وجرحاهم ـ المدنيين او العسكريين ـ وحتى الى عائلاتهم في أي احصاء اسرائيلي عن حرب لبنان. الآن، في منتصف ايلول (سبتمبر ١٩٨٢ سمح لنسائهم واطفالهم وشيوخهم، (بعد نقل الشبان القادرين على حمل السلاح الى اسرائيل ثم الى معتقل أنصار في جنوب لبنان) بالبقاء بين انقاض مخيمات اللاجئين التي دمرها الاسرائيليون وفجروها قبل ان تطحنها الجرافات.

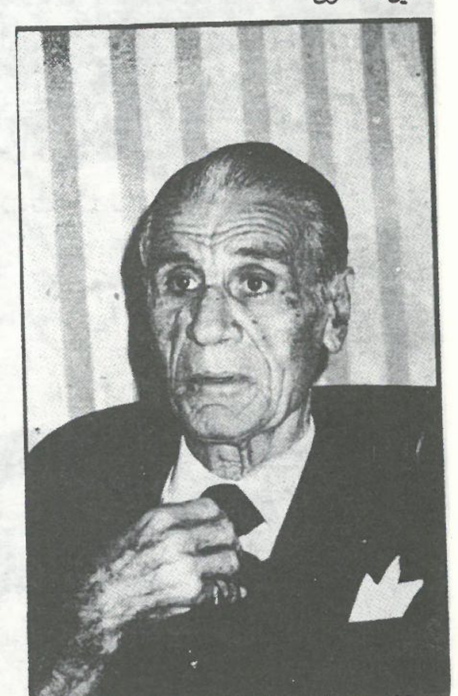
في وضعية مماثلة، من الصعب ان نعرف من يستخدم من. على كل حال، تعلمت القوات اللبنانية من المجزرة درساً مفيداً: ان الاسرائيليين يستخدمون الآخرين، ولكن لا احد يستطيع استخدامهم. كان من الممكن ان تخبرهم الولايات المتحدة بذلك قبلاً، لو ان مسؤولاً مارونياً واحداً أعار اذناً صاغية لنصائحها المتكررة منذ سنوات. إلا أن المجزرة بالنسبة لبعض قادة القوات اللبنانية، لم تكن غير مفيدة. فـ«ديب انستاز» مثلاً، مسؤول شرطة القوات حاليا، كان قبل عام ١٩٧٥ موظفاً بسيطاً في اوتيل السان جورج الشهير، قال لأحد الزوار: المسألة نسبية. طبعاً، فقد الفلسطينيون في المخيمات مئات الضحايا، ولكن «نحن فقدنا بشير وخمسة وعشرين آخرين في تفجير مقر قيادة الحزب». الأمر غير ملتبس على الاطلاق في ذهنه. فالخسارة التي اصابتهم اعظم بكثير.



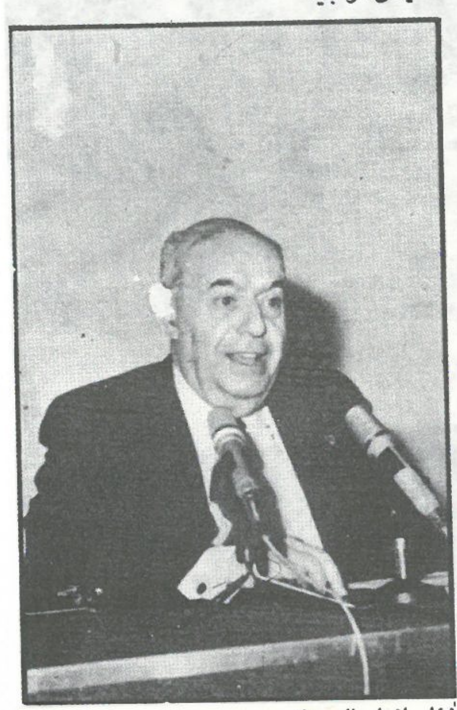
كميل شمعون



سليمان فرنجية



بيار الجميل



فؤاد افرام البستاني

عقدة الموارنة

عندما عدت الى بيروت، في نهاية ربيع ١٩٧٥، في المراحل الاولى لِمَا رفض اللبنانيون دائماً اعتباره حرباً اهلية، كان البلد ينهار بسرعة لم أرَ مثيلاً لها في مناطق عدة تابعت احداثها عن كثب في الجزائر، في الكونغو، في جمهورية الدومينيكان أو في فييتنام. لبنان بأسره خارج أي سيطرة، وكأن الشيطان قد تملكه.

خلال الستة عشر شهراً من العنف ـ هي اشهر الحرب الأهلية ـ فَقَد بلد الثلاثة ملايين نسمة حوالى ٣٥ الف قتيل من مواطنيه، اغلبهم من المدنيين. أي كأن الولايات المتحدة فقدت ليس خمسون ألفاً من جنودها الذين سقطوا خلال ثماني سنوات من وجودها العسكري في فييتنام، بل ما يوازي مليونين ونصف من سكانها. وقد يكون ضعفي هذا العدد، لأن الاحصاءات في لبنان موضع شك، خاصة فيما يتعلق بعدد الضحايا، الذي يبالغ فيه غالباً لاستدرار مزيد من المال من المؤسسات الخارجية. لم يتوقف العنف أبداً. ولم يبادر أحد للتخلي عن سلاحه.

هكذا قررت فجأة بين ١٩٧٥ و١٩٧٦ ان ادرس مسيحيي لبنان عن كثب، خصوصاً الموارنة، الذين يشكلون عمودهم الفقري، عددياً وسياسياً. بدا بحثي ظاهرياً غير منصف لكثير من الموارنة، لأنه يشوه وفقاً لرأيهم، ضعفهم دون ان يسمح بإبراز وجهة نظرهم التي سدت امامها السبل كافة، نظراً للضغوطات (الحقيقية او الوهمية) التي يفرضها عليهم الآخرون. اعترضت قائلاً: لست مؤرخاً. ولو كنت

كذلك، لاخترت موضوعاً للدراسة: المسلمين السنة او الشيعة، او الدروز، او إحدى ـ او كل ـ الطوائف الدينية في لبنان. حديقة تاريخية لكل المهزومين في الشرق الاوسط. او لدرست كلاً من الفلسطينيين، الاسرائيليين، السوريين، المصريين، الليبيين، العراقيين، الاردنيين، الاميركيين والروس، لانهم جميعاً ساهموا في تعقيد مصير لبنان. لماذا، اذن، مسيحيي لبنان؟ اردت ان اعرف، كما شرحت ذلك لمختلف امراء الحرب الموارنة، قبل بداية بحثي، كيف تحوّل المسيحيون الذين حكموا ـ أو ظنوا انهم يحكمون ـ لبنان قبل عام ١٩٧٥، الى مرؤوسين. كانوا على رأس ما يعتبر، الدولة المسيحية الوحيدة في الشرق الاوسط، منذ الحروب الصليبيةوثمرة ألف سنة من الجشع والضغوطات. كان هذاالامر الى حد ما، ليس أقل أهمية من عودة الصهاينة الى إسرائيل، بعد غياب حوالى الفي سنة. كان لبنان البلد الوحيد في الشرق الاوسط حيث قاوم المسيحيون الذوبان، رغم ان ميلهم للسلاح والعنف لم يضمن لهم المستقبل الى أمد طويل.

كان عليّ خلال ابحاثي، ان استمع لمحاضرات في التاريخ ـ لم تكن الاولى في تاريخ علاقاتي المتتالية مع اللبنانيين ـ محاضرات مكثفة، تم في غالب الاحيان تشذيبها بدقة بحيث فاح بقوة مضمونها الايديولوجي المفروض. اصغى بشير الجميل وأنا احدثه عن مشروعي، ولم ينس ان يؤنبني بعنف لاخطائي الماضية، في الطريقة التي وصفت بها صعوده الى مرتبة طفل الموارنة المدلل، ثم دس بين يدي نسخة عن نص فرنسي لمذابح الموارنة على ايدي الدروز عام ١٨٦٠. هذه الوثيقة التي قدمها لي، كما فعل الكثيرون غيره، صيغت في نظرهم، بأكثر الاساليب حكمة في العالم؛ انها كلمة «افتح يا سمسم» السحرية لقلب الموارنة، التي ينبغي ان تجيب مرة واحدة على اسئلتي كافة. محدثون آخرون، رجال دين وعلمانيون، كانوا أقل تسامحاً. في يومياته التي نشرها، يذكر الرئيس السابق كميل شمعون باستمرار مؤرخاً فرنسياً من القرن التاسع

عشر، فقط من أجل مقارنة أزمة الموارنة بأزمة المسيحيين الارثوذكس في القسطنطينية، الذين تخلى عنهم اخوانهم في الغرب اثناء الفتح الاسلامي للاتراك العثمانيين، عام ١٤٥٣. في الوقت الذي اشار فيه شمعون الى ذلك في يومياته، كان الموارنة فعلاً في وضع شبيه وحساس جداً، ولكن، في نظر مراقب اجنبي مثلي، لا تنبع مأساتهم من وضع مماثل للسيطرة على بيزنطة. يبدو انني مخطىء. فتحليل شمعون بالنسبة للموارنة واضح ومنطقي. لان الامر يتعلق بالأمان، وهو عامل كان دائم الحضور في فكرهم.

يعكس شمعون اصداء قناعة مارونية واسعة الانتشار، ترى ان الغرب ـ اي مسيحيي الغرب ـ لم يبد نحوهم اي نوع من الاهتمام، ولا يريد ان يعرف انهم موجودون، لا بل يتمنى حتى اختفاءهم. لذا ابرز مسيحيو الشرق دينهم بغرور صلب، وبنضالية لا تشبه في شيء الجانب الخفيّ من عقدة النقص التي تعاني منها الأقلية. لذا يمكن للاجنبي ان يعتبر نفسه سعيداً اذا لم ترجع المناقشة الى ما وراء الحروب الصليبية. هذه هي الصيغة المختصرة. يرى الكثير ممن تحدثت معهم انه لا يمكنني ان افهم سياسة لبنان الحالية الا اذا تقبلت مصطلحاً بدا لي لاول وهلة موضع شك وتساؤل، مفاده ان اللبنانيين يتحدرون من التجار الاكثر شهرة في العالم القديم: الفينيقيين. تم اعداد كل شيء بدقة وتفصيل ليتواصل الموارنة، براحة تامة، مع اسطورة تؤمن لهم الدعم في اللحظات العصيبة. اعتدت على تحمل هذه الجلسات التي لا تنتهي، دون اي رد فعل باستثناء بعض التذمر الشكلي. لا يسمح محدثّي بأي تساؤ ل حول الحقائق التي يقدمونها لي. ادركت منذ زمن طويل ان من مصلحتي اختيار كلماتي بعناية في ظروف مماثلة.

دعاني خلال عملي، احد الاختصاصيين الاوروبيين في التاريخ الكنسي ممن يعيشون في لبنان، الى دراسة تمثال منحوت من خشب، معلق على جدار غرفته. لم أرَ في البداية شيئا غير عادي، فارس يرتدي

ثياباً بيضاء، يطعن برمحه شيطاناً اسود يتلوى على الارض. إلا ان التدقيق في اللوحة بيّن لي ان الفارس يضع في اذنيه اقراطاً ذهبية، بشكل صليب صغير، وان صليباً آخر يزين رمحه. اعترفت بأنني لم اتمكن من استنتاج اي شيء خاص. تبسم مضيفي، قبل ان يغوص في شرح المشكلة التي تكمن برأيه، في صلب المصاعب التي يعاني منها الملايين من مسيحيي الشرق.

«إنها نسخة عن لوحة اصلية تعود للقرن الثاني عشر، اكتُشفت في قرية مسيحية، على بعد ثلاثين كيلومتراً من الموصل شمال العراق». قال ذلك بلهجة الذي يمهد لحل اللغز، إلا ان صَمتي المطبق اصابه بإحباط ظاهر.

«في ظل العباسيين الذين حكموا بغداد، تسامح المسلمون مع المسيحيين، الا انهم منعوهم من امتلاك الاحصنة، ومن وضع الاقراط ومن ارتداء الثياب البيضاء، او اظهار الصليب علناً، وطبعاً منعوهم من حمل السلاح».

ـ لكن فارسك يفعل كل ذلك.

ـ انه تصعيد في الرغبات. لقد استوحى النحات المسيحي اللوحة حين رأى صليبياً اسيراً في شوارع الموصل. هذا ما يفسر الرداء الابيض، اما اقراط الاذن، فعلى الارجح انها من اختلاقه.

والشيطان ماذا يمثل؟

فأجاب: الاسلام وكل ما له علاقة به. لم يحلم المسيحيون الا بامتلاك السلطة، بامتلاك دولة لهم. المساواة لا تعني شيئا لهم، ولا لاسيادهم المسلمين. اما ان تحكم، وأما ان تُحكَم. عاش المسيحيون واليهود في ظل تسامح المسلمين؛ انهم «اهل الكتاب»، أهل الذمة، اي المحميين؛ وعليهم دفع ضرائب خاصة. الا ان المسيحيين رفضوا فكرة الحماية

والتسامح. هذه المنحوتة الصغيرة تعبر تماماً عما يقصده المسيحيون حين يتحدثون عن انتصار الكنيسة، لان على الكنيسة في نظرهم ان تنتصر على شيء ما ـ اي على اعدائها.

ـ وهل انتصر فعلاً، مسيحيو الشرق هؤلاء؟ قلت متسائلاً.

كان من الممكن ايجاز جوابه التوضيحي ببضع كلمات: ليس فعلاً، أو ليس لوقت طويل. عندما فتح الاسلام الشرق الاوسط في القرن السابع من عصرنا، كان تسامحه واضحاً متميزاً تجاه مسيحيي الامبراطورية البيزنطية والعديد من الفرق الانشقاقية الاخرى التي تفرعت عنهم. لم يكن الفاتحون كثيري العدد، لذا اعتمدوا في بداية الامر على السكان المحليين، بغالبيتهم العظمى من المسيحيين. اصبح اعتناق الاسلام سياقاً ثابتاً. ويتفق المؤرخون من اديان مختلفة ان هذا الامر تم تماشياً مع العرف الاجتماعي ـ رغبة في التوافق مع الاتجاه العام ـ وليس بالقوة.

استمر وجود الصليبيين على امتداد شاطىء المتوسط ما يقرب من قرنين من الزمان (الثاني عشر والثالث عشر)، ولم يخلُ من مساوىء للمسحيين الذين ادعى هؤلاء انهم قدِموا لتحريرهم من الاسلام. الا انهم حملوا عليهم في مابعد لانهم تحالفوا في بعض الاحيان، مع العدو المسلم بالنسبة لهم، ونظموا ضدهم حملات ثأرية قاسية. في نهاية عهدهم، في القرن الثالث عشر، بعد ان طُردوا من الشرق الاوسط، تميز انسحاب الصليبيين بنهب الاسكندرية، الذي يماثل نهب القسطنطينية في بداية القرن ـ مركزان اساسيان للتجارة والعلم والثقافة. فتح تدمير بيزنطة الباب امام الغزوات الاسلامية نحو أوروبا. أدى نهب الاسكندرية وانتهاكات اخرى غيرها الى ان يضع المسلمون حداً لموقفهم المتسامح تجاه مسيحيي الشرق وان يفرضوا تلك الشروط التي ألهمت نحاتنا العراقي.

في منتصف القرن الثالث عشر، تحالف مسيحيو العراق مع الغزاة المغول، الذين اتجهوا لتدمير الامبراطوريتين الفارسية والعباسية. في

١٢٥٨، عندما اتحدت المجموعات القادمة من جورجيا المسيحية مع المغول، وذبحت ثمانين الف رجل وطفل في بغداد، خلال مذبحة دامت اربعين يوماً، لم يُعف منها الا مسيحيو العاصمة العباسية. بعد سنتين، تحدى المماليك المسلمون جنرال القائد المغولي هولاكو، في عين جالوت. كان هذا القائد مسيحياً، وكانت هذه المعركة، احدى المعارك الاكثر حسماً في التاريخ، لانها قضت على آخر امل في نشر مسيحية حية وقوية في الشرق بأسره. أخيراً تقبل المغول الاسلام، فوجد مسيحيو العراق، انفسهم في وضع لا يحسدون عليه، بعد ان بجّلوا هؤلاء الغزاة الآسيويين واعتبروهم رمزاً للثأر الالهي. (وقد وجدت لوحة تمثل هولاكو وزوجته خاتون ـ بسماتهما الآسيوية ـ كتجسيد حديث لقسطنطين وهيلانة اللذين نقلا الامبراطورية الرومانية الى المسيحية، ، قبل تسعة قرون).

منذ بداية الفتح الاسلامي، عمل المسيحيون الاكثر علماً من اسيادهم المسلمين، كأطباء وموظفين، وصيادلة وغير ذلك، في بلاط الدولة. وفي القرن الذي تلا هذا الفتح، قدمت سوريا وحدها خمسة باباوات للعالم، والقديس حنا الدمشقي، اللاهوتي الشهير، والاخطل، اكبر شاعر مسيحي في ذلك العصر. كما ساهم المسيحيون بفضل معارفهم اللغوية، في نقل الحضارة اليونانية، عبر ترجمة المؤلفات الفيزيائية، الطبية والهندسية وغيرها. وبحث بعضهم عن الخلاص في الجغرافيا، فلجأوا الى التلال والجبال البعيدة والنائية. هناك، استمروا في الحياة بطريقة أو بأخرى؛ من الموارنة في لبنان، الى الأرمن أو اليعاقبة في تركيا، والنسطوريين او الكلدان في العراق، كل هؤلاء المسيحيين بحثوا عن الاجنبي، الذي سينقذهم يوما ما ـ والله وحده يعلم كيف ـ من الاسلام ويساعدهم على تأسيس دولهم الخاصة المستقلة. اما الاقباط والارثوذكس اكبر مجموعات مسيحية في العالم الاسلامي، فرفضوا الانضمام الى افكار ومطالب الكنائس الاقل أهمية. مع مرور الوقت، حصلت كل طائفة من هذه الطوائف على مكتسبات حافظت عليها منذ

القرن السادس عشر، حينما تمكنت القوى الاوروبية من انتزاع «امتيازات» من الامبراطورية العثمانية، تسمح لها بحماية كافة المسيحيين داخل الامبراطورية. ساهمت هذه الامتيازات في تعبئة الاغلبية المسلمة ضد المسيحيين، خاصة انها استتبعت تفاقماً في الثراء لدى هؤلاء. وفي الوقت الذي تمنى فيه المسيحيون الدعم الاوروبي الذي سيسمح لهم بقلب الاوضاع رأساً على عقب على اسيادهم العثمانيين، اعتبرهم هؤلاء طابوراً خامساً، خونة يمثلون المصالح الغربية التي تزداد خطورة وقوة. واشهر مذبحة نفذها الاتراك (وبقيت حدثاً معزولاً)، أدت خلال الحرب العالمية الاولى، الى القضاء على ما يقرب من مليون ارمني. من الاسباب التي ساهمت في هذه المأساة، التحريض الاوروبي للأرمن منذ سنوات، فكان ذلك حجة برر بها الاتراك حصول المذبحة.

في لبنان، رفض الارمن الذين يعيشون بأكثريتهم المطلقة في المناطق المارونية، ان ينحازوا الى طرف من أطراف الصراع خلال الحرب الاهلية، كما رفضوا بشكل خاص دفع الأتاوات للميليشيات. عبر هذا التأمل، لما بدا لي انه تراجع تدريجي ومتواصل، في ثروات مسيحيي الشرق، الناتج في معظم الاحيان عن اخطائهم لا عن مضايقات المسلمين لهم، سألت مضيفي خبير التاريخ الكنسي، اذا كان امله كبيرا في بقاء المسيحيين. لان هؤلاء، ومنذ سنوات، يغادرون بانتظام اسرائيل والاراضي المحتلة، وهناك بعض النزوح من ايران الاسلامية، وكذلك هجرة، ليست اقل اهمية، من لبنان وسوريا والعراق.

اجابني: «آمل الا يُدان مسيحيو المشرق، ولكن بالنهج الذي يسلكونه، لا اعرف كيف يمكن تجنب كل ذلك».

ـ سألت: كم من الوقت يلزمهم؟

ـ كقوة فعلية، ما بين خمسين ومئة او مئة وخمسين سنة. قال ذلك وهو يتأمل المنحوتة المعلقة على الحائط.

ـ الا يدهشك بقاء مسيحيين في الشرق الاوسط؟

ـ لا احد يعلم متى، وكيف تختفي الساقية في رمال الصحراء.

أي مسيحي لبناني، ذي فكر واقعي نوعا ما، سيعارض الفكرة وكذلك الصورة التي عرضناها. من الصعب القول بدقة ما هي الطوائف المسيحية المختلفة ـ وكذلك الطوائف اللبنانية الاخرى ـ ولكن بالمقابل، يمكن التأكيد انهم ليسوا اهل صحراء، ولم يعودوا كذلك، مهما كانت اصولهم. في الواقع ما يميز لبنان عن باقي الشرق الاوسط، جباله ومياهه الوفيرة وقربه من المتوسط. مزيج سمح للآجئين بالحفاظ على هويتهم ايضاً.

من هذه المرتفعات المطلة على البحر المتوسط، أتى الخشب الذي استخدمه الفينيقيون طيلة الفي سنة لبناء سفنهم، وكذلك فراعنة مصر وروما الامبراطورية. كما اعطت هذه الغابات الكثيفة ـ غابات الارز التي ورد ذكرها في التوراة ـ زيوتاً استخدمها المصريون للتحنيط: «في كل مرة يموت فيها مصري، يكسب اللبنانيون مالاً». اعتاد احد اساتذة الجامعة الاميركية في بيروت تكرار ذلك. كما ان لبنان قدم للملك سليمان شجر الارز والعمال لبناء هيكل القدس.

سكن الفينيقيون في مدن مستقلة محاذية للساحل، ليس لها اي امتداد نحو الداخل؛ لم يتميزوا بمواهبهم الخلاقة ولم يساهموا في تحسين المصير المادي للانسان، ولا في تقدمه على المستوى الفلسفي. الا انهم، دون ميزة الابداع، كانوا ناقلي ثقافة ممتازين، واليهم يُنسب غالباً اول تمازج ثقافي. ليسوا هم من اخترع الاحرف الابجدية، هذا لا يعجب اللبنانيين طبعاً، لكنهم بالمقابل، نشروها عبر امبراطوريتهم التجارية الواسعة التي امتدت إبان ازدهارها، من الشاطىء اللبناني الى قرطاجة (تونس الحالية)، والى اسبانيا وما وراءها في ما بعد. كان الشاطىء

اللبناني مركزاً لتقاطع اللغات، يتلاقى فيه المسافرون القادمون من انحاء العالم القديم، ومركزاً ثقافياً، يناسب مجتمعاً تجارياً واسعاً؛ وكانت المدن الفينيقية، جبيل، بيروت، صيدا وصور نقاطاً حساسة للطرق التجارية الكبرى نحو الغرب عبر الشاطىء المتوسط، ونحو الشرق الى الخليج الفارسي والهند والصين وما وراءها.

استمر لبنان، طيلة تاريخه، في دور مماثل للدور الفينيقي. وعلى غرار هؤلاء، لم يكن لدى اللبنانيين المعاصرين اي احساس حقيقي بالدولة. فالمدن الفينيقية لم تتوحد فعلياً الا عندما تحكمها سلطة خارجية. في شمال بيروت، على ضفاف نهر الكلب، حيث يمتد الجبل الى البحر، لوحة نحت عليها اسماء الذين مروا وهُزموا: بينهم الحثيون والاشوريون، اليونان والرومان، الفرنسيون والانكليز. بعض هؤلاء الغزاة لم يكلف نفسه عناء اخضاع المناطق الجبلية طالما بقيت طرق الاتصال مفتوحة، والضرائب تجبى بانتظام، فما يحصل في الجبال لا اهمية له على الاطلاق.

كيف يمكن للموارنة اذن، الفخورين باستقلالهم كجبليين، وما يفرضه ذلك من نقاء عرقي ثمرة عدة قرون من الانعزال، ان يقارنوا انفسهم بفينيقيي هذا الشاطىء الهجين؟ ولماذا يصرّون على التحدر من المردة، هذا الشعب الغريب والقوي، الذي اشير اليه في بداية الفتح الاسلامي، حيث تركه البيزنطيون المهزومون خلفهم ليعرقل تقدم الغزاة المسلمين؟

الجواب بسيط جدا. بهذه الصلة مع الفينيقيين والمردة يستطيع مسيحيو لبنان ان ينفصلوا عن العرب والاسلام. اصبح هذا الامر اهتماماً ثابتاً، لدى الموارنة منذ القرن التاسع عشر. وبات كل ما يدعم نظريتهم حول وجودهم ما قبل الاسلام، يصب الحب في طاحونتهم، او بشكل ادق يرضي جانباً من العقل الماروني الذي يرفض العالم العربي وثقافته،

لان بينهم من يفاخر بأصوله العربية وبمساهمته في الثقافة العربية. ولكن طيلة القرنين الماضيين، كان التاريخ الماروني بشكله العام، نتاج مؤلفين كنسيين أصروا دون هوادة على برهان فرضية «اللاعرب». مؤخراً فقط، اعاد النظر بهذه الفرضية، بعض المؤرخين، وحتى بعض رجال الكنيسة المهمين، رغم ما يسببه كشف الدوافع السياسية البحتة للكنيسة في المشرق من احراج لها.

اذن، من هم الموارنة؟ يعود اسمهم الى القديس مارون ناسك عاش في القرن الخامس. لم يكونوا في البداية سوى طائفة مسيحية ذات اصول غامضة، عاشت فيما يسمى اليوم وادي العاصي شمال سوريا، حول مدينة حماة. يؤكد بعض المؤرخين ان مارون اصبح قديساً لانه استأصل الوثنية من تلك المنطقة. (كوفيء قديسون آخرون ـ للسبب نفسه ـ بينهم مزارعون في صراع مع الكنيسة البيزنطية، تلك الكنيسة الاكثر قوة وتنظيماً، والتي يسيطر زعماؤها الزمنيون على قسم كبير من الشرق الاوسط). لم ينظر البيزنطيون بعين الرضا الى الموارنة، وكذلك الى اي من الطوائف المسيحية الانشقاقية، التي انتشرت قبل الغزو الاسلامي في القرن السابع. اما معرفة من اين أتى الموارنة اصلاً، فهو تفصيل يضيع في متاهات التاريخ، لكن من المعلوم أن شعوباً سامية عاشت في قسم كبير من سوريا، اثر هجرتها من الجزيرة العربية حيث ساد الفاتحون المحمديون الذين لا يقاومون. يحب المؤرخون الموارنة الايحاء بأن اجدادهم نزحوا من وادي العاصي هرباً من اضطهاد المسلمين. الا ان الوثائق الموجودة كافة تشير الى ان هؤلاء ـ وطيلة عدة قرون ـ اظهروا تسامحاً فائقاً نحو مسيحيي الشرق الانشقاقيين الذين ناصبهم العداء بشكل اساسي الاباطرة البيزنطيون في القسطنطينية. واذا صدقنا الاسطورة في القرن السابع، فقد استقبل الموارنة وصول العرب برقصات الفرح والانتصار، نظراً لخلاصهم من الاستبداد البيزنطي. على كل حال، أتت لحظة اتفاق السلام بين البيزنطيين والمسلمين، واعادت

القسطنطينية لمدة قرن من الزمان، سلطتها على قسم واسع من العاصي. حول هذه الفترة، لا توجد اي وثيقة تشير الى ان الموارنة سكنوا في هذا الوادي. هكذا ولدت النظرية القائلة بأن البيزنطيين، حاولوا مرة اخرى، اعادة الموارنة الى الصراط المستقيم؛ وان الاب يوحنا مارون، في بداية القرن السابع الذي اكتسب صفة القديس، قاد الموارنة نحو الجنوب، واقام اخيراً في شمال لبنان بمحاذاة الشاطىء حول البترون وجبيل. كان الموارنة الطائفة المسيحية الوحيدة التي نجت بعد الفتح الاسلامي، والوحيدة التي استخدمت اللغة العربية منذ البداية في سجلاتها الكنسَية. ويبدو ان اي صدام هام لم يحصل مع الفاتحين الجدد قبل ان يلطخ تعاونهم مع الصليبيين ولاءهم. ويقال في بعض الاحيان ان الموارنة تحالفوا مع الصليبيين لان عداء هؤلاء للبيزنطيين يوازي على الاقل عداءهم للمسلمين.

انقضى شطر هام من القرن الخامس عشر قبل ان يطرد المماليك الموارنة من التلال المرتفعة على امتداد الشاطىء، ويرغموهم على التراجع الى مناطق صعبة المسالك في وادي قاديشا (الوادي المقدس). لا يزال قاديشا اليوم مركزهم الروحي. الا ان يوحنا مارون لاحظ ان البطريركية البيزنطية لأنطاكية خالية، فلم يتردد في اعلان نفسه «بطريرك انطاكية وسائر المشرق». هذا اللقب المدبج ذو دلالة على اعتداد الموارنة بأنفسهم وعلى احساسهم، كباقي اللبنانيين، بجنون العظمة. «الله كبير، ولكن من يصل الى مستوى مار مارون؟».

نسج المؤرخون، عبر القرون، دوراً خاصاً للموارنة داخل المسيحية. هكذا ادعوا في مناسبات عدة ان البطريرك الماروني (الذي لم يمارس اي سلطة بطريركية على انطاكية، ولا حتى على «سائر المشرق») كان الخليفة الشرعي الوحيد للقديس بطرس، مؤسس كنيسة انطاكية.

دعّم هذا الاعلان ادعاءات الموارنة «بالارثوذكسية الازلية» وبالقدم امام روما نفسها. (في الواقع، طمس الموارنة انتسابهم الى هرطقة التوحيد، القائلة بأن للمسيح طبيعتين متطابقتين تماماً، تعكسان طاقة واحدة وإرادة واحدة، وهي احدى العقائد الكثيرة التي ادانتها روما وبيزنطة في ايام المسيحية الاولى). الا انه في عام ١٠٩٩، بعد أقل من سنة على استيلاء الصليبيين الاوائل على القدس، وجه بطريرك الموارنة الى البابا رسالة تهنئة. هكذا بدأت علاقة الموارنة الطويلة بالغرب، ظاهرة بقيت وحيدة في تاريخ المسيحية في الشرق. وفي ايامنا ايضاً، تدعي بعض العائلات الكبيرة في شمال لبنان، امثال آل فرنجية او منافسيهم الاشداء آل الدويهي، انهم يتحدرون من الصليبيين، مؤكدين ان اسمهم الحالي ليس سوى تحريف لكلمات «فرنجي» و«دويه». روت لي احدى صديقاتي، وهي مارونية، انها تتذكر في طفولتها شجرة العائلة التي تعود، وفقاً لوالدتها، الى غودفروا دي بويّون.

قدّم الموارنة الى الصليبيين مجموعات من الرماة قاتلت الى جانب اخوانهم الغربيين. احتل الصليبيون طرابلس وغيرها من المدن على ساحل المتوسط، كما كانوا معادين ايضاً لبيزنطة. اعجب الموارنة بانتصاراتهم العسكرية. الا ان الامر انتهى بهم الى التمرد على الصليبيين فعاقبهم هؤلاء لانهم ساعدوا المسلمين. اطلق الصليبيون على المرتدين الموارنة لقب «رجال الدم»، والمقصود بهم فيما يبدو اولئك الجبليين الذين لم يعرفوا في الماضي ولا اليوم غير قانونهم، ولا يثقون بأي سلطة.

لم يمنع كل ذلك الكنيسة المارونية، التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ هذا الشعب، من ارسال بطريركها الى روما. في عام ١١٨٠، أشار المؤرخ غليوم دي تير الى «التحول الرائع» للموارنة، الذين اختاروا الالتحاق بالقطيع البابوي وأضحوا اول كنيسة في الشرق الاوسط تعترف بسيادة السلطة البابوية. (رغم نفيهم العلني، تخلى الموارنة سراً عن

الهرطقة التوحيدية). لكنهم حصلوا في المقابل على تعويض جدير بنزعتهم الاستقلالية، اذ استمر احياء الشعائر المسيحية بالسريانية، بدلاً من اللاتينية المعتادة، ولا زالت كذلك الى اليوم. كما لم يلحّ الفاتيكان ايضاً ليضع حداً لزواج الرهبان الموارنة، ولعادة اختلاط الرهبان والراهبات في اديرة واحدة. كانت روما على استعداد لقبول ممارسات من هذا النوع بالاضافة الى نظرية لاهوتية مشككة، مقابل الاعتراف بسلطتها المطلقة من قبل الموارنة.

في نهاية المطاف، مُنيَ المشروع الصليبي بالفشل، ووجد مسيحيو هذه المنطقة انفسهم كذي قبل تحت حكم المسلمين، بعد ان وُعدوا بتخليصهم والقدس من الاسلام. الا ان هذا الحكم بات اكثر قساوة، وفرض عليهم قوانين لم يعرفوها سابقاً. ان ثقتهم البائسة في تحصيل حرية دائمة ودول سياسية مستقلة ومميزة عبر المغول ومن ثم عبر الصليبيين، كان خطأً مأساوياً في التقدير، تكرر مرات عدة عبر القرون في ظروف مختلفة. كان الموارنة وحدهم تقريباً استثناء لهذه القاعدة. فقلاعهم الجبلية، وقربهم من المتوسط، ومقدرتهم في الحفاظ على علاقاتهم مع الغرب، كان عظيم الفائدة بالنسبة لهم.

اذا صدّقنا الفلسفة التي سادت لدى الموارنة منذ عدة قرون، يجب ان نرى في لبنان بلداً متوسطياً يقع ليس في الطرف الغربي للعالم العربي والاسلامي، بل في الطرف الشرقي للمسيحية. الا ان مكونات التاريخ تشير الى انه حتى قبل ان يُطرد الصليبيون من الشرق الاوسط، انقلب الموارنة عليهم وساهموا بشكل غير مباشر في تحقيق انتصار المماليك الذين استولوا على طرابلس عام ١٢٨٩ . اضطهد المماليك، وهم مسلمون سنّة، المسيحيين الارثوذكس والاقلية الاسلامية الشيعية. ولا يذكر التاريخ اي اضطهاد للموارنة في ذلك الوقت، الذين سرعان ما رتبوا

اوضاعهم مع الفاتحين الجدد عبر اتفاقات لجباية الضرائب وفرض الامن والنظام، مقابل الحفاظ على عاداتهم الخاصة. اما الاضطهاد الوحيد الذي تعرضوا له، فكان إثر نهب الصليبيين للاسكندرية، الذي أدى الى ثأر طال جميع المسيحيين أحرق البطريرك الماروني غبريال حياً في طرابلس، بعد ان اتهمه زوراً بالعمالة، رهبان آخرون من اكليروسه.

في القرون اللاحقة، بقيت الطائفة المارونية ضعيفة مفككة، تمزقها الصراعات الحزبية. كانت الاتصالات مع روما جد نادرة. والفرنسيسكان الذين اوكلت اليهم البابوية امر الاشراف على مصير مسيحيي الشرق، كان نشاطهم متقطعاً. يذكر بعض المؤرخين الموارنة ان الامراء الذين حكموا جبل لبنان كانوا موارنة منذ الايام الاولى. هذه التصريحات تعكس في حقيقة الامر رغبة الموارنة، التي كُشفت لاحقاً، في ستر اصولهم العربية، وخضوعهم للسنة اولا ثم للدروز فيما بعد. وتعلمنا السجلات ان ظهور الموارنة في واجهة الحياة اللبنانية كان نتيجة علاقاتهم مع الدروز، التي نسجوها في القرن السادس عشر.

الدروز طائفة اسلامية باطنية، تأسست في نهاية القرن العاشر على يد الخليفة الفاطمي الحاكم في مصر. طردوا من مصر وأتوا الى لبنان للاسباب نفسها: المارونية والشيعية، فالجبل ملجأ ممتاز للمتمردين. وعلاوة على الموارنة، كانت للدروز والشيعة اسباب وجيهة لتجنب السلطات السنية الاكثر تشدداً مع المسلمين «المرتدين»، من اي طائفة مسيحية اخرى. يقبل القرآن في الواقع، المسيحيين واليهود «أهل الكتاب»، لانهم سابقون على النبي، لكنه لا يسمح بأيّ خليفة له. يظن اتباع «الحاكم» انه لم يمت وانه سيعاود الظهور. وعلى غرار الاسماعيليين يعتقد الدروز بنظريتي الفيض والتقمص. عرف عنهم مقدرتهم العسكرية وشدة تنظيمهم، الا انهم لا يبشرون بدعوتهم ولا يتلقى اسرار الدين الا قلة منهم. خلال القسم الاكبر من تاريخهم الطويل، خاصة في بداية

علاقاتهم مع مقاطعجيتهم الموارنة، اظهر الدروز تسامحاً نحو الاديان الاخرى قل نظيره في منطقة الشرق الاوسط مهد الشرائع السماوية، والتعصب. وكالكثير من الاقليات الاسلامية، مارس الدروز «التقية» التي تسمح لهم باخفاء معتقدهم عن الغرباء.

استؤنفت علاقات الموارنة مع روما عام ١٤٣٩. وفي سنة ١٥١٥ اشاد الباب ليون العاشر بهم اثناء موعظة بابوية، محدداً انهم رغم الاضطهاد والتجارب الاخرى «وسط غير المؤمنين، حفظ الله اتباعه المخلصين كوردة بين الاشواك». كما هنأ البابا الموارنة لانهم واجهوا ليس المسلمين فقط بل و«الانشقاقيين»، وهو لقب يطلق على الارثوذكس وعلى «المرتدين» (اليعاقبة الذين حاولوا ضم اتباع لهم في جبل لبنان). بعد اقل من جيل على فتح العثمانيين للبنان، وقّع فرنسوا الاول والسلطان سليمان عام ١٥٣٦، اول «امتيازات» جعلت من الفرنسيين داخل الامبراطورية التركية، حُماة لمسيحيي اوروبا وآسيا على السواء. يؤكد المؤرخون الموارنة على هذه العلاقة الاولى مع فرنسا، دون توسط الفاتيكان. الا ان الوقائع الجغرافية وصعوبات السفر لم تسمح الا بحماية رمزية. كانت باريس والقسطنطينية بعيدتين عن لبنان. بعد نصف قرن، عام ١٥٨٤، افتتح في روما حلقة مارونية للدراسة، لاعداد الاكليروس. لكن الموارنة، كانوا يعيشون في عزلة تامة، لا تأثير لهم في الحياة الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان. البطاركة كانوا عرضة لهذه المضايقات ـ من افراد طائفتهم في بعض الاحيان ـ مما اضطرهم لمغادرة مطرانية «قنوبين» في وادي قاديشا، والالتجاء الى المغاور. ويروى ان اثنين منهم لجأا الى الامراء الدروز في جنوب لبنان، هرباً من اخصامهم الموارنة.

بعد قرن، وبمباركة الامير فخر الدين، قام الموارنة بحملة توسعية هائلة. اذ شجعهم الامير على مغادرة الجبال شمال البلاد، املاً في

الاستفادة من عملهم الصناعي لملء الخزينة. اتجه الموارنة نحو الجنوب الى كسروان، معقل الشيعة الذين طُردوا وتراجعوا حتى وادي البقاع. كما هاجر الموارنة ايضا باعداد كبيرة نحو المناطق الدرزية في عمق الجنوب، تحت اشراف الكهنة والرهبان واسسوا الاديرة، وزرعوا الوديان. في هذه الفترة بدأت الكنيسة المارونية تكسب الاراضي. وتشجيعا للتوسع نحو الجنوب، وُهبت المساحات الواسعة، على ان تصبح ملكاً خاصاً بعد عشر سنوات من استغلالها. ومع بداية القرن الثامن عشر اصبحت منطقة كسروان بأكملها مارونية، واصبحت الكنيسة المارونية المؤسسة الاكثر اتساعاً وغنى وتنظيماً في جبل لبنان بأسره. في منتصف القرن التاسع عشر قدرت املاك الكنيسة والاديرة بربع (وحتى الثلث، في مصادر اخرى) اراضي جبل لبنان. هذا الانتقال نحو الجنوب وفر مجالات عمل واسعة لجميع الفلاحين الذين لا اراض لهم. ولولا ان الكنيسة ـ خاصة الرهبان روادها الحقيقيون ـ لما امكن جمع رؤوس الاموال، ولا الاستفادة من التقنيات الملائمة لهذا النوع من الاستغلال. هذه الطريقة طبقها الصهاينة فيما بعد، اثناء توسعهم باتجاه فلسطين، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

يكمن سر نجاح الكنيسة المارونية في نظام تراتبي يبدأ من الراهب البسيط وصولا حتى الحبر الاعظم في روما. تم التخلي عن السريانية ـ الا في الشعائر ـ لصالح العربية التي وفّرت للرهبان وسيلة اتصال اكثر يسراً مع الفلاحين الأميين.

مع القرنين السابع عشر والثامن عشر، لم تكف قوة الموارنة عن النمو، وتم تشجيعهم لمتابعة توسعهم على امتداد ما يعرف اليوم طريق بيروت دمشق، وفي مركز البلد، ونحو الشوف، ثم الى جزين وحتى الى الحدود الاسرائيلية ـ اللبنانية الحالية. والتف حزام من القرى المارونية والمسيحية حول السكان الدروز المتمركزين في الشوف وبعبدا

وعاليه. بقي جبل لبنان، الذي اعتبره الموارنة مجالاً لهم، حصنهم المنيع، الذي يتراجعون اليه في حال الخطر. لذا عارضوا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، شق طريق ضخم بين بيروت ودمشق، خشية دخول القوات التركية بسهولة الى معقلهم.

إزداد نفوذ الموارنة شيئاً فشيئاً الى درجة ان احد آل شهاب، الدرزي اصلاً، وجد ان الانسب سياسياً له اعتناق المسيحية عام ١٧٥٦. وابقى هذا الانقلاب سراً لضبط الامن داخل البلد، مما اثار لدى الموارنة مشاعر اكثر حدة. عندما حل القرن التاسع عشر، اصرّ الموارنة على الشهابيين للجهر بانتمائهم للمسيحية، اعترافاً بقوة الموارنة المتنامية. احس امراء الدروز شيئاً فشيئاً بالخطر الذي يمثله الموارنة، الذين طمحوا في ظل اكليروسهم، الى سلطة سياسية تلائم تفوقهم العددي والمالي. بدأت سلسلة من الاضطرابات عام ١٨٢٠، وتكررت عام ١٨٤٠ وعام ١٨٦٠، وأدت بشراستها الهائلة الى فرط التوازن بين الدروز والموارنة، حصيلة القرنين الماضيين. هذه الحالة لدى الفكر الماروني، ابرزت مرة اخرى مؤرخيهم الذين طمسوا الفترة الدرزية، ليتعلقوا بالأساطير الفينيقية وبفترة ما قبل الاسلام.

مهما كانت العقبات التي تم تجاوزها، فان المصاعب الجديدة التي خيّمت على لبنان آنذاك كانت اكثر عنفاً ولا يزال ارثها يشكل الى اليوم آفة حقيقية. هذه السنوات العشرون من الحرب الاهلية، في منتصف القرن التاسع عشر، أدت الى ولادة الصراعات الدينية ووضعت البلاد على حافة انهيار تام. اظهر اللبنانيون الذين منحهم العثمانيون استقلالا فعلياً، انهم عاجزون تماماً عن حل خلافاتهم السياسية الداخلية. هكذا وُلدت صورة، اتضح انها ثابتة وآثارها تشتد ضرراً يوما بعد يوم، تُبيّن اللبنانيين - وهم اول من رأوها - كضحايا للتنافس الدولي. ولاول مرة، لكنها ليست الاخيرة، لوّح اللبنانيون بعذر التدخل الخارجي لتبرير نفورهم عن حل

مشاكلهم السياسية الداخلية قبل دعوة القوى الغربية للتدخل. هكذا تدخل العثمانيون ودول اخرى في شؤون لبنان، فدعموا هذه الطائفة أو تلك، لخدمة مطامحهم القومية. سعى الاتراك لوضع حد لاستقلال جبل لبنان الضمني، عبر تحريك التناقضات الدينية الكامنة. اعتمد اللبنانيون على دعم القناصل الغربيين في بيروت، وهو تقليد لا يزال ساري المفعول حتى اليوم، حيث تستمد الاحزاب والقيادات السياسية المال والسلاح من القوى العربية وغيرها. ابتداء من عام ١٨٤٠ دعم الفرنسيون الموارنة علناً، ودعم البريطانيون الدروز، وجعل الروس انفسهم حماة الارثوذكس، النمساويون والبروسيون نافسوا فرنسا في دعم الموارنة والكاثوليك الآخرين. هذه الحالة اثارت من الاستياء لدى احد الوطنيين الموارنة ما دفعه للقول، بسخرية لاذعة، ان فنجان قهوة يقع على الارض قد يتسبب في مشكلة دبلوماسية بين لندن وباريس.

كان همّ الاتراك استعادة السيطرة المباشرة على الجبل حيث الضرائب تجبى منذ قرون بواسطة مزارعين عموميين. الاوروبيون من جهتهم، يبحثون عن مصالحهم الخاصة. فالروس يريدون تدمير الامبراطورية العثمانية بفصل الاقسام الآسيوية عنها. وبريطانيا العظمى تفضل الحفاظ على الوضع القائم بالدفاع عن الامبراطورية نفسها ومنع القوى المنافسة لها من تحقيق مزيد من المكاسب. وفرنسا كانت في وضع متأرجح بين دورها التقليدي في حماية مسيحيي الشرق، خاصة الموارنة، وبين رغبتها في الحفاظ على الفزاعة التركية لمواجهة نفوذ النمسا وبروسيا وروسيا. لم يجد احد الحكام الاتراك ما يهاجمه سوى المبشرين الفرنسيين الذين رأى فيهم «جيشاً غير نظامي للبابا في لبنان يتسترون بزي الرهبان، وهم عملاء سياسيون وزارعون للفتن». بدأت مرحلة طويلة من اللااستقرار، مع سقوط الامير بشير الثاني، الذي حكم من ١٧٨٨ الى ١٨٤٠. دعم هذا الاخير رغماً عنه، وبموافقة فرنسا، ابراهيم باشا

المصري الذي تمكن من احتلال سوريا ولبنان وهدد بقلب العثمانيين. نقل البريطانيون، لمواجهة احتمال من هذا النوع، سلاحاً ومجموعات تركية الى لبنان. تراجع ابراهيم باشا الى مصر، لكن بشير الثاني أرغم على مغادرة البلاد. بقي الى يومنا هذا (مع فخر الدين قبله بقرنين) اللبناني الوحيد الذي يُنظر اليه كبطل قومي، على الاقل بالنسبة للمسيحيين. مع العلم انه لم يتردد في خنق، وتعذيب، وإهانة من اعترض سبيله، سواء من الارستقراطيين الدروز او المستشارين المسيحيين. لم يؤد العنف في حد ذاته الى اخافة اللبنانيين ابداً، طالما انه غير مجاني (لانه كذلك في بعض الحالات). انه لامر عادي في الشرق، ممارسة العنف لتجنب عنف آخر. عام ١٨٥٧، قال ديفيد اوركهارت احد الانكليز المقيمين في لبنان، بشأن ميل اللبنانيين للعنف: «إذا توقف العنف لفترة من الوقت، فانه يعاود الظهور فجأة، دون سبب ظاهر، وكأن هناك ضرورة مزمنة لتبيان تاريخ البلد بسلسلة متناغمة من الوحشية: فلا يمر فصل دون امير منفي، ومنافس قتيل، ومنطقة خاضعة». وكما برهنت على ذلك الحرب الاهلية عام ٧٥ ـ ١٩٧٦، ضاعفت الوسائل الحديثة بكل بساطة، وبطريقة هندسية هذه الظاهرة الاساسية. دحر الخصم، الاستيلاء على ممتلكاته، ضم اتباعه، ذلك من الطرائق السياسية القديمة في الشرق. عمل بشير الثاني على هدي العرف السائد في مجتمعه. خلفاؤه الحديثون نسخ تقنيته، دون ان يصيبوا ما اصابه من نجاح.

استمد هذا العنف قوته من بعض توترات المجتمع اللبناني، الناجمة عن ضغوطات مناطقية وديموغرافية. في السنوات الاخيرة لحكم بشير الثاني، أثرى المسيحيون بشكل ملحوظ، بتشجيع من ابراهيم باشا الذي يبحث عن دعم اوروبي لاطماعه التوسعية. وكما حصل غالباً للاقليات عبر التاريخ، اثارت ثروة المسيحيين حسد وكره المحيطين بهم. ولغاية اليوم، لا تزال من ثوابت المجتمع اللبناني، تلك الرغبة غير المسؤولة

والتحريضية للتباهي المفرط بالغنى، والتغاضي عن مخاطر الظلم والتوزيع غير العادل للم للممتلكات المادية. ترك الكولونيل شارل تشرشل، وهو انكليزي عاش وسط الدروز من ١٨٤٢ الى ١٨٥٢، دليلاً دامغاً عن لا مبالاة الموارنة في مدينة دير القمر، في الشوف، حيث طرد بشير الارستقراطية الدرزية: «شيد تجارهم اماكن واسعة ذات فناءات وبرك من رخام، واثاث فاخر ثمين. انتقلت اراضي الدروز كافة الى ملكيتهم. بلغوا اخيراً مستوى من الرخاء يوازي مستوى اسيادهم الاقطاعيين... كدس زعماؤهم الثروات وامتلكوا الاسطبلات، ارتدت نساؤهم وبناتهم الحرير والاطلس، وتزينوا بحلى من الذهب والالماس واللؤلؤ... اما بعض الدروز الذين بقوا في المدينة، فلم يُلتفت لهم واصبحوا جزارين او ناقلي ماء». عندما سقط بشير، عاد نبلاء الدروز من منفاهم وطالبوا بممتلكاتهم.

الا ان المواجهات بين الدروز والموارنة لم تكن الاسباب الوحيدة للتوتر في جبل لبنان. عام ١٨٥٨، ثار فلاحو كسروان الموارنة، يدعمهم بعض رجال الدين الطموحين، ضد اسيادهم الاقطاعيين الموارنة. اكتفى الاتراك بمراقبة الصراع دون التدخل. لم يتبع الفلاحون الدروز، الاكثر انضباطاً، نموذج اخوانهم الموارنة، بل على العكس، بدأوا الاستعداد الى جانب النبلاء الدروز، للمواجهة الحتمية مع الموارنة. بدأت المعارك في ايار (مايو) عام ١٨٦٠. نجح الانضباط الدرزي في كسب المعركة، رغم تفوق الموارنة عدداً وسلاحاً، الذين اضعفتهم صراعاتهم الداخلية. عندما انتهى هذا الصراع الذي دام اكثر من شهر، كان حصيلته اثنا عشر الف قتيل مسيحي في المناطق الدرزية، واربعة آلاف آخرين قضوا بؤساً، بالاضافة الى مئة الف دون مأوى. في سوريا، كان النموذج اللبناني سبباً لمقتل خمسة آلاف وخمسمئة مسيحي في دمشق. لم تتحرك السلطات التركية في اي من البلدين لوضع حد للمجازر وفي بعض الحالات ساهمت بتشجيعها. الا ان المفاجأة القاسية للموارنة، كانت في الدعم

الذي تلقاه الدروز من المسلمين السنة والشيعة. رغم ان الموارنة يتحملون قسطا من هذه المأساة بإيقادهم للنار - وبمضاعفتها فيما بعد برفضهم للتعاون - فإنهم لم يتعلموا هذا الدرس من احداث ١٨٦٠ . بل احتفظوا منها، فيما يبدو، بصدمة مستعصية، وكأنهم اختاروا وهم الذين اعتادوا التملص من دفع الثمن، ان يركزوا في وعيهم الجماعي ذكرى الاضطهادات المناهضة للمسيحية في الشرق الاوسط، منذ قدوم الاسلام. في الواقع، لم يكونوا وحدهم ضحايا هذه المذابح: فكثير من الكاثوليك والارثوذكس، قضوا نحبهم فيها، لكن الموارنة وحدهم يمتلكون تنظيماً، وإحساساً بالإرادة الوطنية، ودينامية كافية للتأكيد بأن ١٨٦٠ ستبقى في الذاكرة رمزاً لإذى أبدي.

بطريقة تدعو للسخرية الى حد ما، خرج الموارنة منتصرين سياسياً من الصراع الذي هزموا فيه شر هزيمة فعلية مع الدروز. ارسلت فرنسا في نهاية المذابح، قوة الى لبنان، مع دعم خجول من القوى الاوروبية الاخرى، فاضطر العثمانيون للموافقة على جعل جبل لبنان مقاطعة مستقلة يسيطر عليها الموارنة، في ظل وصاية ست دول اوروبية، يحكمها مسيحي غير لبناني من الامبراطورية التركية ويعاونه مجلس اداري منتخب. لم يحقق الموارنة مطلقاً الهدف الذي سعوا دائماً نحوه: دولتهم الخاصة. هكذا تكرس في لبنان سنة ١٨٤٠ ترتيب تعتمد فيه السلطة السياسية على نظام الاقليات. ادى هذا النظام الى تمثيل الست عشرة طائفة المعترف بها رسمياً، الا ان اقتسام السلطة كان موضع احتجاج يتصاعد باستمرار، خاصة بعد الاحصاء الاخير الذي يعود لعام ١٩٣٢. من وجهة النظر الاجتماعية، كان على كل لبناني ان ينتمي الى دين ما أويتبنى ايماناً ما، سواء اكان مؤمناً ام ملحداً. الموظفون يعينون «مزاجياً» وفقاً لهذا التوزيع الديني. هذا النظام كان دائماً في اصل الاضطرابات وهو الذي ساهم في الانهيار النهائي للبنان، لان المراكز الهامة كانت حكراً على الموارنة، وبدرجة اقل من ذلك، للسنة. وخلال فترة من الزمن، لم يعلن

احصاء رسمي، لانه سيؤكد دون شك، وجود اكثرية اسلامية بدأت تقاوم بعنف متنام احكام النظام السياسية، دون ان تعارض الاوضاع الخاصة لكل طائفة، انسجاماً مع عقيدة الاسلام.

سمح النظام القائم للمسيحيين واليهود بترتيب معيشتهم، وبلعب دور اساسي في التجارة، والمال وغيرها، كما منع الطوائف من الاختلاط. بل يمكن القول انها تعاملت مع بعضها بحذر وريب. في ظل الاتراك، لم يُظهر السنة فقط حذراً فيما بينهم، فقد تماهوا بالسلطة السياسية للسلطان السني، الخليفة او حارس الدين. الطوائف الاخرى، حُرمت من السلطة والمسؤولية، وبقيت هامشية. يكمن الجشع وقصر النظر السياسي في لبنان الحديث، في ظل سيطرة الموارنة، وفقاً للمدافعين عن القضية المارونية، في رغبة دفينة منذ زمن لقطف ثمار السلطة والتغذي بها.

مهما يكن، فإن نصف القرن الذي فصل اضطرابات ١٨٦٠ عن الحرب العالمية الاولى، اعتبره اللبنانيون والغربيون على حد سواء، عصر لبنان الذهبي. كان جبل لبنان المفصول عن بيروت، وطرابلس، وصيدا ووادي البقاع، اكثر ايامه ازدهاراً. عن ذلك، كتب المراسل الاميركي هنري هـ. جيسوب Jessup في القرن التاسع عشر ان لبنان اصبح «البلد الافضل حكماً، والافضل ازدهاراً، وهدوءاً واكتفاءً في الشرق الاوسط». اشار فيليب حتّي، المؤرخ الاميركي ذو الاصل اللبناني، الى ان لبنان انتقل، في برهة قصيرة، نصف قرن، من العصور الوسطى الى الحداثة». كتب حتي هذه الملاحظة قبل عشرين سنة من ان يصبح لبنان الذي يعرفه في مهب الريح، وذلك بسبب هذه التقديرات جد المختلفة التي تثيرها هذه «الحداثة». وفي نظره، ونظر الكثير من المسيحيين اليوم، كانت «الحداثة» وتبقى هي «التغريب» الذي لم يكن ليثير في تلك الفترة، ما يثيره اليوم من حذر في الشرق الاوسط. زد على ذلك، ان التغريب في ذهن بعض اللبنانيين، يبقى مماثلاً لنموذج عالمي يمكن تطبيقه دون خطر - وحتى مع نتائج مضمونة - في المجالات العلمية

والتكنولوجية كما في المجالات السياسية. في نهاية القرن التاسع عشر، تقبّل مسيحيو لبنان الغرب، دون اي خلفية مسبقة، بمعارفه وطرائقه العلمانية. فالغربيون اخوان في الدين يدعمون قضية اخوانهم في الشرق ويحمونهم. اما بالنسبة للبنانيين المسلمين - حتى الاكثر تطوراً فيهم - فالتغريب يضع موضع الشك اعمق اعتقاداتهم حميمية بدءاً من النظام الاسلامي التقليدي الذي لا يعرف اي فصل بين الكنيسة والدولة. كان التغريب اذن مصدراً للصراع. النجاح المسيحي في القرن العشرين، كان الى حد بعيد، نجاحاً مسيحياً، انطلاقاً من المبدأ الغريزي للتفوق المسيحي، يشجعه الاحتقار الضمني الذي يكنه الغرب للشرق. نهل المسيحيون من مصادر التاريخ، واللغة والعلم، فساهموا فيما سمي «النهضة الادبية العربية»، وساعدوا على انقاذ اللغة العربية من الجمود. بفضل تقدمهم في مجال التربية، منذ ١٨٣٠ اثر وصول البعثات الاميركية البروتستانتية والفرنسية الكاثوليكية، تمكنوا من الاتصال التجاري، والثقافي، والسياسي، مع اوروبا واميركا.

في نهاية القرن التاسع عشر تقدم لبنان في مجال التربية الشعبية على باقي الامبراطورية العثمانية، بفضل البعثات الاجنبية والكنائس. عام ١٨٦٦ اسس البروتستانت في بيروت الغربية الكلية السورية الانجيلية - (حالياً الجامعة الاميركية في بيروت). بعد تسع سنوات، افتتح اليسوعيون الفرنسيون في بيروت الغربية جامعة القديس يوسف، إيذاناً ببدء منافسة بين الجامعتين. بات وجود الجامعتين فيما بعد موضع اتهام من القوميين العرب، ببث الاغتراب الثقافي. أدى انتشار المطابع الى ان تصبح بيروت قادرة على انتاج اربعين دورية - بينها خمس‌عشرة يومية - الى جانب ذلك، بدأ المسيحيون بالهجرة الى اميركا ومصر والسودان بحثاً عن الثروة. بين الاعوام ١٩٠٠ و١٩١٤ غادر جبل لبنان مئة الف لبناني، من المسيحيين اساساً، تاركين قرى بأكملها في بعض الاحيان، حين تلحق الاسرة بالمهاجرين. في مصر اصبح اغلب اللبنانيين

المتطورين صحافيين واطباء ورجال اعمال، او موظفين لان البريطانيين يفضلونهم على المصريين. بلغت نسبة المال الذي يرسله هؤلاء المهاجرون الى ذويهم، واحداً واربعين بالمئة من الدخل العام للجبل عشية الحرب العالمية. بالاضافة الى ذلك، لم تكن هذه النهضة العربية دون تشعبات سياسية. فالمثقفون اللبنانيون - معظمهم من المسيحيين - يسعون بالوسائل كافة للوصول الى مرادهم في الاستقلال السياسي. قدمت لهم القومية الاوروبية نموذجين. النموذج الاول استقلال شامل للموارنة الذين يعتبرون انفسهم امة حقيقية. النموذج الثاني ينطلق من القومية الاوروبية - خاصة من جوانبها المعادية للدين - ويحولها الى قومية عربية. ضمن هذا المنظار، كانت القومية العربية معادية للاتراك قبل اي شيء آخر، يمكن عبرها خنق الدين - اي الاسلام - والسماح لمسيحي لبنان بالاتحاد مع اخوانهم المسلمين حلاً لوضعهم كأقلية دينية.

إلا أن الأتراك في تلك الفترة، كانوا يحاولون، عبثاً، توطيد سيطرتهم، ووضع حد لاستقلال جبل لبنان. ادت ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨، وما رافقها من تمجيد لكل ما هو تركي، الى اغضاب العرب وزيادة اهتمام المسلمين بالقومية العربية. ولكن من مفارقات التاريخ اللبناني وللاسف، كان يكفي ان يبدي المسلمون اهتماماً باتجاه سياسي معين، مهما كان، ليثير لدى المسيحيين خوفاً من الذوبان في المحيط الاسلامي.

رغبة المسيحيين هذه، في كسر الدائرة وتهدئة مخاوفهم دعّمت فكرياً عدة عقائد سياسية تفتحت في الشرق الاوسط خلال القرن العشرين. احتل كثير من المسيحيين مواقع هامة داخل الاحزاب اليسارية في لبنان والعالم العربي. الحزب الشيوعي اللبناني، أقدم الاحزاب العربية بعد الحزب الشيوعي الفلسطيني الذي يضم عرباً ويهوداً، تأسس عام ١٩٢٤ في بكفيا (مسقط رأس آل الجميل). عام ١٩٣٤، أسس

انطون سعادة، لبناني اورثوذكسي، ولد في اميركا الجنوبية، الحزب السوري القومي الاجتماعي، هدفه العلني توحيد لبنان، سوريا، الاردن، العراق (وللغرابة، قبرص وليس مصر) ضمن امة سورية واحدة. في الاربعينات صاغ ميشال عفلق، لبناني مسيحي عاش في باريس، مبادىء حزب البعث. اما الصيغة الناصرية للقومية العربية، كما قدمها جمال عبد الناصر، فقد سقطت بعد حرب اسرائيل الخاطفة عام ١٩٦٧، وأخلت المكان للنهضة الاسلامية في السبعينات.

في أيام القرن العشرين الاولى، تمحور الموضوع الرئيسي في الفكر الماروني حول عصبية ضيقة تضع كامل ثقتها في العلاقات القديمة مع فرنسا. الامر طبيعي جداً. فالرأسماليون الفرنسيون، واللبنانيون المسيحيون كانوا اول من دعم جبل لبنان ماليا، عبر تحديث مصانع الحرير التي انتشرت في انحاء الجبل كافة. وتحديث مرفأ بيروت الذي تسلمت ادارته شركة فرنسية، وتسهيل التجارة مع الداخل العربي بعد خط سكة الحديد الذي افتتحه الفرنسيون بين بيروت ودمشق. ارتفع عدد سكان عاصمة لبنان، الضيعة البسيطة، من ثمانية آلاف نسمة عام ١٨٢٠، الى خمسة وعشرين الفا عام ١٨٤٥، وستة واربعين الفاً عام ١٨٦٠، ومئة وثلاثين الفا عام ١٩١٤. بلغ حب الموارنة لفرنسا درجة ان اولادهم كانوا يرددون «فرنسا، امنا الحنون». في الاوساط المتطورة، كان النطق بالفرنسية افضل منه بالعربية. فرنسا اللغة الفرنسية، الثقافة الفرنسية كلها تسمح للموارنة بالتباهي بطريقة ما، بالاعلان مرة اخرى طلاقهم مع العرب والاسلام. نظرياً، كانت معرفة اللغة العربية ضرورية للحصول على المعادلة اللبنانية للبكالوريا، لكنها لم تصبح اجبارية فعليا في المدارس كافة، بما فيها المؤسسات المسيحية الخاصة الا في السنوات العشرين الاخيرة. اعرف شخصياً عدة نساء من البورجوازية المارونية العليا ممن قلبن هذه القاعدة. خلال الحرب الاهلية ١٩٧٥ - ١٩٧٦، كان موارنة الطبقات الوسطى هم الذين يتكلمون الفرنسية،

بينما تحاول الطبقات العليا استعادة بعض ما تعرفه من كلمات باللغة العربية للتعبير عن تضامنها مع الشبان من القرى والضواحي الذين انخرطوا في القتال.

منذ البداية، كان حب الموارنة لفرنسا له طابع خاص جداً، تحدده رغباتهم الذاتية. اما الصعوبات السياسية التي قد تواجهها فرنسا، فلا يعيرونها اهتماماً الا لماماً. لم يكن للموارنة سوى فكرة واحدة في رأسهم، وهي ان على السياسة الفرنسية في الشرق الاوسط ان تفعل المستحيل لتحقق لهم الاستقلال الوطني. لم يفكروا مطلقاً بأن المصلحة الفرنسية في دعم الامبراطورية العثمانية لمواجهة الالمان والروس في اوروبا لا تتفق مطلقاً مع رغبتهم في تحقيق الحلم الماروني. منذ ١٨٦٣ قدّر دي شايلا، احد ضباط البحرية الفرنسيين، الموارنة وبطريركهم تقديراً سليماً فقال: «انهم لا يرغبون الا في ان يكونوا محكومين كما في السابق. انهم يتمتعون بامتيازات يعود الفضل فيها لحماية فرنسا، وعلى هذه الاخيرة الا تهتم الا بالمحافظة عليها. . . انه (البطريرك) يرفض ان يفهم، ويرفض حتى الحديث عن ذلك». في الفترة نفسها تقريباً قلق داود باشا، الكاثوليكي الارمني، اول حاكم عينه العثمانيون لمتصرفية جبل لبنان، من إلحاح الموارنة. انهم يتحدون سلطته. «انني موضع اختبار»، كتب ذلك ليبرر رفضه لاستخدام الجيش ضد المتمردين الموارنة. في الواقع، لو استجبت لرغبتهم الجياشة في التحول الى ضحايا «لجعلت مصير ستة ملايين مسيحي ـ داخل الامبراطورية التركية ـ في خطر». عام ١٩١٠ كتب رينيه ريستليوبير R. Ristelhueber، مسؤول الشؤون الفرنسية في بيروت الى وزارة الخارجية في باريس، بعد ان اعياه الموارنة «وادعاءاتهم المتنامية»، انه يؤيد بكل سرور اي تدخل «يعيد اليهم الاحترام الواجب للسلطة». عشية الحرب العالمية الاولى، اشتكى قنصل فرنسا العام من «غياب الاحساس» بالتضحية لدى الموظفين اللبنانيين، من اجل امتهم الصغيرة

وان اي واحد منهم على استعداد دائم، وفقاً للتعبير الشائع، لاحراق بلده كي يشعل سيجارته». لم يكن للموارنة اي مسؤولية في المأساة التي اصابتهم اثناء الصراع الدولي - اللهم الا اذا اعتبرنا ميولهم الفرنسية المعلنة منذ زمن طويل هي السبب - استغل الاتراك الحرب في اوروبا، التي تواجهت فيها الدول الخمس او الست حُماة جبل لبنان، ليضعوا حداً لاستقلاله وفرض المجاعة على الشعب، بأغلبيته المارونية، عبر مرابطة قوات في الجبل تمنع دخول المواد الغذائية اليه؛ زاد حصار الحلفاء امام مرافىء لبنان في هلاك هذا البلد التعيس، هذا بالاضافة الى ان اموال المهاجرين بات من المتعذر وصولها. هلك ربع سكان الجبل، بسبب تصميم الاتراك على معاقبة الموارنة لميولهم الفرنسية من جهة، ومن جهة اخرى بسبب قلة التنظيم. وقد بلغ عدد الضحايا حوالى مئة الف خلال اربع سنوات من الحرب. لا تزال كل اسرة مارونية، لغاية اليوم تستطيع ان تروي لك - والله يعلم مدى قدرتها على ذلك! - الذكريات المؤلمة عن الاطفال والمسنين الذين اقتاتوا بالجذور والاعشاب. بعد فترة طويلة من المجاعة، استمر فلاحو المنطقة في زراعة القمح بين العنب خشية تكرار ما حصل.

انتهت الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٨ بتفتيت الدولة العثمانية؛ تولت قوات الجنرال اللنبي الانكليزي، - مدعومة بقوة فرنسية رمزية - السيطرة على بيروت حيث رفرفت لوقت قصير أعلام الهاشميين العرب في الحجاز. هذا الارتباك على مستوى القمة كان نتيجة مباشرة للدور المزدوج الذي لعبه الحلفاء اثناء الحرب. في الواقع، لكي يؤمن الانكليز دعم الهاشميين ضد الاتراك، وعدوهم بالسيطرة على مجمل الاراضي العربية في الامبراطورية العثمانية. اثناء ذلك، كانت فرنسا وانكلترا قد تقاسمتا هذه المناطق نفسها عبر اتفاقات سايكس - بيكو، يعود بموجبها لبنان وسوريا (دول المشرق، كما كان يقال في ذلك الوقت) الى فرنسا، التي لم تُخف على الاطلاق انها تنوي قبل اي شيء آخر حماية اصدقائها

الموارنة ودعم مصالحهم. عندما رفض فيصل الامير الهاشمي الخضوع، مطالباً بعرش سوريا، واجهه الفرنسيون بقيادة الجنرال هنري غورو، وهو مسيحي متشدد، في ميسلون في جبال البقاع، في تموز (يوليو) ١٩٢٠. أعلن غورو ولادة دولة لبنان الكبير، بعد ان اضاف الى جبل لبنان مرافىء بيروت وصيدا وطرابلس واراضي سهل البقاع الخصبة في الجنوب والشمال. كان هدفه من ضم هذه المناطق، جعل لبنان قادراً على الاكتفاء الذاتي، الا ان سكان هذه المناطق وهم مسلمون اساساً، شعروا بالغبن، - خاصة السنة منهم - الذين لم يتخلوا يوماً عن رغبتهم في ان يكونوا جزءاً من سوريا الكبرى. عامل آخر، اكثر خطورة ايضاً، بشّر بالتوترات القادمة: انه قانون المجتمعات المتخلفة التي تجعل، كما في حال لبنان، المسلمون اكثر فقراً واقل تعليماً، رغم نسبة ولاداتهم المتفوقة على المسيحيين. هذا بالاضافة الى ان نسبة الهجرة لدى هؤلاء تضاعف تفوق المسلمين العددي عليهم. قامت اسس دولة لبنان، في ظل الفرنسيين ومنذ استقلاله عام ١٩٤٣، على مبدأ ان الموارنة يشكلون اكثر الطوائف الدينية اتساعاً، وحوالى ثلاثين بالمئة من مجموع السكان. هذا المنطلق المبدئي - الذي تزداد الشكوك حوله، في غياب احصاء جديد سيؤكد دون شك وجود اكثرية اسلامية - دعّم بدوره «الهيمنة» المارونية على رئاسة الجمهورية وقيادة القوات المسلحة ومراكز اخرى ذات اهمية اساسية. هذا هو في الواقع، الثمن الذي اشترطه الموارنة عام ١٩٤٣، للقبول بالميثاق الوطني الضمني، الذي يتخلون بموجبه رسمياً عن اي حماية غربية (فرنسية) ويعترفون بأن للبنان «وجهاً عربياً». اما السنة بالمقابل، فقد تخلوا عن حلمهم في الانضمام الى سوريا الكبرى او في ضم لبنان الى اي كيان عربي آخر يسيطر عليه المسلمون. استكمالاً لهذه الصيغة، اقر الميثاق الوطني منصب رئاسة الحكومة للسنة، ومنصب رئاسة البرلمان للشيعة، اما المناصب الاخرى فوزعت بين الطوائف الاقل اهمية. وخضعت المراكز العامة من اعلاها الى اسفلها، بما فيها النواب،

الى قاعدة ستة للمسيحيين مقابل خمسة للمسلمين. جورج نقاش، ماروني متنور، اصدر لعدة سنوات في بيروت، جريدة «الشرق» اليومية باللغة الفرنسية، لم يتوهم مطلقاً بشأن النظام الذي اسسه الميثاق الوطني، فقال: «إن نفيين لا يشكلان امة». اما البرلمان اللبناني ـ الذي يعتبره المدافعون الرسميون من عجائب الدنيا ـ فقد شطبه نقّاش بجرة قلم، بعد أن وصفه بأنه «تحالف مغرور بين المال والنظام الاقطاعي». (حُكم على نقّاش فيما بعد بالسجن ستة أشهر لانه كتب ان التوتر بين المسلمين والمسيحيين يساوي لعباً «بين ظابورين خامسين».)

منذ الايام الاولى للانتداب الفرنسي الذي اقره مجلس الامم، لم يعرف المسيحيون ـ خاصة الموارنة ـ اي طريق يسلكون. لأول مرة منذ اكثر من الف سنة، وجد مسيحيو الشرق انفسهم على رأس دولة، وذلك بفضل مسيحيي الغرب. اي كأن الحروب الصليبية حققت اهدافها. الا ان الموارنة، ذوي الاختراع والابتكار، يتحولون عندما يتعلق الامر بتحقيق طموحاتهم ووصولهم الى السلطة، الى عديمي الخيال. فلم يتمكنوا مطلقا من نسيان الآلام التي عانوها، ولم يدركوا مطلقاً (الا في ظل رئاسة الجنرال فؤاد شهاب من ١٩٥٨ الى ١٩٦٤)، اهمية توفير متطلبات الطوائف الاخرى. حدد الشيخ بيار الجميل يوماً، المشكلة الحقيقة: «الخوف النفسي عند المسيحيين خوف داخلي متين، لا يمكننا الشفاء منه بأي طريقة. على المسلمين ان يطمئنونا».

منذ اكثر من قرن، ساهمت ثقافة الموارنة الفرنسية في جذبهم خارج الجبل، فتحول الفلاحون الى اهل مدن، وضمت بيروت بما فيها ضاحيتها، نصف سكان لبنان. الا ان هذه التربية كانت تحت تأثير الكنيسة التي لم تفعل شيئا للحث على فهم الطوائف الاخرى، ولا للتعاون فيما بينها. لم يفلح التعليم، ولا العيش في المدن، ولا الاتصالات مع اشخاص من الاديان الاخرى في تقريب هؤلاء الموارنة المقتلعين من جبالهم. بل على العكس، اذ ترعرعت في

اوساطهم مدرسة «لبنانية»، مناهضة للاتجاه «العربي»، داخل الطائفة المارونية الذي يرى ان الخلاص ـ والازدهار ـ يكمن، لا في حياة التقوقع في القرى، بل في الانفتاح الواسع على العالم، خاصة العالم العربي، حيث يجب البحث عن التبادل التجاري والعمل والاحترام السياسي. غالباً ما تصارع هذان الاتجاهان داخل الفرد الواحد، وحتى داخل الاسرة الواحدة. هكذا توزعت آراء الابناء لدى اسرة مارونية من البورجوازية العليا، اثناء وجودي معهم خلال الحرب الاهلية، بين الدعم اللامحدود للفلسطينيين وحلفائهم اللبنانيين اليساريين، وبين الدفاع الحاد عن الميليشيات المارونية اليمينية، اما الاهل فكانوا يحاولون الحفاظ على وحدة العائلة. كان من الممكن حسم الجدال حول هذا الموضوع في لحظة ما، بين ١٩٢٠ و١٩٧٠. اما الآن، فإن العنف هو الذي يحمل الاجابات المنتظرة منذ زمن. ما لم يتمكن الموارنة من ادراكه مطلقاً، انه في بلد مثل لبنان، ينبغي تقاسم السلطة والامتيازات. إذاكان المسلمون يشعرون بالغبن، فعلى الموارنة ان يعملوا ليبرهنوا لهم ان الدولة اللبنانية قادرة على تحقيق متطلباتهم.

نجد قسماً من الجواب في منحوتة الخشب الصغيرة لعلاّمتنا، الذي يخبرنا ان في لبنان يجب إما ان تحكم اوتكون محكوماً. ولكن ماذا سيفعل الموارنة في ديمقراطية تقوم ضمنياً على نظام الاقتراع العالمي، بينما يرفضون اي احصاء جديد؟ ويدّعون ان على المسيحيين الاحتفاظ بالسلطة لانهم يدفعون ثمانين بالمئة من الضرائب؟ (لم يمنع ذلك اللبنانيين، على اختلاف طوائفهم، من لوي قانون الضرائب في كل مرة استطاعوا الى ذلك سبيلا). ويزعمون ان اللبنانيين المهاجرين، اغلبهم من المسيحيين، يجب ان يتمتعوا بالحقوق المدنية، لان للمسيحيين الحق في حكم بلد على الاقل في الشرق الاوسط؟ فقط مسيحيو لبنان يتمتعون بهذا الامتياز، الامن والوحدة الجغرافية والسياسية. بينما يحلم به السبعة ملايين مسيحي الآخرون في الشرق. هكذا استمر الموارنة،

علناً، في ايهام الآخرين بأن المسيحيين يشكلون اكثرية، بينما يتصرفون ضمناً بخلاف ذلك، من خلال الواقع الذي اصبحوا عليه.

انتهى الامر بالموارنة ذوي الاتجاه «اللبناني» المتقوقعين على ذاتهم، بالتقدم على اولئك اصحاب الاتجاه «العربي»، مع الانحدار التدريجي للقومية العربية. فجمال عبد الناصر، حامل رايتها توفي عام ١٩٧٠، الا ان شهرته شح بريقها بعد الانتصار الخاطف للاسرائيليين على العرب في حرب ١٩٦٧. بعد هذه الهزيمة بدأ الفلسطينيون بالبروز مما دفع اللبنانيين المسلمين للمطالبة بمزيد من السلطة السياسية. إن أي مطالبة بالاصلاح، كبناء المدارس، وتحسين المستوى المدرسي، واي تغيير في النظام القائم يثير رد فعل مشروط، حول الخوف والخطر. قبل سنوات عدة، واثناء زيارتي الاولى لاسرائيل، شرح لي يوري افنيري، صاحب مجلة وسياسي مستقل، سر النجاح السياسي لغولدا مائير رئيسة الحكومة آنذاك: «انها في الواقع، امرأة تتكلم بشكل غير جيد نصف دزينة من اللغات، لكنها نادراً ما كانت تحتاج الى الدفاع عن سياستها. ما عليها سوى اثارة ذكرى الهولوكوست (مذابح اليهود) اشارة واحدة الى هذا الامر كانت تكفي لاقناع الآخرين». هكذا الموارنة ايضاً. فالنظام اللبناني يوفر لهم فرصة تحويل الانتقادات الموجهة اليهم، الى احدى المجموعات الدينية الاخرى ـ «الآخرين» ـ اما المشاكل الحقيقية، الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، فلا يُتطرق اليها ابدا. اي تغيير يُخنق في المهد. عندما بدأت المعارك، عام ١٩٧٥، كان احد اسباب العنف المتواصل اقتناع الموارنة، وباقي اللبنانيين الآخرين، انهم انقياء كالثلج، وان على الخصم تقع مسؤولية النهب، والتعذيب وسوى ذلك.

قبل الحرب الاهلية، كان القادة الموارنة يعتبرون تلقائيا اي تساؤل حول حكمهم انه هجوم على الطائفة المسيحية اللبنانية. رغم ان هذه الظاهرة خاصة بالموارنة، فإن خصومهم المقاتلين ـ الذين يقودهم مسيحيون يساريون غالباً ـ يعبّرون عن جهل قاتل بمسألة الطائفة. أحد

اكبر اخطاء الحرب الاهلية كان القصف الاعمى الذي مارسه اليسار على بيروت الشرقية، معقل المسيحيين، وكذلك جهوده لعزل الكتائب سياسياً. هذه الممارسات الارهابية والتكتية السياسية لم تؤد الا الى تنامي قوة الكتائب التي اصبحت الرمز العالمي لا للموارنة فحسب، بل للمسيحية المناضلة، والى التفاف حركات سياسية حول حزب الجميل، كانت مسبقاً اكثر حذراً في تحالفاتها السياسية.

في بداية المعارك، في حزيران (يونيو) ١٩٧٥، كان لي نقاش حاد مع كريم بقرادوني، عضو المكتب السياسي الكتائبي والمستشار السياسي للقوات اللبنانية حالياً. الا ترى ان البلد يسير نحو الهلاك؟ متى يعود اللبنانيون للعقل؟.

«في ايلول» اجابني. قلت ملحاً لماذا الانتظار؟ فالايام تمر.

ضحك قائلا: «العنف وسيلة ممتازة لنا، ولليسار على حد سواء. انه يجذب الرأي العام. ولكن قبل الانتخابات المقبلة في الربيع، سيكون الجميع بحاجة لستة اشهر من الهدوء». (لا فائدة من القول ان الانتخابات لم تحصل مطلقاً، لا الربيع القادم ولا اي ربيع بعده).

على كل حال، لم يظهر ان الرؤساء الموارنة يثقون في وجود الدولة. كان فؤاد شهاب، قائد عسكري سابق ورئيس من ١٩٥٨ الى ١٩٦٤، الوحيد الذي ادرك ان افضل طريقة لبقاء الموارنة في السلطة، تكمن في تدعيم الدولة. اما الرؤساء الآخرون، فيمكن القول ان اغلبهم لم يقدّر حق التقدير الكنز الذي وضعته فرنسا بين ايديهم عام ١٩٤٣. حذر عميق من الدولة ومن كل ما يمت اليها بصلة هو احد المظاهر الثابتة في الحياة اللبنانية التي لا تلح عليها مدرسة «احفاد الفينيقيين».. غسان تويني، كاتب وصاحب جريدة «النهار» كتب ذات يوم «ان الحكم في لبنان غير موجود، وان القليل الموجود لا سلطة له، وان من يمتلك السلطة ليس في الحكم». الزعيم الماروني ريمون اده، دعا الى لبنان

محايد، تحت حماية الامم المتحدة، لكنه لم يتنبه الى ان سويسرا والسويد حافظتا على حيادهما عبر نظامين للدفاع الوطني باهظي التكاليف. اما الجيش اللبناني، على العكس، اذ تقلص الى الحد الادنى على مستوى العدد والتسليح. بهذه الطريقة وفّر اللبنانيون النفقات، وحموا انفسهم كما يدّعون، من اي احتمال لانقلاب عسكري. ومن أجل ابقاء الذئب الاسرائيلي خارج المزرعة، منعوا نصف دزينة من طائرات الميراج من الطيران لان الدولة اليهودية قلقت من وجودها.

اثناء الحرب الاهلية، بات مألوفا لدى المسيحيين تحميل الفلسطينيين وزر مساوىء لبنان بأسره. لا احد يدعي ان الفلسطينيين ابرياء تماماً. كانوا نقيض موضوعة ماو تسي تونغ حول السمك الثوري وسط الجماهير الشعبية. يميلون للغرور، واحتقار اللبنانيين وبلدهم. عجزوا عن فرض الامن والنظام في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم. في منتصف السبعينات كف كثير من المسيحيين عن التعاطف معهم والدفاع عن قضيتهم. مع الوقت، اصبح الفلسطينيون موضع اتهام من جانب حلفائهم المسلمين. الا ان الحقيقة، ان لبنان بات في حالة من المرض لا تسمح له بتحمل أتون الحرب لوحده. مريض من تضخم الضرائب غير المدفوعة (التي بلغت وفقاً لبعض التقديرات الثلثين)، مريض من الفساد (خط سكة الحديد الساحلي بقي فضيحة مستمرة). لكنه كان مريضاً بشكل خاص من عجز نظامه عن استيعاب متطلبات الناس والسيطرة عليها. في بعض الاحيان، يظن المرء ان زعماءه السابقين لم يتخيلوا مطلقاً ان لبنان سيستمر، لذا عمدوا قبل اي شيء الى جمع اكبر كمية من المال، طالما الوهم لا يزال قائماً. ولو تطلعنا حقيقة الى عمق الاشياء، فهل كان لبنان بلداً؟ وفيه ديمقراطية برلمانية؟ الغريب ان هذا اللبنان الذي وُلد عام ١٩٤٣ - او حتى عام ١٩٢٠ - استمر طويلاً.

ان «الصورة العائلية» لأول حكومة في لبنان المستقل تبين هذه الحقيقة

بوضوح. ثلاثون سنة بعد هذه الصورة، عندما اندلعت الحرب الاهلية، كان قسم كبير من افرادها لا يزالون في الخدمة. الشبان منهم تجاوزوا السبعين عاما. هناك خلل ما في نظام يمنع بثبات افضل شبانه والمعهمِ من النجاح في الميدان السياسي. باستثناء فترة حكم شهاب القصيرة، لم يشجع السياسيون من البورجوازية العليا - حتى الاقل ثراء منهم - اولادهم مطلقاً على الالتحاق بالوظائف العامة، حتى بعد تخرجهم من الجامعات في لبنان أو الخارج. التحول الى موظف كبير كان، فيما يبدو، من نصيب اولئك الذين لم يتمكنوا من ان يكونوا اطباء، او محامين او رجال اعمال. لبنان هذا، يشبه في بعض الاحيان ما ذكره غبريال غارسيا ماركيز في كتابه «خريف البطريرك» عن التخلف السياسي في العالم الثالث، حيث نرى ديكتاتوراً في اميركا الوسطى يعيش عدة مئات من السنين.

شيئا فشيئا تفكك لبنان. لم يرغب أحد في الاقرار بذلك. بالنسبة للبعض كان يوم ٢٨ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٨، عندما دمر الاسرائيليون ثلاث عشرة طائرة من الخطوط الجوية اللبنانية «الميدل ايست» في باحة مطار بيروت، دون اي رد فعل من الجيش اللبناني، هو يوم بداية النهاية. البعض الآخر يعتبر ان هذه اللحظة بدأت يوم وفاة الرئيس عبد الناصر في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠، عندما قطعت طرقات بيروت الغربية في كل الاتجاهات، مجموعات مسلحة من الشبان، وما رافق ذلك من حرائق اعلانا لحداد رسمي في القطاع المسلم من المدينة. بعد خمس سنوات، بات هذا النمط من العنف اللامسؤول شائعاً في كل حي وشارع. من لا يعرف الوضع جيداً يتعاطف طوعاً مع اللبنانيين الذين يلومون الاجانب ويتهمونهم بالتدخل كثيراً وبطريقة غير كافية في آن معاً. في كل معسكر، في الواقع، هناك الاجانب الطيبون والاشرار، من يساعد ومن ينبغي ان يساعد لكنه لم يفعل. ساهم الاجانب في تحويل البلد الى ساحة قتال لتصفية الصراعات التي لا يجرؤ ون على مواجهتها فوق ارضهم. لا احد بريء. غَضَبُ المسيحيين

من الحواجز الفلسطينية في الشوارع له ما يبرره، رغم ان لهؤلاء اسباباً وجيهة للحذر. في نهاية التحليل، اللبنانيون مذنبون.

طيلة الحرب الاهلية والسنوات التي تلتها، بدا الموارنة على استعداد للتخلي عن دولة لبنان الكبير التي منحتها لهم فرنسا، لينسحبوا الى داخل جبل لبنان. اذكر في احد الايام المشمسة، في بداية كانون الثاني (يناير) ١٩٧٦، وانا انظر الى احتراق مرفأ بيروت، انني تساءلت لِمَ يعجز اللبنانيون عن التوقف قبل فوات الاوان؟

«ليحترق، ليحترق!» قالها المسؤول الماروني بجانبي.

حدّقت اليه ملياً. اذن انه يوافق ان تلتهم النيران كل ماليس داخل الاراضي المارونية تماماً، اي ما بدأ تسميته بالغيتو الماروني، «المارونستان»؟ اكان على وشك القول: «نحن بنيناه، ونحن احرار في تدميره»؟ ام ان الموارنة، والله يعلم كيف، قد استسلموا للتعويذة الشهيرة «لعقدة ماسادا» Massada اليهودية التي يرددها هؤلاء باستمرار، ويهددون بسلوك سبيل اجدادهم الذين فضلوا الانتحار في قلاعهم على الاستسلام للرومان؟ أيستطيع الموارنة، ام يريدون، منع اي اتفاق مستقبلي للسلام في الشرق الاوسط، اذا لم يلحظ هذا الاخير متطلباتهم؟

بعد سنوات عدة، وفي لقاء لي مع فؤاد افرام البستاني، أحد المهووسين بالتاريخ والايديولوجية المارونية، قد تجاوز السبعين من العمر، قلت متسائلاً: ماذا يستطيع الموارنة ان يفعلوا في هذه الحالة بالضبط.

«يجب ان تعلم ان الارهاب ليس حكراً على الفلسطينيين» اجابني البستاني، موضحاً انه وبعض القادة الموارنة يفكرون منذ سنوات باللجوء الى هذا الاسلوب. اضاف قائلاً «عندما نقرر الانتقال الى الارهاب، ستعلم ذلك أنت والعالم اجمع، لن تستطيع التخيل ما يفعله شعب جبلي، وارث ستة آلاف سنة من التاريخ، حين يجد نفسه امام الانتحار او النضال ضد العدو».

هذه الالفاظ، اعادت الى ذاكرتي فرنسيي الجزائر، بشعارهم الشهير: «الحقيبة او التابوت». وقد انتهى بهم الامر، طبعاً، الى تفضيل الحقيبة لمغادرة الجزائر، ولكن بعد ان لجأوا الى برهان غربي وتكنولوجي مارسوا عبره ارهاباً منظماً فاق بسهولة، الوسائل اليدوية لخصومهم الجزائريين الوطنيين. ولكن هنا، في لبنان، من هو العدو الذي يستشرس البستاني ضده؟ الغرباء، هم في رأس قائمة هذا المحب لفرنسا، اي الفلسطينيون والسوريون. الا انه، رغم ما افاض في الكلام عن رضاه الذاتي، ورغم بعض الاعتبارات البراقة حول الاسلام، فانه طمس البعد اللبناني، بحقيقته المزعجة والمكبوتة دائماً، وهي ان اللبنانيين فعلوا الشيء الكثير لزعزعة اسس مجتمعهم، بأن انبطحوا امام الاجانب، بمن فيهم اولئك الآن موضوع الشكوى.

اصبح النظام اللبناني على درجة من الفساد بات معها جميع السياسيين تقريباً مأجورين لدولة اجنبية ما، او لعدة دول. احدى دول الخليج الفارسي دفعت لرؤساء الوزارة السابقين مبالغ طائلة وصلت لعدة آلاف من الدولارات في الشهر، انطلاقاً من مبدأ الحاجة اليهم فيما لو عادوا للسلطة يوما ما. الدول الراديكالية ساعدت اصدقاءها اليساريين والفلسطينيين. الدول الاسلامية اساساً، كالمملكة السعودية، موّلت منظمة التحرير الفلسطينية. (كما قدموا الدعم للمسيحيين ايضا الى ان باتت مذابح المسلمين على ايدي الموارنة غير محتملة وقتاً اطول). المبادىء العامة التي يسترشد بها هؤلاء العرب المحافظون تضع السياسة فوق الدين، لذا يعتبرون المسيحيين القوة الوحيدة القادرة على افشال مخططات العرب الراديكاليين الذين يهددون انظمتهم العطوب. لم يهتم العرب، ولا الدول الاخرى باللبنانيين. الاسوأ من ذلك انهم استخدموهم كما يحلو لهم. تبين ان اللبنانيين عاجزون عن حكم بلدهم. يتحدثون عن الفساد، عن الاصلاحات، عن الحاجة للتغيير، ولكن لا يفعلون اي

شيء ايجابي. جرائد، فتيات جميلات، اسلحة، سياسيون - كل ذلك للبيع- هكذا اندلعت الحرب في لبنان.

داخل الغيتو الخاص بهم، عبّر الموارنة عن قدرتهم على التنظيم ودعم جهود الحرب، رغم اتهامهم سابقاً بالفردية وحب المال والغرق في الملذات. ومع مرور السنوات، دون اي تباشير للحل الموعود، بدأ الموارنة يلصقون بأعدائهم تهماً يستحيل البرهان عليها. هكذا فعلوا اثناء معركة زحلة مع السوريين عام ١٩٨١، اذ زعموا انهم حققوا انتصاراً لانهم منعوا دمشق من احتلال الغيتو الماروني بأسره. (في الحقيقة، التي لا ترضي المسيحيين، لم يفكر السوريون مطلقاً في احتلال هذه المنطقة، بل على العكس، لانهم سحبوا جميع جنودهم منها). منذ سنوات وانا افكر بأن اكثر ما اساء الى الموارنة، موهبتهم في التنظيم. ان التنظيم المفرط قد يكون غير منتج، ويبعد الموارنة عن الحقيقة الكبرى: ان مجتمعاً بهذا الشكل يحتاج لنظام جديد من الحياة. زين زين احد اساتذة التاريخ المرموقين في الجامعة الاميركية في بيروت، اخترع منذ مدة فعل «اللفلفة»، للتعبير عن الطريقة التي اعتاد لبنان تسوية الامور بها. وضعت الحرب حداً لكل ذلك. وعلى كل حال، حتى لو حاول كثير من الموارنة وغيرهم من المسيحيين نسيان ذلك، فإنهم خلال الحرب الاهلية اطلقوا على كلابهم اسماء محمد، وعلى المسلمين نعوت اخرى مشابهة.

داخل الغيتو المتغرب، المنقطع عن الاغلبية الاسلامية، لم يكفّ مسيحيو الغيتو الماروني عن اقناع انفسهم بعدالة قضيتهم. لقد ازاحوا جانباً الدولة التي اقسموا على الدفاع عنها. سرقوا عائداتها، اهانوا جيشها، فرضوا تدريباً عسكرياً على الطلاب في منطقتهم، نسجوا لانفسهم صوراً بطولية، وتحدثوا بكثير من التصميم عن «تحرير» باقي البلد. ولا يهم بعد ذلك ما فعلوه في اثارة المأساة اللبنانية، لا يهم اذا

رفضوا اي مسؤولية، والقوا تبعيتها على الآخرين. الذاكرة والتماسك ليستا فضائل نموذجية في الشرق الاوسط.

يعشق مسيحيو لبنان تكرار قصتهم المفضلة امام الاجانب، قصة الدجاجة والمريض النفساني.

هذا الاخير، كان على ثقة بأنه حبة قمح في قن دجاج، يخشى ان تبتلعه الدجاجة. بعد سنة من العلاج، سأله الطبيب النفساني: «والآن يا عزيزي انت تعلم تماماً انك لست حبة قمح.

- نعم، يا دكتور، ولكن...
- ولكن ماذا؟
- ولكن الدجاجة، هل تعلم ذلك؟».

الانهيار



ليحترق.. نحن بنيناه ونحن سندمره

من الطائرة التي تقترب رويداً من بيروت، استعداداً للهبوط، كان المنظر رهيباً. الحي التجاري في قلب المدينة يحترق، واللهب يصبغ باللون الارجواني غيوم الدخان المتصاعد نحو السماء. خلال الايام الثلاثة التي ذهبت لأمضيها في الاردن، رسمت الحرب فجأة هذه اللوحة القاتمة.

في اليوم التالي، أعلن وقف جديد لاطلاق النار. فخرجت أتفحص عن قرب دمار الاسواق، غرب ساحة الشهداء. قرب هذا المركز التقليدي للعاصمة اللبنانية، دمر انفجار احد الفنادق حيث يقيم بعض العمال المصريين، وقضى عشرات منهم تحت الانقاض. خلال اربعة ايام من المعارك توصل الكتائب الى تدمير هذا الحزام من المحلات التي يمتلكها مسلمون بشكل اساسي. والتي تفصل قطاعهم الخاص عن بيروت الغربية. ما دمره الكتائبيون - تحديداً - هو منطقة محايدة، مفتوحة للجميع. انطلاقاً من حسابات خبيثة، لدفع الجيش اللبناني «جيشهم»، وإرغامه على التدخل الى جانبهم. هذا الذي يرفضه المسلمون وحلفاؤهم لانهم يعتقدون انه يخضع جسداً وفكراً للميليشيا المارونية. بالنسبة لاغلب اللبنانيين، كان وسط مدينة بيروت هو المكان الوحيد الذي تستطيع فيه الطوائف الستة عشر كافة - عدا عن الاجانب من كل مكان - الالتقاء والتعارف. ارادياً ام لا، قطعت الميليشيات المارونية بعملياتها العسكرية هذا الاحتكاك. «نحن بنينا لبنان، ونحن سنحرقه»؛

بهذا الشعار الذي ينضح غطرسة حاول الموارنة تبرير التدمير الذي فضلوا اللجوء اليه على القبول بطلبات الاصلاح الاقتصادية الخجولة لليساريين، وبرغبة المسلمين في توزيع اكثر عدلا للسلطة السياسية. اذا لم يكن الامر انتحاراً جماعياً، فهو في كل الحالات شبيه به.

في خريف هذا العام ١٩٧٥، اختفت بيروت التي اعرفها. مساهمتها في القومية العربية وفي النهضة الثقافية العربية، وتأثيرها الفكري - إرث قرن كامل - هو الذي دُمِّر وقصف، وتفتت قطعاً كتلك الابنية وسط العاصمة. كان عليّ ان افهم ما يحصل: انه رفض غريزي لدور بيروت كحصان طروادة، نحو الداخل العربي المفتوح للغربيين. ثلاثون عاماً بعد حصوله على الاستقلال من الفرنسيين، رفض لبنان اليوم ثوبه المستعار، بأيدي ابنائه الاعداء.

بيروت، آخر المدن المشرقية الكبيرة، التي كانت تمتد بين الجزائر واستامبول، على وشك ان تلفظ انفاسها دون ان يفكر احد برثائها، او حتى بالحفاظ على حياتها. تنبغي العودة للحرب العالمية الثانية لنجد مثيلاً لمدينة بهذه الاهمية، وبهذا الغنى... لقد ولى زمن اولئك التراجمة، والادلاء المحترفين في الشرق الاوسط، الذين مكّنوا الغربيين من الحياة في ظل الدولة العثمانية. ولكن لدى كل لبناني، يكمن ترجمان: فهم بطبيعتهم يفعلون كل شيء، صناعيون ومتعددو اللغات، حسهم التجاري والمالي حس غريزي. لقد باتت البارات الاسطورية في بور سعيد والسويس شيئاً من الماضي. اما بيروت فلا زالت تقدم الخصوصيات الكلاسيكية لهذه المرافىء الشرق الاوسطية النصف مستعمرة: الكحول، المخدرات، والنساء.

لشد ما ادهشتني الحيوية الفائقة التي تصل الى حد الاعجاب بالذات المفرط لدى جميع اللبنانيين صغاراً وكباراً. فاللبناني يتباهى

بسيارته الاميركية الفخمة على طرقات الجبل الضيقة. الرجال يرتدون بذلات كاملة من «بيار كاردان»، النساء فساتين من «كريستيان ديور»، او بلوزات شفافة. وفي الوقت الذي بدأ فيه الغرب يرتدي الجنيز شيئاً فشيئاً، ويميل نحو الكمية اكثر من النوعية، احتفظ اللبنانيون بحبهم للثياب وللحلى الفاخرة. كان لبيروت جانب صغير من «ميامي بيتش». وكان القطاع الغربي من العاصمة اكثر قرباً لهذا الجانب من القطاع الشرقي، لان من المحتمل، ان عرب الجبال، كما كان يطلق على الموارنة في السابق، كانوا أقل انفتاحاً من باقي المسيحيين والمسلمين، شعوب الساحل، المعرّضين للموضة وللتأثيرات الاجنبية منذ عصر الفينيقيين. دور السينما، الملاهي الليلية، المكاتب، الابنية الجديدة الفخمة، كل ذلك كان في بيروت الغربية. حين يرغب سكان القطاع الشرقي في الراحة والترويح عن النفس كانوا يأتون الى «شارع الحمرا». في لحظة معينة، صدّق اللبنانيون كتيباتهم السياحية فكانوا يتزلجون صباحاً، ويتناولون الغداء في مرفأ جبيل القديم، والعشاء في كازينو لبنان، حيث يصفقون لراقصات «ليدو» باريس. في كل الاحوال، ماذا كان لبنان! أهو العز والشمبانيا للبنانيين الاثرياء وللغربيين الذين يعملون فيه، ولبارونات البترودولار كأحمد زكي اليماني الذي يمتلك بيتاً فيه؟ أم هو اكثر الامثلة قساوة على البؤس الاسود، وعلى الفقراء المحرومين من التعليم، ومن الطرقات، ومن كل مواصفات الحياة المدينية، التي تشيع في العالم العربي؟ طبعاً، كان الحشيش فيه هو الافضل في الشرق الاوسط، وحتى في العالم ولكن لماذا كانت الدولة عاجزة عن ردع زراعة هذا المخدر؟ كان لبنان ملجأ حقيقياً لكل المضطهدين والمكروهين، وكذلك لمحترفي السياسة المطرودين من بلادهم المجاورة بانقلاب حديث أو قديم. وقد وصل الامر ان بات لكل اتجاه ايديولوجي مقهاه في «الحمرا» الشريان التجاري الراقي، حيث يتمكن كل راشد من معرفة ما يدور في العالم العربي وفي قسم كبير من العالم الغربي لقاء عدة

فناجين من القهوة. في بلد الـ«يعني»، تنتقل المحادثات من لغة الى اخرى ـ فرنسي، انكليزي، عربي: «شو هيدا، شيري، هاوز بيزنس؟»

يقول مؤرخ الشرق الاوسط، البرت حوراني: «ان تكون مشرقياً يعني ان تعيش في عالمين او اكثر في الوقت نفسه، دون ان تنتمي الى اي منهما: وان تكون قادراً على التكيف مع اشكال خارجية تدل على امتلاكك لجنسية، لدين او لثقافة، دون ان تمتلكها فعلياً. ان لا يكون لديك سلم للقيم خاص بك، إلا تكون قادراً على الخلق، بل على التقليد فقط، وبطريقة غير صحيحة، لان ذلك يفترض ايضاً نوعاً من الاصالة.» كتب حوراني ذلك في ١٩٤٦، قبل عامين من خلق دولة اسرائيل. يمكن الاشارة الى ان ذلك كان نموذجاً لهذه الدولة التي قرعت الحزن في المشرق ولدى المشرقيين. هؤلاء لفظوا آخر انفاسهم في بيروت عام ١٩٧٥.

النعوت الرنانة المختلفة، التي اطلقها الاجانب واللبنانيون على بيروت ولبنان، سقطت في منسيات التاريخ: باريس الشرق، سويسرا الشرق، طنجة (واحيانا هونغ كونغ) المشرق، ملتقى الحضارات، ارض اللقاء والتسامح، الاكثر تقدماً في الدول المتخلفة... الى آخر ذلك. فجأة تحولت هذه الامة التي ظننا انها مشغولة بملذات مجتمع الاستهلاك، الى نموذج من الفوضى. وتلاشى آخر حصن في هذا التراث الانساني المنفتح على الخارج، دون اي احتجاج. موّل العرب الآخرون الذين كانوا يأتون الى بيروت للعب او للشرب، امراء الحرب الاعداء، تماماً مثلما اشتروا الصحافة اللبنانية في الماضي ليعبروا من خلالها عن ايديولوجياتهم. باتت بيروت، بالنسبة للعرب، ساحة حرب حقيقية ومكاناً لمقاتلة الاعداء عبر جيوش خاصة. وفي الوقت الذي كانت بيروت تعاني سكرات الاحتضار كان كل من الانظمة العربية الاخرى يذرف

الدموع التقليدية عليها، ويحاول ان ينقل رفاتها الى عاصمته. الا ان البنوك، والجرائد، والجامعات وحتى ذهنية المؤسسات لم تثمر في الرمال النفطية في الخليج، كما لم تنجح محاولات النقل كافة. في خريف عام ١٩٧٥، غادر البلد عشرات الالوف من الغربيين، وكذلك العديد من افراد البورجوازية العليا والمتوسطة.

. . . بدأت ادرك ان ما يحصل في لبنان، كان على غرابته المميزة، اكثر رعباً من حروب الجزائر وقبرص والكونغو وفييتنام التي شاهدتها منذ عشرين سنة. اذا كان تدمير الاسواق انذاراً للبنانيين كافة، فإن تخريب «القنطاري»، الحي البورجوازي، والفنادق الفخمة، انذار مشابه للاجانب وللبنانيين المتغربين الذين يعيشون مثلهم.

رغبة منهم في تبيان الى أي مدى كانوا غرباء عن كل ما [illegible] عربياً، صمم هؤلاء المسيحيون الذين يفخرون بغربيتهم، على شن حملة تدمير واسعة. ما كان أقل ادهاشاً، هو مساهمة المسلمين في هذا العمل التهديمي الضخم، لان جذورهم تمتد في العالم العربي. معاً، مسيحيون ومسلمون توصلوا الى نزع قشرة التغريب الرقيقة التي كانت تغطي بيروت، بتكلف بحت.

وكما يوافق اي مجتمع ذي اهداف تجارية، فإن لبنان ضحى ابتداءً، بما يراه الاقل سعراً: بالحياة البشرية... وتحولت اعمال العنف اليومية الى مذابح حقيقية. ومن اعلى مرتفعاتهم، فوق بيروت كان مسيحيو البورجوازية العليا يحاولون التأثير في زوارهم، باستخدامهم للمدفعية التي كانت تنصب سابقاً على مخيمات اللاجئين الفلسطينيين. التشويه والتعذيب كانا خبزاً يومياً. اعتاد المسيحيون ان يحفروا صلباناً في اجساد ضحاياهم. المعسكران يجران الاسرى خلف السيارات حتى الموت. لبنانيون وفلسطينيون سعوا دائماً الى الحصول على السلاح الاكثر حداثة.

اللبنانيون، بينهم عدة تجار اسلحة بارزين، عرفوا من اين يستحصلون عليه. قبل عام ١٩٧٥ كانت بلغاريا هي مصدر السلاح للمسيحيين واستمرت في ذلك بعد بدء المعارك، ولم تكف عنه الا بعد احتجاج رسمي من الحزب الشيوعي اللبناني. اتى كل تجار المدافع الى بيروت، وتلقوا رسلاً لبنانيين في اوروبا. كان اللبنانيون مبتكرون جداً. فقد اتصل بعض المسيحيين بأحد اصدقائي الناشرين في باريس لاقناعه، مهما كلّف الامر، بإخفاء اسلحة في صناديق الكتب التي ترسلها شركته بانتظام الى مكتبات لبنان. اسلحة تخرج من الشرق الاوسط لتعود اليه بعد جولة في نصف الكرة الارضية، ولكن بأيدٍ جديدة. اسلحة مشاة سوفياتية استولت عليها اسرائيل في حرب ١٩٦٧، بيعت اولاً الى ثوار بيافرا، وعندما قضت نيجيريا على هؤلاء، اعطي السلاح الى غانا، حيث اشتراه رجال اعمال لبنانيون لارساله الى الغيتو الماروني. تباهى مسيحيو لبنان بأنهم اشتروا اول اسلحتهم من فلسطينيين باحثين عن المال. وامدتهم دول عربية بالسلاح (العراق، السعودية، الاردن...)، ثم اعقبتهم اسرائيل تدريجياً.

مع تصاعد موجات العنف والنهب الفردي والاحترافي، نهبت الميليشيا المسيحية المرفأ. بينما قام الفلسطينيون، وربما بمؤازرة لصوص اوروبيين، بأكبر سلسلة من السطو على البنوك. هكذا تلاشى اهم مصدرين في لبنان.

تلازمت عمليات الخطف المتبادل مع عمليات القتل والتعذيب، وقد وصل الامر الى قمته فيما يسميه اللبنانيون السبت الاسود. في هذا اليوم نفذت الميليشيات المسيحية مذبحة حقيقية ضد المسلمين استمرت يوماً كاملاً. كما قتلوا، خلال احدى تجاوزاتهم الدموية في هذه الحرب، اكثر من الفي فلسطيني ولبناني مسلم من الطبقات الفقيرة، بعد ان اجتاحوا

مخيم اللاجئين في تل الزعتر في آب (اغسطس) ١٩٧٦ بعد اثنين وخمسين يوماً من الحصار. التفاصيل الاكثر تعبيراً لهذه المجزرة صورتها كاميرا أحد افراد الميليشيا، حيث يظهر الناجون وهم يقفزون الى شاحنات الصليب الاحمر الدولي. وليس فيهم رجل واحد.

بيّن السبت الاسود، الى أي مدى بات لبنان خارج كل انضباط. أبرزت الابواق الرسمية المجزرة بأنها رد فعل على مقتل اربعة كتائبيين في الليلة السابقة. اما المذبحة في قلب بيروت فقد خلّفت ما يزيد على مئتي قتيل مسلم، ومهّدت لخسارات مسيحية جديدة في الحرب الاهلية. في صباح ذلك اليوم كان الشيخ بيار الجميل رئيس الكتائب قد سافر الى دمشق.

هذه الزيارة ومذبحة السبت الاسود تظهران اتجاهين مختلفين في فكر مسيحيي لبنان: الرغبة في رفض كل ما هو عربي واسلامي واصطدامها بمحاولة اقامة علاقات مع العالم العربي، الذي تجسده سوريا. قطعت فظائع السبت الاسود مؤقتاً عن الكتائب مورداً مالياً هاماً من السعودية، ودول خليجية اخرى. في الواقع، ان مواجهة اليسار الذي يعني للسعوديين الشيوعية مباشرة، عمل حسن، اما ذبح المسلمين بالمئات فهو أمر غير مقبول.

قبل ثلاثة ايام من السبت الاسود، اوقف مسلحو الكحالة، البلدة المارونية المتعصبة على طريق بيروت ـ دمشق، شاحنة تنقل نسخاً من القرآن الكريم الى السعودية، واحرقوها جميعاً.

رغبة في «تنظيف» مناطقهم من الفلسطينيين والمسلمين اللبنانيين! استولى المسيحيون في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٦ على موقعين هامين يهددان فعلياً الاتصالات بين بيروت الشرقية والداخل الماروني، شمالا وشرقاً. الموقع الاهم كان حي الكرنتينا الذي يقع قرب المرفأ، ثم المسلخ. هذا الحي مجموعة اكواخ من التنك يضم اكثر من ثلاثين الف شخص، اغلبهم من المسلمين الشيعة، مع قلة من الاكراد والارمن،

تعود ملكيته الى الرهبان الموارنة. كان الصراع فيه عنيفاً. ووفقاً للناجين اللبنانيين، منع الفلسطينيون غير المقاتلين من الهرب وصمدوا ثلاثة ايام في معمل «سليب كونفورت» قبل ان يبادوا جميعاً. اكثر غرابة من العنف، كانت سذاجة الكتائب في ترك الصحافة تعمل ما تشاء، وعجزهم عن فهم لماذا كانت البرقيات والافلام والصور كارثة على قضيتهم. فالشمبانيا التي اريقت على الجثث والموسيقى التي عزفت فوق الدماء، والبيوت التي تتهاوى تحت النار والدخان، كلها كانت صوراً من الكرنتينا. والاسوأ من ذلك ايضاً صورة الرجال المسلمين من مختلف الاعمار وجوههم للحائط، وايديهم موثوقة خلف ظهورهم، تحت انظار الكتائبيين الذين يعلقون صلباناً ضخمة من الخشب حول اعناقهم. وكذلك منظر قوافل النساء الباكية والاطفال المروعة، يلوحون بأعلام بيضاء، ولا أثر لاي رجل الى جانبهم... تلك هي الذكرى التي لا ازال احتفظ بها للكرنتينا.

بعد يومين، هاجم الفلسطينيون وحلفاؤهم اللبنانيون الدامور، مدينة ساحلية مارونية على بعد عشرين كيلومترا جنوب بيروت، بالنسبة لبعض المراقبين كانت العملية نهبا اكثر منها مجزرة، على الاقل وفقاً للمعايير اللبنانية. ان عدد الضحايا القليل نسبياً، في مدينة عدد سكانها حوالى ٢٠ الف نسمة ـ اقل التقديرات تجعله ٦٠ قتيلاً وأقصاها خمسمئة، والتقدير المتوسط مئة وخمسين قتيلا ـ يسمح بالاعتقاد بأن المذبحة لم تكن الهدف الحقيقي للفلسطينيين. في الايام التالية نُهبت الدامور من كل ذي قيمة... واخيراً وضع الفلسطينيون في الدامور رجالهم، ومجموعة رمزية من لاجئي الكرنتينا.

بعد ستة اشهر كان الهجوم الوحشي على تل الزعتر، آخر حصن فلسطيني في الاراضي المسيحية. كان المسيحيون واثقين من السيطرة عليه. كما كانوا بحاجة الى نصر عسكري، بعد تراجعات عدة. الفلسطينيون ايضاً ارادوا ضحية؛ وطالما قارنوا تل الزعتر «ستالينغراد»

مخيم اللاجئين في تل الزعتر في آب (اغسطس) ١٩٧٦ بعد اثنين وخمسين يوماً من الحصار. التفاصيل الاكثر تعبيراً لهذه المجزرة صورتها كاميرا أحد افراد الميليشيا، حيث يظهر الناجون وهم يقفزون الى شاحنات الصليب الاحمر الدولي. وليس فيهم رجل واحد.

بيّن السبت الاسود، الى أي مدى بات لبنان خارج كل انضباط. أبرزت الابواق الرسمية المجزرة بأنها رد فعل على مقتل اربعة كتائبيين في الليلة السابقة. اما المذبحة في قلب بيروت فقد خلّفت ما يزيد على مئتي قتيل مسلم، ومهّدت لخسارات مسيحيّة جديدة في الحرب الاهلية. في صباح ذلك اليوم كان الشيخ بيار الجميل رئيس الكتائب قد سافر الى دمشق.

هذه الزيارة ومذبحة السبت الاسود تظهران اتجاهين مختلفين في فكر مسيحيي لبنان: الرغبة في رفض كل ما هو عربي واسلامي واصطدامها بمحاولة اقامة علاقات مع العالم العربي، الذي تجسده سوريا. قطعت فظائع السبت الاسود مؤقتاً عن الكتائب مورداً مالياً هاماً من السعودية، ودول خليجية اخرى. في الواقع، ان مواجهة اليسار الذي يعني للسعوديين الشيوعية مباشرة، عمل حسن، اما ذبح المسلمين بالمئات فهو أمر غير مقبول.

قبل ثلاثة ايام من السبت الاسود، اوقف مسلحو الكحالة، البلدة المارونية المتعصبة على طريق بيروت ـ دمشق، شاحنة تنقل نسخاً من القرآن الكريم الى السعودية، واحرقوها جميعاً.

رغبة في «تنظيف» مناطقهم من الفلسطينيين والمسلمين اللبنانيين! استولى المسيحيون في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٦ على موقعين هامين يهددان فعلياً الاتصالات بين بيروت الشرقية والداخل الماروني، شمالا وشرقاً. الموقع الاهم كان حي الكرنتينا الذي يقع قرب المرفأ، ثم المسلخ. هذا الحي مجموعة اكواخ من التنك يضم اكثر من ثلاثين الف شخص، اغلبهم من المسلمين الشيعة، مع قلة من الاكراد والارمن،

تعود ملكيته الى الرهبان الموارنة. كان الصراع فيه عنيفاً. ووفقاً للناجين اللبنانيين، منع الفلسطينيون غير المقاتلين من الهرب وصمدوا ثلاثة ايام في معمل «سليب كونفورت» قبل ان يبادوا جميعاً. اكثر غرابة من العنف، كانت سذاجة الكتائب في ترك الصحافة تعمل ما تشاء، وعجزهم عن فهم لماذا كانت البرقيات والافلام والصور كارثة على قضيتهم. فالشمبانيا التي اريقت على الجثث والموسيقى التي عزفت فوق الدماء، والبيوت التي تتهاوى تحت النار والدخان، كلها كانت صوراً من الكرنتينا. والأسوأ من ذلك ايضاً صورة الرجال المسلمين من مختلف الاعمار وجوههم للحائط، وايديهم موثوقة خلف ظهورهم، تحت انظار الكتائبيين الذين يعلقون صلباناً ضخمة من الخشب حول اعناقهم. وكذلك منظر قوافل النساء الباكية والاطفال المروعة، يلوحون بأعلام بيضاء، ولا أثر لاي رجل الى جانبهم... تلك هي الذكرى التي لا ازال احتفظ بها للكرنتينا.

بعد يومين، هاجم الفلسطينيون وحلفاؤهم اللبنانيون الدامور، مدينة ساحلية مارونية على بعد عشرين كيلومترا جنوب بيروت، بالنسبة لبعض المراقبين كانت العملية نهبا اكثر منها مجزرة، على الاقل وفقاً للمعايير اللبنانية. ان عدد الضحايا القليل نسبياً، في مدينة عدد سكانها حوالى ٢٠ الف نسمة ـ اقل التقديرات تجعله ٦٠ قتيلاً وأقصاها خمسمئة، والتقدير المتوسط مئة وخمسين قتيلا ـ يسمح بالاعتقاد بأن المذبحة لم تكن الهدف الحقيقي للفلسطينيين. في الايام التالية نُهبت الدامور من كل ذي قيمة... واخيراً وضع الفلسطينيون في الدامور رجالهم، ومجموعة رمزية من لاجئي الكرنتينا.

بعد ستة اشهر كان الهجوم الوحشي على تل الزعتر، آخر حصن فلسطيني في الاراضي المسيحية. كان المسيحيون واثقين من السيطرة عليه. كما كانوا بحاجة الى نصر عسكري، بعد تراجعات عدة. الفلسطينيون ايضاً ارادوا ضحية؛ وطالما قارنوا تل الزعتر «ستالينغراد»

جديدة. كان من الممكن التفاوض. وقد فعل الصليب الاحمر الدولي ما بوسعه، ولكن، بدل كل ذلك، هلك آلاف اللبنانيين والفلسطينيين اللاجئين.

كما في الكرنتينا، كذلك في تل الزعتر، شكا الناجون اللبنانيون من الفلسطينيين المسلحين ومن احتكارهم للغذاء والماء. كثير من الضحايا سقطت بعد الاستيلاء على المخيم، وعدد ملحوظ قتل قبل ان يصل الى منطقة الامان في تقاطع «المتحف».

غادر بيروت نصف سكانها، ومن بقي فيها اعتاد الحياة. اذا تعطل تلفونك، استعرت تلفون جارك الغائب. وعندما تختفي الكهرباء، يمكن الاستفادة من الخط الرئيسي في الشارع. قطعت المياه، فحفر العديد من سكان بيروت آباراً ارتوازية.

المناطق التي تتعرض لرصاص القناصة باتت معروفة. الشاحنات تفرغ حمولاتها الضخمة من الرمل لتصبح سواتر في الشوارع الخطرة. القنص يجعل الشرفات والنوافذ غير آمنة. عندما تتكاثر اصوات المدفعية، تهوي الناس من الطوابق العليا نظراً لخطورتها. حتى على خط التماس، يعيش الناس في الغرف الخلفية لمنازلهم، بينما تتعرض الغرف الامامية لنيران الميليشيات. المستشفيات، المدارس، الثكنات، الاسواق واماكن التجمع كافة، كانت اهدافاً لقذائف المدفعية والهاون والصواريخ. في بيروت، كان عدد الضحايا اكثر ارتفاعاً لدى المسلمين منه لدى المسيحيين، لان هؤلاء اكثر عددا ويعيشون في احياء مكتظة مما يوقع اصابات اكثر بينهم.

بعد سقوط فندق «الهوليداي إن» في ايدي الفلسطينيين واليساريين وطرد الكتائب منه، وبعد خروج فرنجية من القصر الرئاسي اثر تعرضه للقصف، باتت الكتائب في نهاية شهر آذار على شفير الهزيمة. يقول الخبثاء الكتائبيون ان «الهوليداي ان» لم يسقط الا لأن رجالهم

فضلوا الذهاب الى المرفأ للمشاركة في الغنائم، «كانوا اكثر اهتماماً بالسلب من شن المعارك». هكذا قيل لي في اكثر من مكان. كان هجوم الفلسطينيين واليساريين حازماً، مما لم يسمح للكتائبيين الذين يقاتلون متراجعين، بالوقت الكافي للنهب قبل الوصول الى خط دفاعهم الاساسي في «ساحة الشهداء». كم باتت بعيدة تلك الايام العزيزة على هواة الفولكلور حيث كانت الميليشيات المتخاصمة تعقد هدنة خاصة لتتمكن من السرقة بسلام. ووفقاً لاحدى اكثر الروايات تواتراً، عندما انتهت الميليشيات المتواجدة في شوارع العاصمة، من نهب المخازن عقدت هدنة فيما بينها لتتمكن من نقل ما سلبته الى خلف مواقعها. «عناصر غير منضبطة» لدى كلا الطرفين. هذه الجملة تحديداً لم تعجب نازو، احدى الشخصيات الهامة في الميليشيا الكتائبية. كان اندفاعه لقضية الكتائب غير مألوف نوعا ما. نازار ناجريان، من الطائفة الارمنية التي حاولت جاهدة البقاء خارج الصراع. في الثامنة عشرة من عمره قاد نصف المجموعات الكتائبية وسط بيروت.

ارتبك نازو حين سألته عن شعوره وهو يرى الكتائبيين ينهبون المرفأ الذي تقدر خسائره بحوالي السبعمائة وخمسة عشر مليوناً من الدولارات - ستون بالمائة منها في المنطقة الحرة: «عندما بدأ كل شيء، قمت بجولة على المواقع. لم يكن النهب بالنسبة لي امراً عادياً. كنا نشاهد المرفأ على بعد مائة متر بالكاد، وميليشيا ومدنيين - ميلشيانا ومدنيينا - وصل بهم الامر في بعض اللحظات الى اطلاق النار علينا، بينما كانوا يملأون شاحناتهم وسياراتهم بالبضائع..

«اتفقنا جميعا على ان لا شأن لنا بالنهب، ولكن الحديث لن يكون الا عن هذا الامر طالما استمر، وقد استمر عدة اسابيع. قلنا: «اذا اردتم البقاء معنا يجب الحفاظ على النزاهة.

- هل هناك من رحل؟

أجل، استمر الامر كذلك طيلة الحرب. لم يكن هناك انضباط حقيقي. اذا اراد احد افراد الميليشيا ترك القوات، كان باستطاعته ذلك دون ان يضايقه احد، لاننا كنا بحاجة ماسة للمقاتلين في تلك الفترة.

- ولكن، من المفترض ان يبدو لك نهب المرفأ امراً محالاً، انت الذي امضيت اشهراً في الدفاع عن جبهة مركز المدينة.

«انه احد امرّ الصراعات بالنسبة لي. العديد من افراد الميليشيا سرقوا خلال الحرب. يقول لي رجالي، فلان لم يكن يملك دراجة في بداية الحرب، الآن يقود سيارة اميركية فخمة. لكن كل هؤلاء الرجال الذين جمعوا المال دون جهد، بددوه على القمار، والمخدرات والنساء.

- ولكن كل هؤلاء التجار الذين اثروا عبر التهريب والنهب، بينما تغامرون انتم بحياتكم، واولئك الذين يبيعون الى شبابكم الحشيش، والهيرويين والكوكايين؟

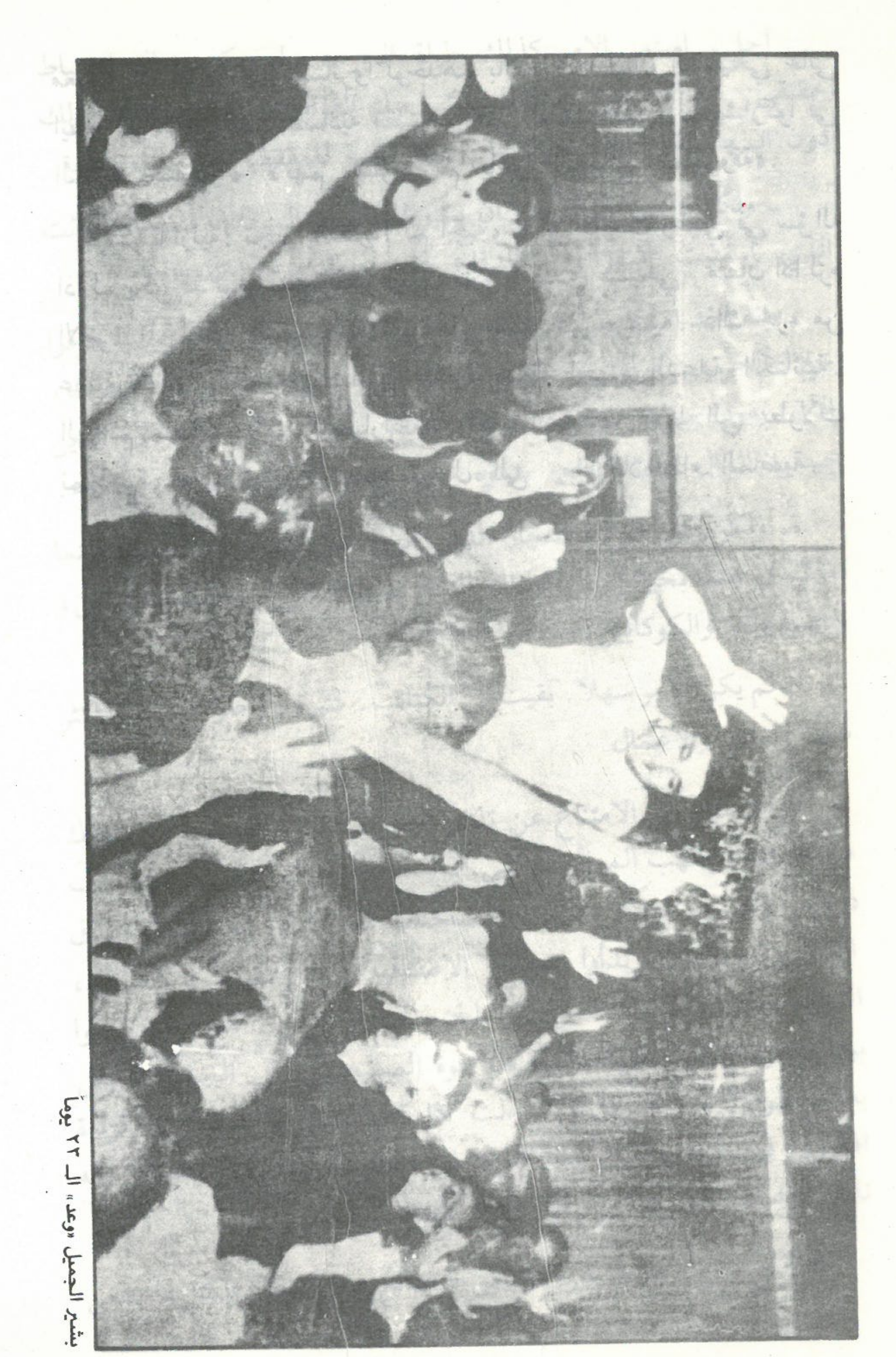
- لم يكن الامر سهلا. بقيت في الكتائب. كثيرون رحلوا فقد كانوا اكثر ميلاً للمال والاعمال.

لم اتمكن من الامتناع عن تذكر احد اصدقائي العاملين في البنوك في حديثه عن نهب المرفأ. «يكفي ان تدفع احياناً الى كتائبي، ستة آلاف دولار، وتصبح حراً في ان تملأ شاحنتك بما تشاء. بعد فترة، ضاق الكتائبيون ذرعاً، وبدأوا بجمع الاصناف ذات القيمة - السجاد، التحف، السيارات، الكحول، التليفزيونات الملونة.. الخ. ثم نظموا بيعاً بالمزاد العلني في مدرسة «الاخوة المسيحيين» في الجميزة - على بعد خطوتين من المرفأ.» تساءلت اذا كان نازو قد تمكن من قراءة افكاري فيما يتعلق بشأن هذا المزاد في المدرسة لانه سبق واخبرني انه تابع دراسته الثانوية في المدرسة نفسها.

قال لي نازو: «طبعا سرق الناس البضائع من المرفأ، ولكن ما ينبغي

معرفته ان هؤلاء لم يستأثروا لوحدهم بالفائدة، فلبنان المسيحي عانى ايضاً من صعوبات اقتصادية مضنية. حتى اولئك الذين لم يشاركوا في النهب استفادوا، لانهم اشتروا ثم باعوا البضائع المسروقة».

فينيقيا ازلية! تجار بالفطرة! لم اجبه، لا بل قاومت رغبتي في سؤاله اذا لم يكن قد تربى لدى اليسوعيين. نازو جندي مسيحي متفان اذا لزم الامر، يلجأ الى التبرير عندما يواجه حقائق غير مرضية. ذاك جزء من عقلية الغيتو المسيحي الذي تديره بلباقة اجهزة الدعاية الكتائبية. الهزائم تحولت الى انتصارات - واكثر المواقف جبناً الى بطولات نموذجية، والتفاؤل المتوهج تحول الى رماد للاخطاء الماضية.



بشير الجميل «موعد» الـ ٢٣ يوماً

صعود لا يقاوم لبشير الجميل

صعود لا يقاوم لبشير الجميل



بشير الجميل «وعد» الـ ٢٣ يوماً

أكد لي السياسي الكتائبي مبتسماً: «إنه أطول انقلاب حديث، أو في أي حال، انه على غرار ذلك، اذا ما اعتمدنا على المظاهر». في آخر هذا الشهر من عام ١٩٨٢، القى نظرة الى الخلف، نظرة على النصف قرن من التاريخ اللبناني الذي انقضى لتوه والذي كان وثيق الصلة بالأهداف المتغيرة لحزبه وللأسرة المؤسسة، آل الجميل في بكفيا. هو يعلم ولا شك، ان اكثر من نصف دزينة من الجيوش حطت رحالها في لبنان إن المستقبل غامض والاحلام التي خامرت كثيراً من اللبنانيين غيره، في تبدد الصعاب الذي يجتازها البلد، قد تبخرت. والأسوأ من ذلك كله، ان بشير مات، قتل حتى قبل ان يتسلم مقاليد السلطة رسمياً. مع ذلك، فقد حقّق «الكتائب» نجاحات عدة! اذ تحوّل في غضون ٤٦ عاماً في ظل مؤسسه بيار الجميل، من ميليشيا بسيطة الى قوة مسلحة. وكفّ عن ان يكون مجرد حزب بسيط. لا بل بات على وشك ان يكون دولة حقيقية. لبنان القديم الذي يتغنى به الشيخ بيار مات: لقد انهار منذ ١٩٧٥. مقابل ذلك صعد حزبه وطموحات أسرته. فإثنان من آل الجميل انتخبا لرئاسة الجمهورية اللبنانية. اما الآن فالشيخ بيار مهتم بلعب دور الحَكَم في الصراع على السلطة بين القوات اللبنانية، قوة ضاربة ودولة ضمن الدولة اسسها ابنه بشير، وبين الجمهورية وعلى رأسها اليوم ابنه أمين. في السابعة والسبعين من عمره، حقق الرجل الهرم اخيراً حلم حياته. كان عليه ان ينتظر عام ١٩٦٠ لِيُنتخب نائباً، ورغم وصوله الى

منصب وزير مرات عدة، فإنه لم يصل الى الرئاسة التي طالما رَغب فيها. زد على ذلك انه الآن أقوى مما كان عليه طيلة السنوات الخمس السابقة، حيث ابعده بشير عن الواجهة.

يشدد البعض على ان الشيخ بيار لم يولد في لبنان، بل في مصر، من ابوين لبنانيين، في محاولة لرد قوميته المسيحية الجذرية، الى هذه الولادة في ارض اجنبية. درسّ في الجامعة اليسوعية في بيروت التي يديرها اليسوعيون الفرنسيون. كان شغوفاً بالرياضة أكثر من أي شيء آخر. مارس الملاكمة والمصارعة وكرة القدم، وكم وزع له الكتائبيون صوراً بلباس الجامعة، يزينها صليب ضخم. انهى دراسة الصيدلة وفتح دكاناً في «ساحة الشهداء».

لم يخفِ الشيخ بيار مطلقاً ان زيارته الى برلين عام ١٩٣٦، بمناسبة الالعاب الاولمبية، هي التي دفعته لتأسيس حزب الكتائب. مؤخراً بات يفضل القول لزواره ان نوادي الـ Sokol الرياضية في تشيكوسلوفاكيا وليس الفرق النازية، هي التي اثارت اعجابه ودهشته بانضباطها وتنظيمها. بعد عودته الى بيروت شكل اولى المجموعات المنظمة المماثلة للاحزاب اليمينية القومية في حوض المتوسط: قبعات استعمارية، زي موحد، قمصان وربطات عنق قاتمة اللون (كاكي لدى الكتائب) وتحية باليد الممدودة. رغم ادعاء الكتائب في الاربعينات، بحماية الطائفة اليهودية في لبنان، التي يتناقص عددها باستمرار، فإن الاسرائيليين لم يشعروا بأي تعاطف نحو افرادها لانهم يتشبهون بالنازيين. يقول المختصون ان تأثير الفاشية الاوروبية على الكتائب اقل اهمية من مصلحتها الدائمة في ان تكون منظمة شبه عسكرية، لها زعيم واحد فقط.

في البداية قام الشيخ بيار مع انصاره بعمليات منظمة ضد قوات الاحتلال الفرنسي. قبل الحرب العالمية الثانية، كان خصمه اللبناني

الرئيسي، مجموعة لها التكوين نفسه تقريباً هي النجادة، وهي على غرار كثير من الاحزاب السياسية التي اسسها المسلمون السنة، ترى ان على فرنسا ان تعيد لبنان الى سوريا. وبصفته قومياً لبنانياً، كان الشيخ بيار يفضل الكلام بالفرنسية ولا يزال حتى اليوم ينطق العربية بصعوبة.

طيلة تاريخ الكتائب، كان الشيخ بيار يعتبر قواته المسلحة، مجموعات مساندة، مهمتها دعم الدولة، اي السلطة المسيحية. لم يتعب الشيخ بيار مطلقاً من التغني بميثاق ارسى اسس اول سلطة سياسية مسيحية في الشرق الاوسط منذ الحروب الصليبية. الغرباء الذين يزورون المقر الرئيسي للكتائب يسمعون باستمرار الروايات التاريخية حول تجاوزات المسلمين: «لم يكن مسموحا لجدي في بكفيا ان يرتدي الحرير ولا امتطاء الحصان. اذا ذهب الى بيروت، عليه ان يستخدم الحمير فقط» يروي ذلك الشيخ بيار، وكأنه حصل ليلة أمس.

خلال خمسين عاماً من الحياة العامة ادلى بيار الجميل بآلاف التصريحات اليومية للصحافة في بلده، - منددأ بالتجاوزات الفلسطينية، بالارهاب اليساري الدولي، وبالطابور الخامس الذي يريد تدمير صيغة ١٩٤٣. وفي اكثر من مناسبة، يذكّر بأن الموارنة، على عكس اليهود أو الفلسطينيين، لم يتركوا ارضهم مطلقا، وانهم على استعداد للموت، اذا لزم الامر، ضد اي محاولة لطردهم منها. هذه الحجة الاخيرة هي التي تحرك دائماً الوتر الحساس لدى الموارنة. مارس الشيخ بيار تأثيراً ملحوظاً على جيلين من المسيحيين في لبنان، وخصوصاً على إخوانه الموارنة. كان نَصه احد النصوص المطمْئِنة التي لا يرغب كثير من المسيحيين في الافصاح عنه علناً، ولكن لا يغضبهم ان يصل الى اللبنانيين الآخرين، وخصوصاً الى المسلمين.

رغم ان حزب الكتائب لم يكن لديه الشيء الكثير ليجتذب القلة التي كانت تحكم لبنان فعلياً قبل ١٩٧٥، ولا المثقفين، فإن لائحة

الاعضاء السابقين تضم منوعات من النخبة السياسية المسيحية، رغم ان كثيرين منهم تركوا الحزب بعد قضاء فترة قصيرة بين صفوفه - خصوصاً الاكثر تطوراً بينهم الذين لم يحتملوا استبدادية الشيخ بيار. احدى الدعابات اللبنانية القديمة تشرح لماذا ليس هناك دكان حلاقة امام حي الكتائب الرئيسي: «لانهم يرحلون قبل ان تنبت لحاهم!» إلا ان الكتائب بمكتبها السياسي، ولجنتها المركزية وبنيتها المعقدة من التنظيمات المحلية والمهنية، تبيح النقاش السياسي، والديمقراطية، كما يدّعي المدافعون عنها. شعارها «الله، الوطن، العائلة» شعار يرضي الموارنة بشكل خاص. الذين تركوا قراهم واتجهوا الى المدن، أو الذين بقوا في الجبال، دون ان ينتموا الى العائلات المارونية القديمة والقوية. بالنسبة لهؤلاء تعتبر الكتائب بمثابة واسطة، اي مدخلاً للنفوذ. على مستوى القرية، كانت الكتائب في معظم المناطق المسيحية داخل الحركة، ورغم مظاهر الديمقراطية، فإن الشيخ بيار هو الذي يتخذ القرارات كافة.

خدم الحظ الكتائب في لحظات مناسبة. قبل الحرب الاهلية كانت وحدها. في نيسان (ابريل) ١٩٧٥، في بداية المعارك، ارتكب المسلمون، واليسار والفلسطينيون خطأً فادحاً بمحاولتهم لعزل الكتائب من الحكومة وحتى من الحياة السياسية اللبنانية. منذ هذه اللحظة التف حول الكتائب العديد من الموارنة، وكذلك العديد من المسيحيين من الطوائف الأخرى حتى اولئك الذين لم يروا في الكتائب شيئا جدياً. ساد الاحساس بأن المسيحية في خطر، فانتشرت الحواجز. في اشهر الصراع الاولى، كانت الحواجز الهامة حواجز كتائبية. «تدافع اليها الشبان دون العشرين، تماماً كما كان اخوانهم الاكبر سناً يتدافعون نحو البليار الكهربائي قبل سنوات» يتذكر احد الموارنة. وفقاً لمعايير ذلك الوقت، لم تكن الكتائب مستعدة للصراع، فقط بسبب التكوين شبه العسكري في صفوفها الذي اعده افراد من الجيش اللبناني، بل بفضل احساسها العام بالتنظيم. دُهِش فرد ستوكس Fred Stokes أحد علماء السياسة البريطانيين،

الذين راقبوا الكتائب منذ سنوات عدة، من تنظيمهم. وتساءل عما ستفعل بكل هؤلاء الشباب الذين تعدّهم.

عندما اندلعت المعارك، كان اقوى حلفاء الكتائب، الرهبان الموارنة الذين انتزعوا من داخل كنيستهم، سلطة البطريرك انطونيوس بطرس خريش، الذي يعتبره الكثيرون دجاجة مبتلة مؤيدة للفلسطينيين. ولد على بعد خطوتين من الحدود الاسرائيلية، بعيداً عن قلب الطائفة المارونية. مارس الرهبان الموارنة تأثيراً كبيراً على اتباعهم خصوصاً في اوقات التوتر، نظراً لصفتهم المزدوجة كملاك كبار للاراضي، وكمربين استقبلوا العديد من الأسر المسيحية التى طردت من مناطقها بسبب المعارك. لمسؤولهم العام، الاب شربل قسيس صيت ذائع في لبنان، وحس للاستثمار المربح. يدعي خصوم المسيحيين ان الرهبان هم الذين يجمعون المال اللازم لشراء السلاح.

لم تتمكن التنظيمات المسيحية الاخرى من منافسة الكتائب. بين اهم خصومهم، ميليشيا النمور، التي اسسها الرئيس شمعون. خلال الاشهر الاولى للصراع بقي شمعون جانباً... عندما دفع اخيراً بقواته العسكرية (بقيادة ابنه الاصغر، داني)،

في القتال شنت معارك - كحصار تل الزعتر مثلا - كان الكتائب يفضلون تجنبها. يقارن بعض المسيحيين ميلشيا النمور بعصابات الارغون التي كان يقودها بيغن في الاربعينات في فلسطين. «نحن الذين قدنا المعارك، وليس الكتائب. قال لي شمعون. لم يرغبوا في حصار تل الزعتر، لكنهم اضطروا اخيراً للمشاركة. ولو وصلنا السلاح بانتظام، اضاف قائلاً لتمكنّا من اجتياح بيروت الغربية». اي لتمكن من وضع حد نهائي وسريع للحرب الاهلية.

وُوجهَ رئيس الجمهورية سليمان فرنجية الذي انتهت ولايته في عام ١٩٧٥، بمعارضة شديدة. لكن في شمال البلاد كان وعشيرته

زعماء مطلقين، لان الاقليات المهددة ترغب في أقل تغيير ممكن لزعمائها. كان الخاسر الاول ريمون اده. لم يلجأ الى تكوين ميليشيا. كما ان احتقاره القوي والحازم للقيادات المسيحية الاخرى جعله هدفاً. اذكر، اثناء تناولي الغداء معه في بيروت الغربية في ربيع ١٩٧٦، كيف تساقطت قذائف الضابط المرتد انطوان بركات على الحي. اختبأت تحت الطاولة تجنباً للقنابل التي طالت الابنية المجاورة.: «لا تقلق، قالها اده، في المشرق يُقتل الحصان، وليس الخيّال» ليبين لي، ان القادة لا تطالهم المذابح. هذا الحادث، حصل قبل ان يصاب بجروح اثر مكمن نصبه له متعصبو بشير، واضطره الى اللجوء الى فرنسا. تأكدت سلطة بشير الجديدة بوضوح في تموز (يوليو) ١٩٧٦، عندما اصبح القائد العسكري للكتائب، خلفاً لوليم حاوي الذي قتل في ١٣ تموز (يوليو) بينما كان يقوم بجولة على قواته اثناء حصار تل الزعتر. هذا الموت كان مناسباً جداً لبشير، الى درجة ان العديد من اللبنانيين، بينهم الكثير من عائلة حاوي كانوا على ثقة بأن بشير ليس غريباً عنه. (إلا ان الناطق باسم منظمة التحرير، والذي ليس له اي مصلحة في تبييض صفحة الجميل، اكد ان احد الاشبال المحاصرين، اصاب شخصاً تطابق مواصفاته مواصفات حاوي). مهما كان الامر، فإن بشير لم يتوقف منذ ذلك الوقت عن الصعود. رغم تحفظات والده على توليه لمنصب بهذه الاهمية قياساً الى اندفاعه، فإن بشير تمكن من فرض ارادته. - تنبغي الاشارة الى ان الشيخ بيار وحاوي كانا معارضين لتعيينه قائداً مساعداً. - لم يعارض والده حقاً، ولا حتى اخوه ما وصفه احد الرهبان الموارنة النافذين، بلهجة مؤيدة «جشعه للسلطة». الآن وقد اشتدت الحرب، فَقَد السياسيون مواقعهم - وسلطتهم - لصالح الشبان الذين يقاتلون. لولا الحرب الاهلية، لم يكن لنجم بشير ان يسطع في السماء اللبنانية.

مصير غريب للابن الاصغر الذي لا يتمتع لا بلطافة ولا بجاذبية ولا بالقُدرات العقلية لاخيه الاكبر، امين. الذين عرفوا بشير جيداً اثناء

مراهقته وشبابه يعتبرونه لطيفاً، هذا اذا وضعنا جانبا ميله للعمليات الخيالية، التي تتميز، كما أسرّ لي في ما بعد صديق استاذ، بإراقة الدماء.

ذات يوم في اواخر الستينات، فتح بشير قلبه امام هذا الصديق، وهو يقلب صدر البوم لوالده في سني شبابه. تحدث بشير عن مستقبله. سينجز الحقوق، ويتزوج، لكن مستقبله السياسي غير واضح. فوالده لا يزال نشيطاً. وكذلك اخوه امين. اجل، ولكن الكتائب بحاجة لدم جديد، اعقب الاستاذ بلهجة مشجعة. فتابع الشاب قائلا لقد اكتسب والدي شهرة في صراعه ضد المسلمين والسلطات الاستعمارية الفرنسية. ونسج علاقات واسعة ثمرة سنوات عدة من النشاط السياسي. من المستحيل اعادة الظروف الخاصة نفسها، قالها بشير بلهجة المحبط، لأن لبنان يعيش الآن فترة ذهبية ولا تلوح في الافق اي تجربة.

تلقى بشير تربية مارونية بورجوازية نموذجية في مدرسة اليسوعيين، وفي جامعتهم. رغم ميله للعنف، كان ذا جوانب فاتنة انه على كل حال ابن الشيخ بيار، وكان ذلك مفيدا له من جوانب عدة. خصوصاً عام ١٩٦٩، عندما استخدم وزير الداخلية كمال جنبلاط نفوذه لدى منظمة التحرير لاطلاق سراحه. قامت مجموعة من الكتائبيين الشبان، بينهم بشير بفتح النار على طريق بيروت دمشق في الكحالة، على قافلة فلسطينية تنقل الى سوريا رفات بعض المقاتلين، لدى عودتهم الى بيروت الشرقية، أسرت المجموعة الصغيرة وأوقف الفلسطينيون سيارة بشير الموريس. .!! في تل الزعتر، ووجدوا في صندوقها قبعات مخضبة. (وليس رؤوساً مقطوعة، كما ذكرت احدى الروايات اثناء الحرب الاهلية).

بدأ بشير رسميا تعلمه السياسي، بعد عودته الى لبنان من دالاس وواشنطن إثر فصل دراسي قضاه في Southern Methodist University في دالاس، واقامة قصيرة في مجلس للمحامين في واشنطن. حتى ذلك

الحين كان قد انتسب منذ سن الثانية عشرة الى حركة الشبيبة الكتائبية، ثم لعب دوراً نشيطاً في عملياتها الطلابية الهامة. اما الآن، فستكون صلته الاولى بالسلاح، بإشراف الكتائبي المحنك جان نادر، في الاشرفية. الفرع الاكثر تألقاً في الحزب. قال لي نادر (الذي مات في ١٩٨٢ الى جانب بشير) ان البداية كانت جد صعبة: «لم يكن تلميذاً مطواعاً. كان يظن أن قبضته تسوي جميع الامور، ولكن مع الوقت، أدرك انه في السياسة لا يكفي العراك دائماً للوصول الى الغايات. كان يتشاجر مع الشرطة، مع الدرك، في الشارع، مع اي كان، وكنت اخرجه من المآزق التي يقع فيها. كان شديد الاندفاع. يتخذ قرارات مباشرة، يميل لتصديق افراد الميليشيا، دون ان يتحقق من الامر. ولكن فيما بعد، تعلم ان يقبل النقد وأؤكد لك انه لم يقتل انساناً بيديه». وقف الشيخ بيار ضد هذا التدريب في الاشرفية، لاقتناعه بأن على بشير ان يبدأ من المناطق اولاً ثم يتدرج وحده، نحو العاصمة. بشير الذي تتجاذبه السلطة، قال بأنه شق طريقه بنفسه، لكنه لم ينسَ ان هذه التصريحات حول لبنان الذي سيكون هو على رأسه نابعة من كونه ابن ابيه. عانى كل من بشير وامين من عرقلة والدهما الذي كان يخشى من كشف الوجه الحقيقي للكتائب - انها تنظيم هدفه خدمة مطامح اسرة الجميل - ومن معارضة ولديه الطموحين لإرادته. طيلة تاريخ عمله، اضطر بشير للمناورة لاحباط منافسات عائلية - لأن امين ايضاً، عارض غالباً نزق اخيه الشاب. شكّل هذا الصراع الاخوي، على طموحات بشير، خطراً اكثر جدية من ذلك الذي يواجهه مع خصومه السياسيين الرسميين من المسلمين، واليساريين والفلسطينيين اوحتى من السياسيين الموارنة المحافظين.

يقول بشير ان لا علاقة لنجاحه بمولده، ولا بالحرب الاهلية، بل هو ثمرة عمل شاق. وبدلاً من ان يحاول الاستيلاء على السلطة داخل الكتائب - حيث والده واخوه واصدقاؤهم موجودون بقوة - اسس منظمته الخاصة.

وتأسس مشروع القوات اللبنانية في ربيع ١٩٧٦، لتنظيم مجهود الحرب المسيحي. وتضم ميلشيا الكتائب، وميليشيا حزب الوطنيين الاحرار، وتنظيمين صغيرين هما حراس الارز (قريب من الرهبان)، والتنظيم (افراده اصحاب مهن حرة ـ اطباء، مهندسون، محامون . . .) واقعاً، ان بشير هو الذي شكّل «القوات اللبنانية»، خصوصاً بعد النهاية الرسمية للحرب الاهلية في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٦، حيث سادت فترة هدوء نسبي، نظراً لوجود القوات السورية على الارض اللبنانية في مهمة حفظ السلام. اشرف بشير داخل القوات على تقدم ضباطه الشباب، غالباً ادنى من الخامسة والعشرين، الذين لم يكن لهم في بعض الحالات اي صلة رسمية مع الكتائب.

لم يكن بشير اكثر من مراقب في جلسات المكتب السياسي الكتائبي، وغالباً ما اعفى نفسه من حضور اجتماعات الاثنين المقدسة (كما سميت) التي تبدأ في الحادية عشرة تماماً. نظرياً، كان اكثر من ثلاثة أرباع رجاله تقريباً كتائبيين، لكنهم ليسوا كذلك الا شكلياً. لم يمس بشير الشكل الخارجي، لكنه عمل مع مستشاريه على افراغه فعلياً من مضمونه. وبمقدار تحول القوات اللبنانية من مجموعات فوضوية الى كل متجانس ومنضبط ظاهرياً، شبيه بجيش نظامي حقيقي، باتوا رجال بشير وليس رجال حزب والده، او اخيه. (في نهاية عام ١٩٨١، استغل بشير سفر اخيه امين الى اوروبا ونزع سلاح ميليشياه الخاصة في المتن). رغم الميتولوجيا المارونية التي تريد ان تجعل من كل مقاتل ماروني جبلي قابعاً في قرية نائية، فإن من المؤكد ان الكثير من رجال بشير كانوا من ضواحي بيروت العمالية. ومنهم ايضا مجموعة هامة من المسيحيين المبعدين من مناطقهم بسبب المعارك، الذين لجأوا الى الغيتو الماروني واقسموا على مواصلة القتال حتى العودة الى منازلهم. منذ ١٩٧٨ اصبح بشير مستعدا للعمل بطريقة مستقلة تماماً، وقد برهن على ذلك حين شن احدى عمليات العنف الفائقة المغامرة التي باتت مألوفة لديه.

من بين المئة رجل الذين قاموا بالعملية، حفنة منهم فقط كانت تعلم الهدف. بدأ الهجوم على اهدن في شمال لبنان من ثلاث جبهات بعد الرابعة صباحاً بقليل، في ١٣ حزيران (يونيو) ١٩٧٨. هاجمت القوة الرئيسة القصر. خلال اقل من ربع ساعة كفت المقاومة في الداخل ولم يبق الا الجثث. طوني فرنجية، ستة وثلاثون عاماً، زوجته فيرا، اثنان وثلاثون عاماً وابنتهما جيهان ثلاث سنوات، الخادمة، السائق، والكلب.

. . أقسم بشير فيما بعد، انه لم يكن يعلم ان طوني فرنجية داخل القصر في اهدن حين شن رجاله الهجوم. . الا ان حجج بشير ورجاله لتبرير العملية لم تقنع اللبنانيين، الا اذا كان قائد القوات اللبنانية راغباً في التخلص من اكثر منافسيه شدة بين الجيل الشاب لأمراء الحرب. (بعد سنوات، اسرّ احد افراد المجموعة الى صديق له ان الجميل قال لمجموعة الهجوم، ان هدفه اختفاء طوني فرنجية). بعد يومين من العملية اعترف بشير بأن بعض عناصر ميليشياه قامت (بمبادرة خاصة) بالتنسيق مع «عناصر اخرى» غير معروفة، وهي المسؤولة عن مجزرة اهدن. اي ان الذي امر بهذه العملية «المؤسفة جداً» ليس مجلسه الحربي، كما اكد بشير للصحافة بأن «تحقيقاً» سيحصل وستتخذ «الاجراءات» بحق المذنبين. لم تخدع احداً هذه الكلمات المرتبكة لدى شعب اعتاد على زعماء يخفون خلف اجمل الالفاظ اخبث النوايا.

بهذه الغلطة الفادحة، بات الموارنة بعد ان خسروا موقعاً في الشمال، ورغماً عن رغبتهم في حكم البلد بأسره، يحكمون عشر مساحته وأقل من نصف اقليته المسيحية.

لم تسر مذبحة اهدن عائلة بشير بالضرورة. كما لم تغضب هواة الفولكلور السياسي الذين اكدوا ان الثلاثي الجميل يعمل وفقاً لتوزيع دقيق للادوار: الشيخ بيار: مؤسس الحزب، تحيطه هالة الملتزم صاحب المبادىء. أمين: الابن الاكبر، نائب، معتدل على المستوى السياسي،

رجل اعمال ماهر، معارض لاخيه غالباً اخيراً بشير الزعيم العسكري، والذراع الضاربة. هذه النظرة التبسيطية نوعا ما، يشارك بها كثير من اللبنانيين، ويقولون إن الخلافات الظاهرة بين الرجال الثلاثة غير موجودة في الواقع. مع العلم، ان امين لم يخفِ معارضته لعملية اهدن، ولكثير من عمليات بشير الاخرى.

في نظر العالم الخارجي، كرست مذبحة اهدن صعود بشير داخل الغيتو المسيحي الذي تقلص فجأة، وداخل عائلته الخاصة. ان التحليل الذي يقارب الحقيقة هو تحليل احد مستشاري الكتائب. «كان بشير من الذكاء بحيث نفذ العملية بقوة، موقناً ان والده لا يريد ان يعرف شيئا، لانه لو عرف، فسيجد نفسه مضطراً للصراخ والانفعال ولكن في نهاية المطاف، كان الشيخ بيار يحمي بشير دائماً». الا ان ضربة اهدن، اظهرت في الوقت نفسه سرعة عطب بشير كلاعب عنيد يكرر اللعبة، مع علمه ان الحظ سيتخلى عنه في النهاية. لم أرد ان اطمئنه على حياته، قال احد الديبلوماسيين الاميركان غداة اهدن. لقد وقّع بهذه العملية، «وثيقة موته».

. . وجد كميل شمعون نفسه بين نارين. فهو على عكس آل فرنجية في الشمال، والكتائب في الجنوب، وجبل لبنان، ليس لحزبه ولميليشياه اي منطقة مميزة جغرافيا تخضع لسيطرته. كان عليه ان ينتظر خمسة ايام ليقرر الذهاب الى زغرتا. اثناء زيارته التي استمرت سبعين دقيقة، اعتذر لعدم استطاعته المجيء قبل ذلك، وأدان قتل النساء والاطفال «الغريب عن قيمنا الاخلاقية وعاداتنا التي تأسس عليها لبنان». لكن ككل الناس في لبنان، يعلم آل فرنجية ان نمور شمعون لم يتجنبوا النساء والاطفال عندما اقتحموا تل الزعتر عام ١٩٧٦. يقول سكان الشمال، ان تصرف مسيحيي الجنوب يعكس رعبهم وفقدانهم لبيوتهم، بسبب ابتعادهم عن ارضهم الاصلية وافتتانهم بالحضارة الغربية.

في الذكرى السنوية الاولى لموت طوني فرنجية، اصيب الشيخ بيار بجرح طفيف من جراء محاولة اغتيال، عندما انفجرت على مقربة من موكبه سيارة رينو ١٦، وقتل اثنان من حرسه. في هذا اليوم في زغرتا، كان الاب يوسف يمين يحيي قداساً ويجدد قسم آل فرنجية: «كل الذين دنسوا اهدن سيقتلون، خاصة افراد آل الجميل، هم وذريتهم من الاجيال المقبلة، حتى لا يبقى منهم رجل او امرأة».

٢٣ شباط ١٩٨٠، امام وزارة الشؤون الخارجية في بيروت الشرقية، سيارة ملغومة تنفجر لحظة مرور سيارة بشير الجميل المرسيدس الخضراء. مايا، ابنة بشير، التي ولدت غداة مجزرة اهدن، السائق، واثنان من الحرس، واربعة اشخاص آخرين، قتلوا في الانفجار.

عندما قابلت سليمان فرنجية في ١٩٨٠، تمكنت من السؤال: ـ هل مقتل مايا يضع حداً لعمليات الثأر.

«طالما نتمكن من إخافتهم، قالت لي لميا ابنته، فالأمر ليس سيئا بالنسبة لنا». ثم اردفت: «اذا كان الاول بشير، فسيليه امين، ثم بيار. واذا كان الاول امين، فسيليه بيار، ثم بشير، وهكذا. . .

عندما علمت ايريس زوجة فرنجية بالمجزرة قالت: «انها بداية لحرب المئة سنة»ـ سألت لميا ذات مرة كيف ترى الوضع بينهم وبين آل الجميل فاجابت:

ـ «فصل اول في مشهد اول»،

انتظر سليمان، وخلال شهرين، بدأ الثأر. ثلاثمئة واثنان واربعون قتيلا من الكتائبيين ومن افراد عائلاتهم، اي اكثر من عشرة قتلى مقابل كل واحِد من الذين سقطوا في اهدن.

تلطخت سمعة بشير اثر دنس المجزرة في اهدن التي لم يرض عنها

اصدقاؤه، وانتقدها اعداؤه. خلال الصيف والخريف اللذين اعقباها، لم تكف شعبيته عن التراجع. اثار مع شمعون السوريين، آملاً في عون اسرائيلي لطرد جنودهم خارج لبنان. الا ان الدعم المنشود لم يتجسد مطلقاً. وعوضاً عن ذلك، لقن السوريون بشير وشمعون درساً جيداً بقصفهم لبيروت الشرقية، بمباركة ضمنية اميركية وفرنسية. رغم الاحتجاجات الدعاوية المسيحية حول المذبحة، كان عدد الضحايا فعلياً قليل نسبياً. فالقطاع الشرقي من العاصمة كان قد اخلي من ساكنيه. واذا كان الموارنة قد تمكنوا من انقاذ بعض شرفهم، فذلك بفضل شمعون الذي رفض بعناد مغادرة منزله.

داخل الكتائب، بات امين يمسك بزمام سلطة واسعة وشاملة، بصفة منسق. لم يُلطّخ بأي علاقة جدية مع اسرائيل. له علاقات سليمة مع الفلسطينيين والسوريين، كما نجح ايضاً في اشاعة فكرة التهور الخطير عند اخيه. شجاع (اكثر من بشير، اصيب مرتين خلال المعارك، برهاناً على ذلك)، حاذق، نائب، وعضو المكتب السياسي للكتائب، اصبح امين الآن ولاول مرة منذ عام ١٩٧٥، على استعداد لتجاوز اخيه، ولتثبيت طموحاته نهائياً، في الاسبقية. الا ان بشير، وخلال اقل من ستة اشهر استعاد انطلاقته، مستفيداً والحق يقال، من عجز اخيه الاكبر عن اتخاذ القرارات، ومن قلة ليونته الى درجة ان اعضاء الحزب اطلقوا عليه لقب العنيد. لكن امين استمر في الاشراف على الميليشيا التي تعمل في معقله السياسي في المتن، وعلى مؤسساته العديدة والمنتجة التي تمتد من السوبر ماركت الى شركة التأمين، مستخدماً كمراقبين، عسكريين قدامى لجمع الاشتراكات الباهظة. يؤكد الخبثاء انهم لا يرون اي فرق بين مؤسسته للخدمات الملحة وبين ابتزاز للحماية، ولكن الاغلبية كانت ترى مع ذلك ان الدفع اسلم.

لقد خسر امين الرهان. فوالده قد اختار منذ زمن. وكما قال احد الكتائبيين الذين يعرفون الاخوين جيداً: «لقد انتهى السباق، لكن النتائج

لم تعلن بعد». تدريجياً تملص بشير من وصاية كميل شمعون السياسية، فنسج علاقات مفيدة مع السوريين ليوازن بها صلاته المتينة مع اسرائيل. وركز جل اهتمامه على الغيتو الماروني وعلى العمق الحقيقي للسياسة اللبنانية التي لم يكن على دراية بشؤونها، بل على علم بطريقة ممارسة هيمنته داخل طائفته بالذات.

مع احتقار شديد للرئيس سركيس، قررت القوات اللبنانية تقويض الدولة اللبنانية. سابقاً، كان الشيخ بيار يقول: «إن قوتنا في ضعفنا»، ملمحاً بذلك الى ان الدولة تكون اكثر اطمئناناً اذا كانت اقل بريقاً لان جيرانها - خصوصاً اسرائيل - لا يشعرون بالتهديد. الآن، تضاعفت المرافىء «الخاصة» على امتداد الشاطىء المتوسطي. «الحوض الخامس» في مرفأ بيروت الرسمي، انتقل هو الآخر الى سيطرة الكتائب، وبات من الميسور دفع جزء من الجمرك المفروض وادخال تليفزيونات ملونة، وويسكي ومواد غذائية. آثر التجار المسلمون مرافىء التهريب في الغيتو الماروني على المرافىء الرسمية او المرافىء الخاصة الاخرى، الاقل ضمانة. اضطرت الدولة، بعد ان حُرمت من حقوقها الجمركية - اهم عائد مالي - الى خفض الرسوم على الدخان والسجائر لتتمكن من المواجهة.

كانت رسوم الاسمنت في «شكا» تدفع لآل فرنجية الذين يسيطرون على المنطقة، ثم للقوات اللبنانية على حاجزهم الجمركي الخاص في «البربارة». داخل الغيتو الماروني، ضاعف بشير الرسوم على البنزين، وفواتير المطاعم والملاهي الليلية، والكازينوهات المحظورة، والمعاملات العقارية، كما فرض غرامة سكن وفقاً لحجم المسكن. وبمقدار نمو قوته، كان يحاول نشر سلطته على جميع سكان الغيتو الماروني. في ١٩٧٨ و١٩٧٩ واجهت الطائفة الارمنية الصناعية، احفاد الناجين من المذابح التركية، هجوماً مشتركاً من ميليشيا الكتائب والنمور. رغم تحالفهم السياسي مع الكتائب، لم ينس الارمن درس

١٩٥٨: آنذاك دفعوا غالياً في المال والرجال ثمن وقوفهم الى جانب المسيحيين في الحرب الاهلية اليوم ارادوا البقاء على الحياد. فاتهموا بالانتهازية، واثاروا امراء الحرب ايضاً برفضهم لدفع اي مبلغ للميليشيا. البحر من ورائهم، ومواقع الميليشيات تحاصرهم، رغم ذلك صمد الارمن جيداً وردوا الصاع بالصاع. وهكذا تمكنوا من تجنب معظم الضرائب التي فرضتها الميليشيات المسيحية، الا انهم قدموا من اجل ذلك عشرات من ميليشياتهم الذاتية.

يعترف المسؤولون الماليون للقوات اللبنانية بأن عائداتهم ارتفعت الى مئة مليون دولار في السنة. بعض البنوك الخاصة تقدر المبلغ بثلاث مئة مليون تقريباً. يستخدم هذا المبلغ لرواتب الفي عنصر متفرغ من افراد الميليشيا ولتمويل التدريب العسكري في المدارس، ولشراء عدة الحرب، لان اسرائيل والآخرين يفضلون القبض نقداً. بالمقابل، ساهمت القوات اللبنانية في توسيع برامج الكتائب الاجتماعية، فنظمت مراقبة على اسعار المواد الطبية، ووفّرت باصات للنقل، ومواقف للسيارات تمنع في الوقت نفسه خطر السيارات الملغومة. اعتاد بشير الجميل ان يحضر الى المكان الذي يحصل فيه انفجار ما ليبين للناس مدى شعوره بالمعاناة.

اذا اراد بشير شيئا، كان يحصل عليه غالباً، وليس دائماً. ذات صباح من صيف ١٩٨٠، أوقف شارل رزق مدير تليفزيون لبنان، ودفعه عنصرا الميليشيا رفساً باقدامهما على المقعد الخلفي للسيارة واقتيد الى المرفأ حيث أُلقي في صندوق مقفل لا نوافذ فيه، تعيث فيه الفئران فساداً. بعد نصف ساعة ظهر بشير وبقرادوني وابديا دهشتهما من وجوده في هذا المكان غير اللائق، ثم انتقلا مباشرة الى الحديث عن الاعمال. منذ مدة وهم يسعون لمحطة تليفزيونية خاصة بهم، تبث خطهم السياسي وتدر عليهم مورداً مالياً من الاعلانات. رفض رزق الخضوع، ولم يكلف نفسه حتى عناء الرد على اتصالاتهم الهاتفية - مما يفسر تكتيكهم الراهن.

الآن، وقد علم ماذا نريد منه، فهو حر في ان يرحل. توجه مدير التليفزيون الى الرئيس سركيس مباشرة وقدم استقالته، فرفضها هذا الاخير، مشيراً الى ان الوظيفة العامة تتضمن قدراً من المخاطر. لم يحتج. إلا أنه سافر الى اوروبا في عطلة طويلة، ولم يحصل بشير على المحطة الخاصة لكنه توصل الى المحطة الرسمية. عندما عاد رزق الى لبنان بعد غياب اربعة اشهر، اشار بشير بازدراء الى انه لم يقطع له راتبه كمدير طيلة غيابه الطويل.

* * *

مع مرور السنوات، كان الصراع على السلطة يحتدم بين بشير وشمعون. منذ شباط ١٩٧٦، كانت الصدامات تتكرر بين الكتائبيين والنمور، ولكن طيلة الحرب الاهلية، تمكن المسيحيون من اخفاء خلافاتهم بطريقة اكثر فعالية من الميليشيات الاسلامية والدرزية في بيروت الغربية. غالباً ما نسبت اعمال العنف المفاجئة بين المسيحيين الى بعض «الرؤوس الحامية» ورُفعت عن آل شمعون وآل الجميل كل مسؤولية مباشرة في ذلك.

في ٧ تموز (يوليو) ١٩٨٠، هاجمت قوات بشير ثكنات الشمعونيين، والمرافىء، والمكاتب ومواقع حزب الوطنيين الاحرار الاخرى. خطط بشير وضباطه، في بداية الامر، لهجوم صباحي مفاجىء حوالى الرابعة، الا ان كارثة اهدن دفعتهم للتريث حتى الثامنة والنصف، لحظة مغادرة مسؤول ميليشيا النمور، داني شمعون، منزله على شاطىء البحر في الصفرا - مارين. استمرت المعارك طيلة النهار وبعض قسم من الليل. أوقفت امام مركز التفتيش في البربارة حتى الثانية بعد الظهر. رغم الاحتياطات الكتائبية، لم ينقض ذلك اليوم بمهارة. فبسبب تأخير الهجوم حتى لا تتعرض حياة داني للخطر، قتلت ميليشيا الجميل عدداً من المارة الابرياء، الذين خرجوا لتوهم الى اعمالهم. ووفقاً لبعض الشهود، كان

المهاجمون فخورين ويطلقون الرصاص كيفما اتفق، خصوصاً في الشاليهات. في أحد تلك الاماكن، عطلت القوات اللبنانية جميع المصاعد لتمنع الناس من الهرب ثم تقدمت نحو السلالم وهي تطلق النار على كل ما يتحرك. وقد وصل بها الامر الى رمي الناس من النوافذ واصطيادها اثناء سقوطها. أحد الاشخاص كان في المسبح. عندما هجمت الميليشيا. جندلوه برصاصهم وتركوه ينزف داخل المسبح. لم يسمح لعائلته باسترداد الجثة إلا بعد يومين. كثير من النساء والاطفال قتلوا بالطريقة نفسها وسلموا الى ذويهم في الوقت نفسه.

أكد داني شمعون ان رجال بشير قتلوا خمسمئة شخص اكثرهم من المدنيين الابرياء. لم يعترف مسؤولو القوات اللبنانية، الا بأربعٍ وتسعين ضحية، بينها ثمانية عشر من مقاتليهم، وخمسة مدنيين، وكثير من الخدم الباكستانيين التعساء الذين يعملون في مرافىء حزب الوطنيين الاحرار. بعد اشهر من المجزرة الجديدة، قدر احد رجال شمعون الضحايا: «بمئة وخمسين على الاكثر» بينهم ثلاثون ماراً، خمسة واربعون باكستانياً، والباقي موزع بالتساوي تقريباً بين افراد الميليشيات.

في البداية، ذُهلت الطائفة المسيحية من حمام الدم الجديد هذا، إلا ان بشير قطف خلال اسبوع ثمرة ضربة المقامرة هذه، بفضل دعايته الماهرة. أُتهمت ميليشيا النمور بأنواع الرذالات كافة - من صالات القمار والالعاب المحظورة الى تهريب الحشيش عبر مرافئها الخمسة. (نفت القوات اللبنانية دائماً تهريب المخدرات فيما بعد لحسابها الخاص، رغم اتهام اعدائها لها بالحصول على نسبة من الارباح لقاء السماح بالتهريب...)

اقفل بشير مرافىء «النمور» الخمسة (ليعيد فتحها بعد ثلاثة اسابيع، بحجة انها تساهم في خفض غلاء المعيشة الذي يرتفع باستمرار). احد أصدقائي من سكان بيروت الشرقية، بدأ أحد لقاءاتي معه بإدانة مجزرة

بشير، التي سماها «حركة ٧ تموز التصحيحية» وفقاً للصيغة الشائعة في الشرق الاوسط للتعبير عن الانقلابات. لكنه اضاف بلهجة ملؤها الامل: «فقدت ثلاث شقق منذ ١٩٧٥: قد اتمكن الآن من الاحتفاظ بواحدة». في الواقع، تمكن بشير من اعادة النظام الى الغيتو الماروني. وبات سكان بيروت الشرقية يرون الجوانب الإيجابية في مجتمع يقوم على القانون والنظام، لا يسمح فيه الا بقليل، وحتى بلا شيء، من الانحراف عن الفكرة الرسمية.

احنى شمعون رأسه امام العاصفة. وقابل آل الجميل، امانة منه لتراثه القديم في الاستفادة من هزائمه لتحويلها فيما بعد الى انتصارات لاحقة.

سألته ذات يوم لماذا لا ينسحب من العمل السياسي، او ينضم الى معسكر المعادين لبشير.

«أتريدني ان افعل كـ«سليمان فرنجية» وافتح ذراعي للسوريين؟ انه الشيء الوحيد الذي بقيْ علي ان افعله، ونتيجته ستكون حرباً اهلية والفاً من القتلى. لكني لا اريد حتى ان احمّل ضميري مسؤولية مئة قتيل.

هل هو القرار الاصعب في حياته؟

«لا يهم» تمتم قائلا.

ذهب داني ابنه المفضل، الى الشمال، لمقابلة فرنجية، واقسم ان ينتقم ثم سافر الى الخارج متهماً بشير بأنه ليس سوى «فاشي يرغب في تأسيس ديكتاتورية». عندما الغت القوات اللبنانية زيارة صحفية للفنادق، حيث، وفقاً لداني، ذُبح العديد من المدنيين، قال هذا الاخير: «طبعا انهم لم يغسلوا الجدران من الدم بعد». (على ذلك اجاب بشير باحتقار: «ان داني سياسي جيد في لحظات هزيمته»). تتلمذ في مدارس انكليزية في لبنان، ثم في انكلترا، ابن لام نصف انكليزية، قلب داني ظهر

المجن لحليفة السابق: «مع الاسرائيليين، الذين يتكلمون الانكليزية، يدعني بشير اتحدث، ثم يعود متكتماً لمقابلتهم. عندما نكون في وضع قوي، يتحول بشير الى الاكثر خنوعاً وذلة. امام والدي، يطأطىء الرأس».

انتهى الامر ببشير الى مداهنة كميل شمعون، واحتاج الى شهرين كاملين واصرار عنيد لاحضار شمعون الى المجلس الحربي للقوات اللبنانية. قَبِل شمعون، بعد ان تعهد له بشير، عبر الوسطاء، بأن يقبض، كما في السابق حصته من عائدات المرفأ الرئيسي في ضبية. ويقال بأنه قبض ايضا مبلغاً ضخماً من المال ـ مليون دولار ـ هذه الصفقة عززت الشائعات التي اطلقت يوم ٧ تموز، عندما تأكد شمعون من سلامة ابنه داني، اتصل ببشير قائلاً: «مهما حصل، لا تلغ اجتماع اللجنة المالية» ـ التي يتم تقاسم الغنائم فيها بين الميليشيات المتنافسة.

اصبح بشير إذاً ملك الغيتو الماروني، ولكن ليس ملك المسيحيين، لان نصف هؤلاء تقريباً يعيش خارج حدود مملكته. بعد الحرب الاهلية مباشرة، اعتاد سركيس ان يشاور بيار الجميل وكميل شمعون؛ بعد ١٩٧٨ بات بشير وشمعون ايضاً؛ اما بعد «ضربة ٧ تموز» القاضية على الشمعونيين، كان بشير فقط هو الذي يتجه نحو قصر بعبدا عندما ينشد الرئيس سركيس دعم الغيتو الماروني.

لم يكن الموارنة لغاية الآن قد تمثلوا برجل واحد، او بتنظيم واحد. كما لم يمارسوا، مثل الآن، هيمنتهم على الطوائف المسيحية الاخرى. اخطاء بشير لا تحصى. ويبدو ان الاحداث التي فصلت «٧ تموز» ١٩٨٠ عن الغزو الاسرائيلي في ١٩٨٢، كانت تشكل قسماً من سيناريو حتمي يتنبأ للموارنة بالتحرير والنصر واعادة التفوق. كثير من اللبنانيين من الطوائف كافة يرفض الاعتراضات على طريقتهم العوجاء في التفكير بالقول: «إن بلدنا غير عقلاني».

في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٨٠ اضطر بشير لإهانة الجيش اللبناني حين طرد مجموعاته المكلفة بحماية ما تبقى من الميليشيا الشمعونية في عين الرمانة، الضاحية العمالية التي انطلقت منها شرارة المعارك عام ١٩٧٥؛ بهذا قوَّض ثقة المسلمين في جيش كانوا يعتبرونه كجزء لا يتجزأ من جهاز القمع الماروني. بعد شهرين، ارسل بشير قواته الى زحلة، مستهدفاً مد نفوذه الى هذه المدينة التي يغلب على طابعها السكاني الروم الكاثوليك، والتي لم تكن في يوم من الايام ضمن الفلك الماروني ـ ولا حتى الكتائبي. الا ان السوريين وجهوا ضربة قاسية للقوات اللبنانية.

لم ترفع اي من هاتين العمليتين شهرة بشير، لكنه استفاد منها لاحكام قبضته على مسيحيي الغيتو. ايقظ تكتيك بشير الهجومي، شكوك الطوائف الاخرى، لكنه كان يقول لشعبه ان الغيتو الماروني ـ المنطقة الوحيدة «المحررة» وفقاً لتعبيره ـ يعيش حالة حصار لخّص لي الاب بول خولي، راهب السريان الذين عانوا مثل الارمن من العثمانيين اثناء الحرب العالمية الاولى، التفوق الخلقي المسيحي على الشكل التالي: «اننا نكنّ كرهاً خاصاً للمسلمين»، بهذه البداية، عبّر عن حقيقة يخشى اشد المسيحيين تطرفاً الافصاح عنها علناً. «ظنوا خلال الحرب الاهلية اننا لن نصمد اسبوعين، لكننا قاتلنا مئة وعشرين مليون مسلم». استخدمت طائفة هذا الاخير وقوداً لمدافع نمور شمعون، اكثر المحاربين قسوة وفجوراً في المعسكر المسيحي، ثم تخلى عنها شمعون، ليلتقطها بشير، الا انها لم تتمكن مطلقاً من الحصول على الاوراق، ولا حتى على بطاقات الهوية التي تجعل من افرادها مواطنين لبنانيين حقيقيين. مع ذلك، كانوا شديدي التضحية امام اولئك الذين اساءوا معاملتهم. فقد كانوا اكثر ضجيجاً من المسيحيين الآخرين.

شعر كثير من المسيحيين اللبنانيين الآخرين بالابتهاج والدهشة من

قوتهم الخاصة. فهم لم يقتنعوا مسبقاً بصلابة الدولة اللبنانية التي خلّفها لهم الفرنسيون، وهم لم يقاتلوا للحصول على الاستقلال. وباستثناء قلة منهم، بات مسيحيو الغيتو الماروني متراصين خلف زعيمهم الاكثر نضالاً وجذرية. امر منطقي، اذا نظرنا اليه من الداخل، رغم ان الغيتو الماروني بدا غير واقعي لباقي اللبنانيين - بمن فيهم المسيحيون - الذين يعيشون خارج حدوده الخانقة غالباً. فهو منطقة، كتب المقاتلون على جدرانها في عام ١٩٧٥ شعارات ضد الفلسطينيين بالانكليزية وليس بالعربية، نفياً لاي ارتباط بالعالم العربي، وفي عام ١٩٧٧ خيم القلق على اساتذة الجامعة اليسوعية من رؤية بعض الميليشيات وهي تقرأ الدعاية النازية، بينما آلاف اخرى من المسيحيين تذهب الى اسرائيل لتلقي التدريب العسكري..

على احد الرفوف داخل شقة بشير الجميل في بيروت الشرقية، الى جانب مذكرات وزير الخارجية الاسرائيلي السابق ابا ايبان، كتاب بعنوان «مسيح لبنان». مؤلفه Virgil Gheorin، كاثوليكي يميني، من مواليد رومانيا. اهداء الكتاب بخط اليد، كان التالي: «الى بشير الجميل، القائد العام الكبير، والمدافع عن الامة المارونية» تجسد الدعم الكاثوليكي الآخر لبشير في الرهبان الموارنة الذين تمكنوا بدخولهم الى الكنائس والاديرة في اسرائيل التي يضمنها اتفاق الهدنة عام ١٩٤٩، من الاتصال المباشر مع الحكومة اليهودية. كان مسؤولو الكنيسة اللبنانيين المدنيين الوحيدين الذين يستطيعون اجتياز الحدود بحرية. حتى قبل تعيينه مسؤولا عاماً للرهبانيات، لم يفعل الاب بولس نعمان شيئا لاخفاء هذه العلاقات، رغم تهديدة الظريف لي ووصفي «بالخبيث» لأنني كتبت انه كان «مهندس التحالف الاسرائيلي». ادعى امامي ذات مرة، انه قال للرئيس الاسد إن بشير «ليس ابن بيار الجميل، بل ابن الظلم الذي لحق بمسيحيي الشرق الاوسط منذ قرون».

تماسك بشير بقضيته وضباطه، بالدعم الاسرائيلي المباشر.

كانت يدهم الكريمة هي التي قادت في الولايات المتحدة الجمعية الاميركية اللبنانية المؤيدة لبشير، على رأسها الفرد ماضي، والتي سرعان ما اصبحت في واشنطن اكثر تأثيراً من السفارة الرسمية. وبإيحاء من اسرائيل، جعل قسم من وسائل الاعلام الغربية من بشير نموذجاً لفضائل «العالم الحر». في ١٩٨١، وصفه جيرالدو ريفيرا، في نشرة ٢٠/٢٠ في المحطة الاميركية أ.ب.س. بمواصفات الصليبي الحديث الذي يقاتل منظمة التحرير عميلة الاتحاد السوفييتي، باسم القيم الغربية التي تتقاسمها حتماً الولايات المتحدة واسرائيل. مجلة النيويورك تايمز تأهبت لترسل الى لبنان صحافيا مستقلا - عبر غواصة اسرائيلية - لمقابلة بشير الجميل، لان اي مراسل من الصحافة الغربية في بيروت الغربية «لا يجرؤ» على ذلك، كما ادعت المجلة. حتى احدى المجلات اليسارية المعادية لآل الجميل، كمجلة «النوفيل اوبسرفاتور»، غيّرت رأيها لتجد الفضائل لدى بشير وقضيته.

اما عنده، في الغيتو الماروني، فكان بشير يتمتع بإعجاب شبه مطلق. في صيف ١٩٨٠، امضيت اسبوعاً الى جانب بشير الجميل، اختلطت بأجوائه في محاولة للتعرف اليه عن كثب. كان يصل نهار العمل بمسائه وليله. الولائم مخصصة لشكر ضباطه ورفع معنوياتهم. في احداها، انتزع احد الشعراء المعروفين تصفيق الحضور بقوله: «بلدنا ليس عربياً. سوف نغير تعاليم الإنجيل، لاننا لن ندر خدنا الآخر. نحن على استعداد للموت من اجلك يا بشير». حاولت كثيراً ان اجعله يتحدث عن نفسه، عن مصاعبه، عن علاقاته مع الاسرائيليين، ومع الاميركان، ومع السوريين. إلا انه نادراً ما أفضى بذلك. وعندما كنت ألح بقوة، كان يختبىء خلف حيادية قوله: «انت حر في تفسير الاحداث كما تشاء».

كان بشير قادراً على انتقاد اخوانه الموارنة، رغم ان شعبيته ذات قاعدة مارونية. ويعبر عن استيائه من اكتفائهم الذاتي: «رئيس الجمهورية

مارونيٌ، قائد الجيش، مدير الامن العام، الوظائف العليا، كلها كذلك للموارنة، هذه المؤسسات هدمت لبنان. قال لي ذات يوم: يعتقد اغلب الموارنة ان من الافضل ان يشغل المناصب العليا ماروني سيء بدل مسلم كفوء، لان الاول بجانبنا حتماً». الا انه كان يؤكد دائماً ان ما يريده هو وضع الماروني الكفوء في كل منصب هام.

عندما حل عام ١٩٨٢، اقنع بشير نفسه بضرورة وضع ماروني مميز في أعلى منصب في الدولة. كانت فكرة ترشيح بشير للانتخابات الرئاسية في بادىء الامر مجرد نزوة في اوساطه السياسية. ولكن عندما وعده الرئيس سركيس شخصياً بالدعم، اتخذ بشير القرار. حتماً، قد يكون سركيس على وشك مناورة تتيح له تجديد ولاية ثانية، اذا كان مخططه كذلك، كان عليه ان يبدأ بإبراز الجميل المرعب، ليخيف به الجميع، داخل لبنان وخارجه، ويكسبه بالتالي الى قضيته. الا ان سركيس، كان يشير في بعض الاحيان الى ان بشير وحده يمتلك من القوة ما يكفي للحفاظ على آخر معالم السيادة اللبنانية.

اما بشير، فكان سيداً في منطقته. لقد عزل بمهارة شقيقة الاكبر الذي بات رئيساً اسمياً لميليشياه الخاصة في المتن. وبعد ان رأى تحول العمليات التي كان يقودها على مداخل بيروت، الى قيادة بشير. على المستوى السياسي، ألح المرشح الجديد على مغادرة القوات السورية لبيروت اولاً، ثم لباقي الاراضي اللبنانية، قبل بدء حملته الانتخابية في ذلك الصيف. قليل من اللبنانيين حمله محمل الجد: فالسوريون لايزالون يشرفون على قسم كبير من الاراضي ليمنعوا بالتالي انتخابه. والاسرائيليون على درجة من الخبرة تمنع معرفة اهدافهم الحقيقية من التهديد باجتياح لبنان. الا ان ثاقبي الفكر، شعروا بأن ترشيح بشير جدي فعلاً. ميشال ابو جودة، احد المشرفين على جريدة النهار، ماروني يرفض العيش في بيروت الشرقية قال لبشير في شهر آذار: «انك موسوليني صغير، وفرنكو صغير، وهتلر صغير. لقد صممت على ان

تكون رئيساً، وخلقك ٧٥٪ من اللبنانيين بينما الآخرون يترقبون من كان مثلي، في سن الثامنة والاربعين. غير موافق، انتهى امره. فلا مكان لأمثالنا».

احتج بشير، ولكن التعددية السياسية التي اشار اليها الصحافي، خاصة داخل الغيتو الماروني لم تكن على الاطلاق جزءاً من مشاريعه. في هذه الساعة المصيرية، على الموارنة ـ المسيحيين ـ أن يرصّوا صفوفهم. تعدد الآراء يأتي فيما بعد، عندما «تتحرر» البلاد تماماً ـ أي بعد ان ينتخب بشير. أحد رجال الاعمال المسيحيين البارزين دُهِش من هذا التكتيك: «لقد اصبحوا اسياد بيروت، هؤلاء القوات اللبنانية، انهم انواع جديدة من الجيمس بوند تقتل من تشاء، وتضغط على من تشاء. ان كل ذلك ليس سينما، انها الحقيقة، او على الاقل انها الحقيقة كما نعيشها. انهم يدفعوننا للتوتر وهم ينتظرون».

شرح بشير لرجال الاعمال ما كانوا يعرفونه: عام ١٩٨٢ سيكون عاماً مضطرباً. على مر السنين اتخذوا احتياطاتهم وحولوا الغيتو الماروني إلى دولة منغلقة على نفسها، او مستقلة. حوالى المئة الف مسيحي يخرجون منه يومياً باتجاه بيروت الغربية للعمل، لكنهم يعودون اليه في المساء. لا يذهبون الى الشواطىء ولا الى الملاهي الليلية ولا الى السينما، كما كان الأمر قبل ١٩٧٥. المضاربون العقاريون اقتحموا شاطىء الغيتو الماروني الذي لم يكن قد مس سابقاً، وشيدوا فيه الشاليهات والفنادق الفخمة الواسعة. وحلّت المراكز التجارية والمكاتب والابنية السكنية محل البيوت الظريفة الماضية، بسقوفها القماش.

قدم بشير ترشيحه للرئاسة، عندما اجتاح الاسرائيليون لبنان، في حزيران ١٩٨٢. وفي الوقت الذي كانت اغلبية السكان تخشى على بقاء لبنان، كان سكان الغيتو الماروني يركزون على حملة بشير الانتخابية. واختيار ميشال المر الوزير السابق، مديراً رسمياً للعمليات، له دلالة لأنه

جمع ثروته في افريقيا، وهو شاب، ويعرف كيف يصل الى النتائج. الانتخابات النيابية تكلف دائماً مالا كثيراً، النواب الذين ينتخبون رئيس الجمهورية ذاع صيتهم بأنهم اكثر الناس ارتشاء في الشرق الاوسط. اما معرفة ثمن انتخاب بشير، فيتعلق بمن يتحدث عنه.

يؤكد خصوم رئيس مجلس النواب كامل الاسعد، الشخص الاكثر اهمية، لانه سيقرر موعد دعوة البرلمان، انه تلقى مبلغاً يفوق العشرة ملايين دولار، وان النواب المعارضين باعوا الصوت الواحد بمليون.. رسمياً، اعلن مساعدو بشير داخل القوات اللبنانية انهم انفقوا اقل بكثير مما توقعوا في بادىء الامر، لكنهم اعترفوا فيما بعد ان خزائنهم اصبحت فارغة. على كل حال يقول هؤلاء بانتصار، ان المال بذله تنظيمهم، وليس كما في السابق، وهبه اغنياء مستقلون، ينتظرون مقابلاً له. ويضيف معاونو بشير ان خصومه استعانوا بمبالغ طائلة من السعوديين والليبيين ومنظمة التحرير، ليمنعوا انتخابه.

لو عدنا الى الوراء، لكان من اليسير علينا نسبياً ان نفهم كيف توصل بشير الى الرئاسة. كان في الواقع المرشح الوحيد. لم يجرؤ احد على منافسته. انتظر شمعون اللحظة الاخيرة ليتراجع عن محاولته الخجولة، محذراً الجميع من الضغوط الاسرائيلية. حتى آخر لحظة، قلة كانوا اولئك الذين ظنوا ان بشير يمكن ان ينتصر. الزعماء المسلمون السنة الذين يختارون تقليدياً الرؤساء الموارنة كان همهم محصوراً في انقاذ بيروت الغربية التي يحاصرها الاسرائيليون، ولذا ارادوا تأجيل الانتخابات حتى ينسحب الاسرائيليون على الأقل من بعبدا، ومن بيروت الغربية وضواحيها المباشرة. فيليب حبيب، المبعوث الاميركي الخاص، بات الى جانب قضية بشير منذ اكثر من شهر، لاقتناعه بأنه الحل الوحيد الواقعي. كان يسعى كمهووس لترتيب لقاء في آخر لحظة بين هذا الاخير وبين صائب سلام، أملاً في ان يتخلى الزعيم السني عن مشروع المقاطعة الانتخابية. كان سلام ومستشاروه موقنين من قدرتهم على

اقناع واحد وثلاثين نائباً بمقاطعة الجلسة وبالتالي منع النصاب من الاكتمال. واذا لم يحقق بشير نصراً مباشراً، سيضطر للانسحاب لصالح مرشح تسوية. راجعوا لائحة النواب بدقة، اضافوا اليها الاصدقاء وتوقعوا اسقاط بشير. الا ان الرياح لم تجر كما يشتهون. فخلال عطلة الأسبوع التي سبقت الاقتراع قطع الاسرائيليون والقوات اللبنانية طرقات الخروج من بيروت الغربية، وكذلك الخطوط الهاتفية بين قطاعي العاصمة اما المطار فكان مقفلا منذ ٧ حزيران (يونيو).

... انتخب بشير، ووقف الشيخ بيار يستقبل زملاءه المهنئين. هو وباقي أحياء ١٩٤٣ وقفوا يمارسون، بإدراك تام، هاراكيري سياسية.

اتجهت مواكب المهنئين نحو بكفيا مسقط رأس الرئيس. بينهم المرموق والوضيع كالجنرال آموس يارون القائد الاسرائيلي لمنطقة بيروت، الذي اتى بزيه العسكري. كان وجوده عادياً جداً، لأن اسرائيل، في الحقيقة، شاركت في انتخاب بشير. على كل حال، منذ اشهر والعديد من المسؤولين الاسرائيليين، ابتداءً من زعيم الموساد اسحاق هوفي، يرتادون في كل المناسبات الصالونات الانيقة في بيروت الشرقية. الزعيم الدرزي اليساري وليد جنبلاط ادان انتصار «مرشح الدبابات الاسرائيلية» ووقف الزعماء السنة ضد انتخاب رئيس لبناني تم اختياره رغماً عنهم لاول مرة في تاريخ البلد. صائب سلام قال: «ان الاسس التي قام عليها لبنان تزعزعت». حتى احد السائقين الموارنة الذي اقلني من الفياضية الى بيروت لم يخف قلقه بالقول: «إن اسرائيل ارادته».

محاطاً بمجلسه الحربي، كان بشير يتابع التصويت على شاشة التليفزيون، ثم قدم الشمبانيا. «تذكر، قال الاب نعمان ممازحاً، بينما الرئيس الجديد واصدقاؤه في نشوة من الضحك، ليس امامك

سوى ست سنوات». كان مخطئاً. لم يتبق لبشير فعليا سوى ثلاثة وعشرين يوماً.

حلقت طائرتان اسرائيليتان فوق الجنازة. وزير الدفاع آرييل شارون، حضر هنيهة الى المقر العائلي في بكفيا، يتبعه رئيس الموساد الجديد لتقديم التعازي: «هذه المرة، فقدناه حقاً»، قالها شارون بالعبرية لصحافي اسرائيلي ملمحاً بذلك الى ان الاسرائيليين فقدوا افضل اتصال لبناني. لكن، كان كثير من اللبنانيين، مسيحيين ومسلمين قد اتهموا اسرائيل بموت بشير، دون الاهتمام بتصريحات بيغن بأنه تأثر حتى اعماق فؤاده. في صباح هذا الاربعاء، اجتمعت القوات اللبنانية عند آل الجميل وقررت دعم ترشيح امين للرئاسة.

الاسطورة ولدت: بعد اربعين يوماً في احتفال بذكراه في المجلس الحربي، قارنه المشاركون بالاحتفالات النازية في نورمبرغ في الثلاثينات، وجد الاب نعمان الكلمات المطلوبة: «نعرفه بشكل العاصفة، والزوبعة، والنار، والنور، قد يجسد فرد واحد جوهر شعب بأكمله وأمة بأكملها بكل قدراتها ورغباتها...

ان القوات اللبنانية درع لبنان، هي قوته وعنفوانه. لقد تركنا ليصبح اسطورة ونموذجاً».

«صعب انتخابه، يسير حكمه» هكذا وصف كريم بقرادوني انتصار بشير. «يسير انتخابه، صعب حكمه». قالها بعد وصول امين عندما تسلم هذا الاخير مهامه في ٢٣ ايلول (سبتمبر). كان اول ما فعله زيارة المجلس الحربي، حيث التزم امامه بالاستعداد للسير على خطى اخيه، وحتى «للتضحية القصوى» كما فعل بشير. الاستقبال كان بارداً. ويروى ان تحدي العسكريين له وصل الى درجة اضطرته الى احضار صولانج

زوجة بشير في صباح الانتخاب لتؤكد لهم: «إن امين هو بشير، وإن بشير هو أمين».

بدا، لأول وهلة، ان الحظ تبسم مرة اخرى لبكر العائلة. أليس هو ابن الجميل، الصبي الجميل الذكي، الذي تزوج جويس، كريمة جو «زوزو» تيان. أمين هو الذي لم يفعل شيئا في حياته سوى وراثة عدة ثروات؟ ألم ينتخب نائباً فيما بعد وهو في سن الثلاثين، أي شاب، إثر موت عمه موريس الجميل واصبح خلفاً له في منصبه؟ واليوم، في سن الاربعين اصبح امين احد مرشحي التسوية الاساسيين في نظر المسلمين رئيساً للجمهورية. الم يدخل الى الفياضية مع صائب سلام. الذي يحمل سيكاره الضخم، وكأنه آت ليقول: «لقد عادت طبقة الـ١٩٤٣ من رفاتها»؟ بريء من اي اتصال مع اسرائيل، مقتنع بضرورة التفاهم مع المسلمين، شديد الالتزام بالشؤون التجارية. كأي لبناني يحترم نفسه، بدا امين وكأنه يجسد، للوهلة الاولى، عودة الى تقاليد لبنان القديمة في ايامه المجيدة.

للاسف، لم تظهر سلطة الرئيس الجديد في بداية حكمه الا في بيروت الغربية وليس في منطقته. رفضت القوات اللبنانية التخلي عن السلاح. بعد عدة اسابيع من الضغط، انتهى الامر بإخراج ترسانة حقيقية من بيروت الشرقية لتُكدَّس في الجبال في عمق الأديرة والكنائس والاماكن الاخرى. اتخذ الشيخ بيار جانب القوات اللبنانية لدى امين، وجانب هذا الاخير لدى المجلس الحربي. احس الرئيس الجديد بالانزعاج. طلب ذات يوم من احد الاجانب الذين يعرفون لبنان جيداً: «اذهب وقل لوالدي انني اصبحت راشداً». لم يكن يثير امين، اكثر من الرفض المتشدد الذي يواجهه به المجلس الحربي، في تسليم قاتل بشير الى العدالة ليحاكم. اصر اعضاء المجلس على الاحتفاظ بحبيب طانيوس الشرتوني في معتقلهم الخاص، مما يشير الى اي مدى يذهبون

سوى ست سنوات». كان مخطئاً. لم يتبق لبشير فعليا سوى ثلاثة وعشرين يوماً.

حلقت طائرتان اسرائيليتان فوق الجنازة. وزير الدفاع آرييل شارون، حضر هنيهة الى المقر العائلي في بكفيا، يتبعه رئيس الموساد الجديد لتقديم التعازي: «هذه المرة، فقدناه حقاً»، قالها شارون بالعبرية لصحافي اسرائيلي ملمحاً بذلك الى ان الاسرائيليين فقدوا افضل اتصال لبناني. لكن، كان كثير من اللبنانيين، مسيحيين ومسلمين قد اتهموا اسرائيل بموت بشير، دون الاهتمام بتصريحات بيغن بأنه تأثر حتى اعماق فؤاده. في صباح هذا الاربعاء، اجتمعت القوات اللبنانية عند آل الجميل وقررت دعم ترشيح امين للرئاسة.

الاسطورة ولدت: بعد اربعين يوماً في احتفال بذكراه في المجلس الحربي، قارنه المشاركون بالاحتفالات النازية في نورمبرغ في الثلاثينات، وجد الاب نعمان الكلمات المطلوبة: «نعرفه بشكل العاصفة، والزوبعة، والنار، والنور، قد يجسد فرد واحد جوهر شعب بأكمله وأمة بأكملها بكل قدراتها ورغباتها...

ان القوات اللبنانية درع لبنان، هي قوته وعنفوانه. لقد تركنا ليصبح اسطورة ونموذجاً».

«صعب انتخابه، يسير حكمه» هكذا وصف كريم بقرادوني انتصار بشير. «يسير انتخابه، صعب حكمه». قالها بعد وصول امين عندما تسلم هذا الاخير مهامه في ٢٣ ايلول (سبتمبر). كان اول ما فعله زيارة المجلس الحربي، حيث التزم امامه بالاستعداد للسير على خطى اخيه، وحتى «للتضحية القصوى» كما فعل بشير. الاستقبال كان بارداً. ويروى ان تحدي العسكريين له وصل الى درجة اضطرته الى احضار صولانج

زوجة بشير في صباح الانتخاب لتؤكد لهم: «إن امين هو بشير، وإن بشير هو أمين».

بدا، لأول وهلة، ان الحظ تبسم مرة اخرى لبكر العائلة. أليس هو ابن الجميل، الصبي الجميل الذكي، الذي تزوج جويس، كريمة جو «زوزو» تيان. أمين هو الذي لم يفعل شيئا في حياته سوى وراثة عدة ثروات؟ ألم ينتخب نائباً فيما بعد وهو في سن الثلاثين، أي شاب، إثر موت عمه موريس الجميل واصبح خلفاً له في منصبه؟ واليوم، في سن الاربعين اصبح امين احد مرشحي التسوية الاساسيين في نظر المسلمين رئيساً للجمهورية. الم يدخل الى الفياضية مع صائب سلام. الذي يحمل سيكاره الضخم، وكأنه آت ليقول: «لقد عادت طبقة الـ١٩٤٣ من رفاتها»؟ بريء من اي اتصال مع اسرائيل، مقتنع بضرورة التفاهم مع المسلمين، شديد الالتزام بالشؤون التجارية. كأي لبناني يحترم نفسه، بدا امين وكأنه يجسد، للوهلة الاولى، عودة الى تقاليد لبنان القديمة في ايامه المجيدة.

للاسف، لم تظهر سلطة الرئيس الجديد في بداية حكمه الا في بيروت الغربية وليس في منطقته. رفضت القوات اللبنانية التخلي عن السلاح. بعد عدة اسابيع من الضغط، انتهى الامر بإخراج ترسانة حقيقية من بيروت الشرقية لتُكدَّس في الجبال في عمق الأديرة والكنائس والاماكن الاخرى. اتخذ الشيخ بيار جانب القوات اللبنانية لدى امين، وجانب هذا الاخير لدى المجلس الحربي. احس الرئيس الجديد بالانزعاج. طلب ذات يوم من احد الاجانب الذين يعرفون لبنان جيداً: «اذهب وقل لوالدي انني اصبحت راشداً». لم يكن يثير امين، اكثر من الرفض المتشدد الذي يواجهه به المجلس الحربي، في تسليم قاتل بشير الى العدالة ليحاكم. اصر اعضاء المجلس على الاحتفاظ بحبيب طانيوس الشرتوني في معتقلهم الخاص، مما يشير الى اي مدى يذهبون

في تحدي امين ومؤسساته. قال البعض بأن اصرار القوات على الاحتفاظ بهذا الشاب ذي الستة وعشرين عاما، يعود لاعترافه بتورط القوات اللبنانية في الجريمة: هنا نموذج حي للمنطق الأعوج الذي تعلم اللبنانيون الا يرفضوه. اذ هل يجب التصديق بأن اجهزة الامن في حركة بشير، بما عرف عنها من ادعاء، قد تراخت الى الحد الذي يسمح لقاتل بالقضاء على زعيمها في داخل المقر الرئيسي للحزب نفسه؟ لم يكن ذلك هو السؤال الوحيد. فالجميع يعرف تماماً ان الشرتوني وعائلته بأكملها كانوا اعضاء في الحزب السوري القومي الاجتماعي، الخصم المسيحي القديم للكتائب. مع ذلك، بقي الشرتوني واخته وجدّه وجدته في المبنى نفسه حيث فرع الاشرفية في الطابق الأعلى مباشرة. كان جان نادر قد طردهم من المنزل خلال الحرب الاهلية. بعد ذلك، سُمح للعائلة بالعودة الى منزلها. (يقول البعض، ان نادر غض النظر عن مخاطر هذه الوضعية، لأنه كان على علاقة مع شقيقة الشرتوني الجميلة). حمل حنق القوات اللبنانية على نفسها، على ارسال بعض المجموعات الى قرية الشرتوني في الشوف فنبشوا المقبرة وارهبوا الاهالي، وعادوا دون ان يقتلوا احدا.

كانت القوات اللبنانية محظوظة في التعامل مع قاتل كالشرتوني. لم يبدِ ذكاءً كبيراً في طريقة تنفيذ الجريمة. فقد علم بعد ان وضع جهاز التفجير ان شقيقته وعائلة احد اصدقائه لا يزالون في المبنى. اتصل هاتفياً بشقيقته وطلب منها ان توافيه الى «مستديرة ساسين» بأقصى سرعة، ودون تأخير. نفذت الطلب. وكم كانت مضطربة حين علمت انها نجت من الموت، وان الانفجار حصل بعد دقائق على خروجها. لم يكن ذلك حال الآخرين. فقد رتب الشرتوني قصة لابلاغها الى عائلة صديقه، ومفادها ان ابنهم في المستشفى وعليهم الحضور جميعاً لرؤيته. لسوء حظ هؤلاء رد الصديق نفسه على المكالمة، وخشية التعرف على صوته

اقفل الشرتوني الخط دون ان يقول شيئا. قضت العائلة نحبها في الوقت نفسه مع بشير.

ألقي القبض على الشرتوني، إثر الكلام الطائش لشقيقته. رفض في البداية الاستجوابات. بعد أربعة أيام من الاعتقال في بكفيا تمكن من الهرب، الا انه وقع في الاسر مجدداً في «جل الديب» الضاحية الساحلية. اعترف الشرتوني، وسجلت هذه الاعترافات على كاسيت فيديو، ووعدت القوات اللبنانية بنقل هذه البراهين الى العدالة.

قال الشرتوني بأن هدفه من الانفجار كان تخويف بشير وليس قتله. كما شرح ذلك لسائليه. اراد ان يُفهم الرئيس الجديد انه ضعيف كأي لبناني آخر. وعندما انتقل البحث من الامور التقنية الى الامور الاخرى، كرر الشرتوني اكثر من مرة عدم معرفته بمن يقف فعلياً خلف الجريمة. اثناء متابعة دراسته في باريس عام ١٩٧٩ انتسب الى صفوف الحزب السوري القومي الاجتماعي. اما مواد التفجير فقدمها له احد مسؤولي الحزب العسكريين.

اتهمت القوات اللبنانية منظمة التحرير، وسوريا (او فرنجية) بالرغبة في التخلص من بشير.

حين زرت فرنجية غداة تشييع بشير، اكد لي: «للاسف، لست مسؤولاً عن هذا العمل الثأري» ووجهه يشع بفرح لا يخفى. «لقد حاولنا منذ ١٩٧٨، لكن الحظ لم يحالفنا».

الآن وقد مات بشير، فهل تساويتم، وعفيتم عن امين والشيخ بيار؟ «مطلقاً» قال لي، قبل ان يشدد على ضرورة الثأر الشخصي. في نظر سليمان موت بشير غير محسوب.

«الله كبير، هذا كل ما استطيع قوله، لأن تقاليدنا تجبرنا على احترام الموتى». وتأكيدا لبراءته قال لي انه عشية الانفجار،توجه الى النوم متمتماً

«لابأس» بعد ان اعلن الراديو ان بشير خرج حياً من بين الانقاض. انها ابنته، لميا، هي التي حملت اليه «المفاجأة اللذيذة».

«استيقظت بعد منتصف الليل على اصوات الرصاص، انها عادة هنا، للتعبير عن الفرح، او لإحياء المناسبات الكبيرة. ولكن عندما طبعت لميا على وجهي قبلة عميقة ودافئة، ادركت ان بشيرا قد مات». يردد بعض اللبنانيين باغتباط اتصال سونيا الهاتفي، بصولانج لتعزيتها: «انني جد مسرورة لموت بشير وآسفة لأننا ليس نحن من فعل ذلك. سيكون هناك ارامل كثيرة حزينة حين نصل».

الفلسطينيون من جهتهم، حاولوا البرهان على ان المسؤول عن موت بشير هم الاسرائيليون انفسهم واصدقاؤهم المسيحيون. بعض المسيحيين اللبنانيين يوافقونهم الرأي. «كل ضباط بشير كانوا على الموجة الاسرائيلية» قال لي احد رجال الاعمال المسيحيين الذين يعرفون طريقة تفكيرهم جيداً. ووفقاً لذلك، لم تكن اهدافهم معقدة. فقد استاء الاسرائيليون من استقلال بشير الجديد، ومن تودده للاميركان، ومن محاولته ليصبح زعيما وطنياً كبيراً على حساب تحالفه معهم. وبدلاً من تصفيته بأنفسهم شجعوا ميليشياته على التخلص منه. حين تحدث بشير عن حل الميليشيا لتكوين جيش وطني قوامه ستون ألفاً (حتى المئة ألف رجل)، اصدر حكم الاعدام على نفسه. وجهت القوات اللبنانية ضربتها لتحمي نفسها.

ثغرة هذا التحليل، هي ان أحداً ما كان يظن ان بشير سيحل ميليشياه فعلياً. هذه الاخيرة كانت ستبقى حتماً، وتتحول الى حرس خاص. اذن لن تربح الميليشيات شيئا اذا قضت عليه. وكذلك الامر بالنسبة الى الاسرائيليين. صحيح ان بيغن أبدى غضباً حقيقياً في لقائه مع بشير في نهاريا، لكن شارون قدم فيما بعد للرئيس الجديد اعتذارات رسمية عن حنق رئيس الحكومة. ظاهرياً، على الأقل، وجد الاسرائيليون في

شخص بشير استثماراً مفيداً، ورأوا ان العلاقات المستقبلية بين بلديهما ستكون علاقات خاصة، حتى دون توقيع معاهدة سلام رسمية. ولو ارادت اسرائيل سلوك السبيل الآخر، اضعاف وتقسيم لبنان، فليس لبشير القدرة على منعهم، لان اسرائيل ستُتهم دون تردد بأنها خلف تصفيته بعد اشهر من استلامه السلطة إذا تبين أنه خطر عليها. على كل حال كان امامهم الوقت الكافي لاخضاع بشير. إذاً لماذا فقدان الامل وتصفيته حتى قبل ان يمارس صلاحياته واستعجال وصول اخيه الذي لا يكنّ لهم سوى الحذر؟

ما بدا اكثر معقولية في هذه اللحظة، ان الاسرائيليين لم يبذلوا كثيراً من الجهد لاقناع اصدقائهم داخل القوات اللبنانية بالمشاركة في عملية شاتيلا. منذ اسبوع والمخابرات الاسرائيلية تحذر اللبنانيين من نوايا الفلسطينيين لاغتيال بشير. والآن لقد مات. ووفقاً للنظرة التبسيطية للميليشيات المسيحية، لا بد وان يكون للفلسطينيين ضلع في موته. اثر التهكم الاسرائيلي لرفضهم المشاركة في المعارك، وقع اللبنانيون في الفخ. حرموا من بشير قائدهم، فبدوا اغبياء، محدودين وطيّعين. عندما سأل احد مستشاري الكتائب السياسيين، الذين لعبوا دوراً هاماً في انتخاب امين، لِمَ لَمْ يُبلَّغ عن الهجوم على شاتيلا، اجابه فادي فرام قائد القوات اللبنانية: «أوه، نعلم ان العمل كان يحيط بك من كل جانب، ولم نشأ ان نزعجك».

بعد سنة، لم يكن المسؤولون عن موت بشير وعن مجزرة شاتيلا قد عوقبوا. قد يدفع الشرتوني حياته على الارجح ثمناً، ولكن من غير المؤكد ان قضاته سيتوصلون الى معرفة المحرضين الحقيقيين على هذا القتل. اما بالنسبة الى مسؤولي المذبحة، فإنهم سينجون حتماً من اي قصاص، رغم معرفة الكثير منهم بين القوات اللبنانية: جو اده، ميشال زوين، مارون مشعلاني، ايلي حبيقة... ان عقاب هؤلاء الحقيقي هو



السقوط الاميركي

الانقسام الذي حصل في صفوفهم اثر غياب قائد حقيقي اكثر منه بسبب الصراع بين اجنحة متنافسة، لانه رغم ميل اللبنانيين الطبيعي الى الفردية والتناحر، تمكن بشير من الامساك بتنظيمه. بعد موته فقط اصبح بديهياً ان تظن كل واحدة من المجموعات المختلفة التي تشكل القوات اللبنانية: السياسيون المتنافسون، امراء الحرب التابعون، المجموعات الاقتصادية، والرهبان ان بشير كان «لها وحدها». مع غيابه، لا تزال القوات قوية، وهي كذلك لتحدي امين والدولة. اخيراً في شباط (فبراير) ١٩٨٣، تمكن امين بعد مراوغة شديدة من القوات، من ادخال الجيش الى بيروت الشرقية والضواحي المسيحية. الا ان الصفحات الاخيرة في التاريخ الماروني تبين حتمية مواجهات جديدة. على غرار بشير في ١٩٨٠، لم تسمح الميليشيات بإغلاق المرافىء او بإيقاف الرسوم الخاصة. بعد ست سنوات، مارست القوات اللبنانية مع امين، ما مارسه بشير ضد سركيس.

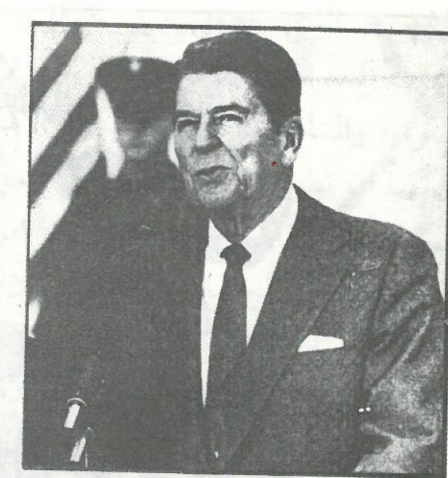
السياسي الكتائبي الذي كان يحدثني في بداية هذا الفصل عن الانقلاب الممتد لحزبه، توصل الى استنتاج قاتم: «أتعلم، اذا اراد قاتلو بشير نحر لبنان حقاً فما عليهم سوى التخلص من الشيخ بيار. لا احد غيره الآن، يمنع لبنان من التمزق إرباً».



السقوط الاميركي

الانقسام الذي حصل في صفوفهم اثر غياب قائد حقيقي اكثر منه بسبب الصراع بين اجنحة متنافسة، لانه رغم ميل اللبنانيين الطبيعي الى الفردية والتناحر، تمكن بشير من الامساك بتنظيمه. بعد موته فقط اصبح بديهياً ان تظن كل واحدة من المجموعات المختلفة التي تشكل القوات اللبنانية: السياسيون المتنافسون، امراء الحرب التابعون، المجموعات الاقتصادية، والرهبان ان بشير كان «لها وحدها». مع غيابه، لا تزال القوات قوية، وهي كذلك لتحدي امين والدولة. اخيراً في شباط (فبراير) ١٩٨٣، تمكن امين بعد مراوغة شديدة من القوات، من ادخال الجيش الى بيروت الشرقية والضواحي المسيحية. الا ان الصفحات الاخيرة في التاريخ الماروني تبين حتمية مواجهات جديدة. على غرار بشير في ١٩٨٠، لم تسمح الميليشيات باغلاق المرافىء او بايقاف الرسوم الخاصة. بعد ست سنوات، مارست القوات اللبنانية مع امين، ما مارسه بشير ضد سركيس.

السياسي الكتائبي الذي كان يحدثني في بداية هذا الفصل عن الانقلاب الممتد لحزبه، توصل الى استنتاج قاتم: «أتعلم، اذا اراد قاتلو بشير نحر لبنان حقاً فما عليهم سوى التخلص من الشيخ بيار. لا احد غيره الآن، يمنع لبنان من التمزق إرباً».

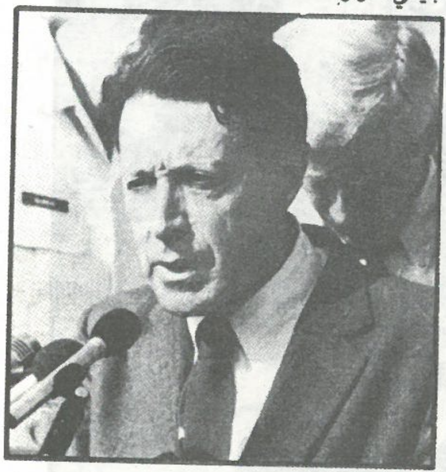


رونالد ريغان

جيمي كارتر



هنري كيسنجر



كاسبار واينبرغر



الكسندر هيغ



جون غونتردين

الفظاظة الاميركية

«الكلاب، الكلاب!» صرخت بصوت مفاجىء وحاد، يشوبه احساس بالاهانة والاذلال، حين عادت بذاكرتها الى الوراء. سونيا راسي الابنة الثانية لرئيس الجمهورية السابق اعتدلت في كرسيها قائلة: «أوتعلم؟ الرئيس فرنجية يصل الى مطار كينيدي عام ١٩٧٤، ليتحدث باسم الجامعة العربية، ويقدم القضية الفلسطينية وياسر عرفات الى الامم المتحدة فما الذي يحدث؟».

كانت ترتجف من الغضب، وانا الذي بكل براءة، طلب اليها ان تغوص في الماضي، ان تتذكر علاقات والدها مع الولايات المتحدة. «ما الذي حدث؟ لقد مرّروا حقائب الوفد الرئاسي امام الكلاب لتشمها. ليس مرة واحدة ولا مرتين، بل ثلاث!» وعاد صوتها يعلو بحنق. «عندما علم الرئيس بذلك اوشك ان يصاب بنوبة، اسمح لي ان اقول لك ذلك. تخيل! اثنان من رؤساء الجمهورية السابقين، ثلاثة رؤساء مجلس سابقين، وأربعة رؤساء حكومة سابقين - النخبة السياسية اللبنانية بأكملها ممثلة لتسعة عشر دولة في الجامعة العربية. الكلاب، الكلاب!» لم تكن بحاجة لمزيد من الشرح، فمن يعرف العرب يدرك الى اي مدى يعتبرون الكلب حيوانا مقرفا وحول هذه النقطة الموازنة عرب حقيقيون.

لم يعد من الممكن التفكير في تهدئة او مقاطعة سونيا راسي، الآن وقد اندفعت في تذكر ذلك اليوم في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٧٤ في نيويورك. استخدم رجال مكتب المخدرات الكلاب للتأكد من ان

حقائب وفد فرنجية لا تحتوي حشيشا. (تصدير سري، حتماً، لكنه الاهم في لبنان، ويدرّ وفقاً للتقديرات في ذلك الوقت، اكثر من ثلاثمئة مليون دولار على طوني، ابن الرئيس). افادت إحدى المعلومات السرية التي تلقاها مسؤولو المخدرات في سفارة الولايات المتحدة في بيروت ان هناك مشروعا لتهريب الحشيش على الطائرة الرئاسية. وقد ابلغوا هذه المعلومات وفقاً للروتين الاداري الى مكتب المخدرات الخطيرة في واشنطن. انذر ماك غودلي، سفير الولايات المتحدة في لبنان، سكرتير فرنجية الخاص بطرس ديب الذي وعده بأن اجهزة الامن اللبنانية ستفحص حقائب الوفد الرئاسي قبل شحنها على متن الطائرة. في الواقع، ودون معرفة فرنجية، اشرف ممثلون للسفارة على هذا الفحص. أرسل على أثره السفير برقيةً الى واشنطن يبلغهم فيها بما حصل وبلا ضرورة الالحاح، لكن الموظف المكلف بالشؤون اللبنانية في ادارة الدولة كان نائماً في مكتبه ونسي ابلاغ مكتب المخدرات الخطيرة بالامر.

رفض فرنجية اعتذارات الرئيس فورد اللفظية. واشترط لعودة السفير الاميركي الى بيروت، ان يتلقى بنفسه اعتذاراً خطياً رسميا وكان مقتنعاً اشد الاقتناع بأن حكومة الولايات المتحدة تآمرت عليه.

«لا تقل لي انها صدفة او انه خطأ بيروقراطي، تابعت سونيا، لماذا يُحمَّل موظف بسيط وزر الأمر؟ قالتها بلهجة من يحتقر هذا الأسلوب في التملص من المسؤوليات.

«ولكن الاخطاء، اشياء تحصل، قلت معترضاً. والاجانب فقط، يظنون ان كل شيء في الولايات المتحدة يسير وكأنه على عجلات». عبد الله الراسي، زوج سونيا، تدخل بغية مساعدتي: «حتى لو كان الحشيش في الطائرة، لم يكن عليهم ان يتدخلوا - منطق دولة». استمرت سونيا في سرد «الاخطاء» الاميركية الاخرى. «ارسل غودلي الى واشنطن تقارير

يومية تدفع الى الظن أن مسيحيي لبنان مجموعة منحطين على غرار العصبة الفييتنامية. ان الرئيس غير محبوب، ان العائلة تثرى، ان طوني يربح الملايين من وزارته» قالت ذلك، تكراراً بالضبط، لما يقوله كثير من اللبنانيين (مسيحيين ومسلمين) حول ولاية والدها. «ان غودلي هو الذي سوّد صفحة الرئيس بنقله لواشنطن ان النخبة المسيحية تجمع الثروة، بينما الشعب يموت جوعاً». فجأة، عادت الى ما يشغلها حقيقة ـ الكلاب. «انها إهانة، ليس للرئيس فقط، بل للجامعة العربية، لم يوجهها غودلي وحده بل حكومة فورد بأسرها».

كان من الأصح القول، بأن حادث مطار كينيدي هو الاكثر غرابة بين سلسلة سوء التفاهم التي رافقت منذ خمسة وعشرين عاماً العلاقات الثنائية الاميركية ـ اللبنانية. متحاوران يتحدثان لغة غريبة عنهما ويدّعي كل واحد منهما انه يجيدها افضل مما يفعل الآخر. الزعماء المسيحيون والاميركان تاهوا بخرق في المأساة. في كل مرحلة جديدة كان الاميركيون يقتنعون بأن رسالتهم وصلت تماماً. الزعماء اللبنانيون، من جهتهم، لا يحبون ما يسمعون ويرفضون تصديقه مفضلين اعادة صياغة الحديث كما يحلو لهم. لم يدرك اي من الطرفين الهوة التي تفصله عن الآخر قبل فوات الأوان. مُهانة ومحاصرة، بعد سلسلة من الصدمات ابتداء من فييتنام حتى ووترغيت، لم تكن حكومة الولايات المتحدة، في السبعينات في مناخ يسمح لها بمغامرة من النوع الذي يحلم به مسيحيو لبنان. الا ان ذلك لم يمنع هؤلاء مطلقاً من القناعة المباشرة ـ الى درجة رفضهم لتبديل رأيهم ـ بأن الاميركان وافقوا نهائياً على مسؤولية حماية بلدهم، مما يجعل منهم آخر ممثلين في سلسلة طويلة من الحماة الغربيين تعود لايام الصليبيين. اخيراً، أرهق حوار الطرشان هذا، الولايات المتحدة فنفضت يدها من لبنان ومما يمت اليه بصلة دون ان تكلف نفسها عناء الاعلان الرسمي عن ذلك. على أي حال، لم يُبدِ اي من الرجال المهمين في واشنطن اقل اهتمام بهذا الموضوع رغم بعض

التصريحات الشكلية، الواعدة بدعم استقلال وسيادة ووحدة اراضي لبنان. عندما ادركت الولايات المتحدة أهمية الرهان، كان الوقت متأخراً. وبسبب عجزها، لم تفعل شيئا لمنع التدخل في لبنان. بعض اللبنانيين يذهب الى حد التأكيد بأن الولايات المتحدة هي التي رتبت توزيع الحصص.

لو كان لوالدك افضل العلاقات مع ماك غودلي، سألت سونيا مجدداً، فهل كانت الولايات المتحدة ستساهم في وضع حد للعنف؟ كان من الافضل ان ابقى ساكتا. «ليس نحن من يعادي الولايات المتحدة. اجابت قائلة. اذا كان الوضع في لبنان على ما هو عليه، فذلك خطأ السياسة الاميركية. هذه هي الحقيقة كما نراها وسنظل نعتقد بها، حتى يتبين العكس».

في لبنان، لا تحتاج رسالة سونيا الراسي الرمزية لأي فك لرموزها. لاننا في الواقع، نجد في هذا التصريح إرث الموارنة العُظامي: فقد طردوا من سوريا بواسطة مسيحيين آخرين (تفصيل يفضلون التكتم عليه ليؤكدوا على الاضطهادات الاسطورية التي مارسها المسلمون ضدهم طيلة الالف وثلاثمئة سنة الماضية منذ الانعزال الذي فرضوه على انفسهم في الجبال)، فخورون بصيتهم الاستقلالي، اصبح الموارنة اسياداً في فن استغلال جميع الامكانات بصراحة ملائكية. يتقاسمون أيضاً مع باقي اللبنانيين رغبة حتمية في التعلق بالاجانب، خصوصاً بالغربيين. المسلمون من جهتهم، يتجهون حتماً نحو العالم العربي ليؤمنوا دعماً يوازي الحضور الغربي لدى المسيحيين. رغم طريقتها في التعبير، كانت سونيا تحاول جاهدة صياغة نص الايمان الماروني الذي يؤكد ان الولايات المتحدة ملزمة اخلاقيا بمساعدة مسيحيي لبنان مهما حصل. هل اصبح لبنان «حاملة طائرات ـ اقتصادية» للولايات المتحدة في الشرق الاوسط، تماماً، كما تُعتبر جارته اسرائيل «حاملة طائرات ـ سياسية»؟ اتجهت الولايات المتحدة التي كانت تفتقد الى المصالح الحيوية في

المشرق، بعد هذه الحرب، الى استعادة ما تخلت عنه بريطانيا وفرنسا خصوصاً بعد حملة السويس المخجلة من اوضاع اقتصادية وسياسية وثقافية. أليس طبيعياً إذاً رؤية الاميركان يحملون الشعلة التي تخلى عنها حلفاؤها؟. منذ ذلك الوقت والقوى الاجنبية تشتري الانتخابات اللبنانية، تماماً، كما كانت تفعل منذ قرون لبث نفوذها بألف طريقة وطريقة. ولماذا اللغط حول موضوع كهذا؟ ألم يصرح وليم كولبي مدير المخابرات المركزية الاميركية عام ١٩٧٦، بأن وكالته قدمت في الخمسينات سلاحاً ومالاً الى الكتائب والى حزب الطاشناق الارمني؟ هذا النشاط المخابراتي الاميركي كان ثمرة سياسة الحرب الباردة التي تتلخص في استخدام اقليات موالية للغرب في الصراع ضد الشيوعية. يعتبر مسيحيو لبنان انفسهم جزءاً من «العالم الحر». هذه الجملة لا تزال تتردد على السنتهم دون اي خجل، حتى بعد ان اتخذت في الولايات المتحدة معنى تحقيرياً الى حد ما.

في الخمسينات كان نشاط المخابرات الاميركية نشاطاً عالمياً، قال لي بعد عدة سنوات احد السفراء الاميركيين السابقين في هذا البلد: إننا نبتاع الناس بسعر الجملة. لن اندهش اذا عرفت ان جميع الشخصيات الهامة في لبنان تقبض من الـ«سي. آي. إي».

هذا ما كتبه ايضاً «ويلبر كرين ايفلند» احد عملاء المخابرات السابقين في الشرق الاوسط في كتابه Ropes of Sand الذي نشر عام ١٩٨٠، رغم جهود اجهزة الاستخبارات الاميركية لتأجيل توزيعه. يتجاوز ايفلند تصريحات الديبلوماسي السابق حين يتعلق الامر بتوكيد ما يعرفه اطفال لبنان كافة. بحجة الصراع ضد الشيوعية والقومية العربية، موّلت المخابرات الاميركية الانتخابات النيابية اللبنانية عام ١٩٥٧. ويقول ايفلند إن سفير الولايات المتحدة آنذاك رونالد هيث، أصرّ على تمويل تام لحملة مواجهة سبعة سياسيين اقوياء استقالوا من مناصبهم احتجاجاً على سياسة الرئيس شمعون الموالية للاميركان. كما ألح هيث على ان

يتقدم شارل مالك وزير الخارجية، ذو التوجهات الاميركية، الى هذه الانتخابات. ووفقاً لأيفلند كلّفت هذه العمليةُ وحدها ٢٥ الف دولار مصاريف الحملة الانتخابية، اضافة الى ٢٥ الفا اخرى طلبها شمعون للتعويض على المرشح المنافس للمرشح الاميركي. طيلة الحملة الانتخابية كان ايفلند «يذهب بانتظام الى القصر الرئاسي يتأبط حقيبة ملأى بالليرات اللبنانية ويعود الى السفارة مساءً لتملأها المخابرات من جديد. «وهكذا باتت سيارتي «الدوزوتو» الذهبية ذات السطح الابيض تقف باستمرار امام القصر الرئاسي، لذا اقترحت على شمعون ان يرسل وسيطا من طرفه القاه بعيدا عن الانظار. لكن الرئيس أصرّ على ان يتولى الامر شخصياً في كل مرة».

كما كان متوقعاً، فاز مرشحو شمعون فوزاً ساحقاً. وتوقع خصومه ان يحاول إثر هذا الفوز تجديد ولايته، فلجأوا الى المصريين والسوريين. في آذار (مارس) ١٩٥٨، أدت الأزمة الى حرب اهلية. في تموز (يوليو) نزل المارينز في لبنان، لا لمساعدة شمعون بل لدعم الانظمة العربية الاخرى الموالية للغرب في الشرق الاوسط، التي زعزعها الانقلاب العسكري الذي اطاح بالملكية العراقية، محمية بريطانيا. العراق مرادف للنفط والولايات المتحدة تخشى امتداد الثورات الى العالم العربي، فتتهدد بذلك المصالح النفطية الغربية في هذا القسم من العالم. في نظر الاميركيين، لبنان موضوع ثانوي.

وضع وجود المارينز الاميركيين في لبنان حداً للمعارك وسمح لشمعون باستمرار ولايته حتى النهاية. إلا أنه كان شديد الخيبة لتنصيب فؤاد شهاب قائد الجيش خلفاً له، الذي اتهمه شمعون برفض استخدام قواته لقمع المتمردين. بمباركة اميركية، تصالح شهاب مع مصر، وتحلّل من الاتجاهات المتشددة المؤيدة للغرب التي كانت سمة الحكم السابق، وتبنى سياسة خارجية محايدة اعتبرها اكثر ملاءمة لوضع

الدولة اللبنانية، هذا البلد النصف مسيحي ـ النصف اسلامي في وسط العالم العربي.

في نهاية الصيف، غادر المارينز الاربعة عشر الفاً والتحقوا بسفن الاسطول السادس. يعبر التقرير الاميركي الرسمي عن هذه العملية عن رضا تام لمجرد الخروج بأقل ضرر ممكن من هذه الورطة التي صنعوها الى حد ما بأنفسهم. الا ان اي شخص تجشم عناء الغوص في عمق الامور ما كان سيرضى تماماً عما يراه: «ادرك اختصاصيو الشرق الاوسط ان شمعون خدعهم، وفقاً لاحد الديبلوماسيين الاميركيين العاملين في الشرق الاوسط في ذلك الوقت. كانت ١٩٥٨ ثورة لبنانية حقيقية. «بإرسالنا للمارينز، منعنا تطوره الطبيعي الذي يمر عبر سلطة سياسية متنامية لصالح المسلمين». لم تكن واشنطن في اجواء تسمح لها بتشجيع الثورات ـ ولا حتى التطورات ـ حتى في بلد شديد الموالاة للغرب كلبنان. تماماً مثلما وقفت عشرين سنة فيما بعد، بعد حرب فييتنام، ضد التدخلات في الخارج، تمنعت الولايات المتحدة بعد ١٩٥٨ عن الاهتمام بما تعتبره قذارة وتعقيداًللمشكلة الداخلية اللبنانية: «في حقيقة الامر، قلة من افراد الادارة الاميركية يهتمون حقيقة بلبنان، عدا المبعوثين، وبعض خبراء البترول، قالها لي احد مسؤولي المخابرات الاميركية السابقين. ان للولايات المتحدة سياسة تجاه اسرائيل، وسياسة نفطية، وسياسة تجاه العرب المتطرفين، وأخرى تجاه العرب المحافظين، وسياسة تجاه الاتحاد السوفياتي في هذه المنطقة من العالم، ولكن ليس لديها سياسة لبنانية. السياسة اللبنانية هي ما يتبقى بعد انجاز تلك السياسات».

ما يضني انه لم تكن هناك وسيلة لافهام اللبنانيين الرسالة الاميركية. هذا النوع من التشويه الثقافي الذي يكدرهم، سوف يصيب العلاقات الاميركية اللبنانية بالتسمم طيلة السنوات الخمس وعشرين المقبلة. كان يكفي ان يُبدي احد الموظفين الاميركيين تفهما حتى يظنه اللبنانيون، خطأ،

الى جانب قضيتهم. هذا المرض، عرف دائماً في العالم العربي، لكنه في لبنان يتخذ منحى مزمن وحاد. «اللبنانيون، خاصة الموارنة الذين يقبضون على السلطة، يظنون ان حركة حاجب العين اثناء الغداء، او هز كتفي السفير، يعني بالنسبة لهم سياسة ما، قالها لي احد الاختصاصيين الاميركيين في الشرق الاوسط. ثم أردف: لا اظن ان الاميركيين شاركوا جدياً في ما يعتبره اللبنانيون حواراً. على مر السنين، تمكن سياسيوهم من اللقاء بمسؤولين. عندنا على مختلف المستويات. ولكن ذلك لم يكن اكثر من لياقة. استقبلناهم في واشنطن، كالكثير من السياسيين الاجانب الذين يبحثون عن اعتراف رسمي اميركي بهم لكي يُدهشوا المواطنين في بلدهم. عاملناهم بتهذيب فائق، لكن قضاياهم، لم تلق الا اجوبة عامة وعادية».

في الستينات، اصبحت السفارة الاميركية في بيروت كاراجاً حقيقياً. فبعد الانتصار الاسرائيلي في حرب الايام الستة عام ١٩٦٧، قطعت الدول العربية الرئيسية علاقاتها الدبلوماسية مع واشنطن. ارادوا بذلك ان يعبروا عن الغضب الذي اثاره فيهم الدعم الاميركي لإسرائيل، لكن موقفهم هذا يعكس مذلتهم وعجزهم. الا ان لبنان، لم يحذو حذو العرب الآخرين، لذا بات على السفارة في بيروت ان تتحمل مسؤوليات اقليمية، وتلاحق ما يجري في انحاء العالم العربي كافة. عاود مسؤولو السياسة الخارجية الاهتمام بلبنان ـ ولكن ليس باللبنانيين. كان الفلسطينيون هم الذين يُدهشون واشنطن. لقد إستفادوا من هزيمة الانظمة العربية ليخطفوا الابصار بدلاً منها. الاهتمام الاميركي المفاجىء بالفلسطينيين يعود للارهاب الذي استخدمه هؤلاء لجذب الاهتمام العالمي الى قضيتهم المنسية منذ زمن طويل. اصبح الفلسطينيون احدى القوى الدينامية في الشرق الاوسط القادرة على بلبلة الوضع الثابت، وحتى على تفجير يرغم البحث عن حل.

كانت اتفاقية القاهرة في تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ عام ١٩٦٩،

بين منظمة التحرير والدولة اللبنانية، برعاية ناصر، بداية مرحلة اللاعودة للسيادة اللبنانية، واعتراف رسمي بوجود دولة ضمن الدولة. . وافق جميع النواب على الاتفاق، باستثناء واحد (ريمون اده).

لم يرغب مسيحيو لبنان مطلقاً في جيش وطني حقيقي لأنهم تجار ممتازون واحفاد مرموقون للفينيقيين كما يزعمون. فهم لا يريدون دفع تكاليفه. ولا يرغبون في اثارة اسرائيل ايضا، ولا بنمو قوة مسلحة قد تقوم بانقلاب يوما ما، كما حصل مع الكثيرين في الدول المجاورة. كان عليهم ان يتحملوا نتائج هذا الرفض.

في ١٩٧٣، اثر اغتيال سفير الولايات المتحدة في السودان على يد مجموعة فلسطينية، تعزز الاقتناع لدى الاسرائيليين والاميركيين، بأن مخاوفهم ومصالحهم وسياساتهم تتطابق حول كل نقطة عندما يتعلق الامر بالفدائيين والارهابيين الفلسطينيين. هذه السياسة ـ التركيز على الفلسطينيين ـ اثارت الندم الاسرائيلي فيما بعد. فالتحقيق الرسمي الذي أمر به لمعرفة لِمَ لَمْ تتنبأ المخابرات الاسرائيلية بحرب العبور في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣، نَسَب الثغرة الى الهاجس الذي استولى على الموساد لمكافحة الفلسطينيين في العالم اجمع، على حساب التنبّه للعدوين الاساسيين، مصر وسوريا. ويؤكد المسؤولون الاسرائيليون اليوم، ان التهديد العسكري الحقيقي والوحيد ضدهم، هو صراع يشارك فيه جيش او اكثر من الجيوش التقليدية، وليس الفلسطينيون.

عام ١٩٧٠ زار لبنان جوزف سيسكو نائب سكرتير الدولة لشؤون الشرق الاوسط والجنوب الآسيوي، مرافقاً وليم روجرز سكرتير الدولة. كانت انطباعاتهما عن هذه الزيارة ان لبنان لا يمتلك اي قوة داخلية حقيقية لفرض القرارات الحكومية. فأضافوا الى قلق اللبنانيين قلقاً من وضع الدولة ضمن الدولة الذي يعيشه الفلسطينيون. في السنوات اللاحقة، شجعت واشنطن حكومة الرئيس فرنجية في الضغط على الفلسطينيين

قبل فوات الاوان، وبات الحديث عن «اردن» جديدة في لبنان مدار الكوكتيلات اليومية في بيروت، كذلك الامر، داخل السفارة الاميركية، في لبنان. كل ذلك اشارة الى المواجهة بين الفلسطينيين والملك حسين التي خرج منها هذا الاخير منتصراً في (١٩٧٠ و١٩٧١).

لحظة المواجهة أتت، ايار ١٩٧٣. غارة اسرائيلية في قلب بيروت واغتيال ثلاثة مسؤولين فلسطينيين من دون أي مقاومة من ثكنة الجيش اللبنانية القريبة من مكان العملية. رئيس الحكومة صائب سلام طالب بإقالة قائد الجيش. ثم استقال هو نفسه، عندما رفض فرنجية تحقيق رغبته. عزز ثبات الجيش ظن المسلمين وحذرهم من موافقة القيادات المسيحية الضمنية على الضربة الاسرائيلية. اخيراً، بعد ان خطف الفدائيون اربعة جنود لبنانيين، امر فرنجية الجنود الخمسة عشر الفاً بالتحرك. تجمعوا في ثكنة «بئر حسن» قرب مخيم اللاجئين في صبرا، جنوب بيروت. «انها المرة الاولى والوحيدة في حياتي، التي شاهدت فيها فعالية العسكريين اللبنانيين». قالها احد الدبلوماسيين الاميركيين.

المفاجأة، ان الهجوم المتوقع في ساعات الصباح الاولى، لم يبدأ فعلياً الا بعد الظهر. في صباح اليوم التالي حصلت هدنة وبقي الوضع على ما هو عليه، رغم بعض المناوشات في الايام اللاحقة. في السفارة الاميركية، قيل بأن آخر فرصة لسحق الفدائيين قد ولت. وان الوقت لـ«عمان» جديدة في لبنان بات وشيكاً. الشائعات التي سرت في بيروت تؤكد بأن زوجة رئيس الحكومة امين الحافظ، المؤيدة للفلسطينيين، اقنعته بعدم التشدد. بينما يذهب آخرون الى القول إن الرئيس فرنجية لم يرغب جدياً في تصفية الفدائيين، بل إخافتهم فقط. وفقاً لهذه النظرية، كان هدف فرنجية الحقيقي امتحان المسلمين في الجيش اللبناني: فالقصف الوحيد لمواقع منظمة التحرير قام به ضباط مسلمون، وكذلك

كان معظم الطيارين مسلمين. هكذا، حصل الامتحان: فالجيش ذو القيادة المسيحية يمكنه الاعتماد على عناصره المسلمين.

مهما كانت صحة هذا الافتراض، فان المعسكرين استخلصا منه نتائج مشابهة. فرنجية، الذي بدأ منذ ١٩٦٩ بإعداد ميليشياه الخاصة «المردة» بإشراف ضباط من الجيش اللبناني، كثف الاعداد والتدريب. كذلك فعل كثير من القيادات المسيحية الاخرى، خصوصاً آل الجميل. فتم شراء اسلحة خفيفة من بلغاريا. وسرعان ما تحولت الاراضي المسيحية امتداداً حتى الاردن (الملك حسين صديق قديم لكميل شمعون) الى اماكن للتدريب العسكري. بالمقابل، عزز الفلسطينيون دفاعاتهم. واقتربوا على المستوى السياسي، من حلفائهم اللبنانيين، اليساريين والمسلمين، آملين ان يحميهم هذا الدعم من حكم يسيطر عليه المسيحيون، ومصمم، كما يقولون على حرمانهم من آخر ملجأ لهم.

مع الاحساس باقتراب المواجهة، حاول المسيحيون ترتيب مساعدة اصدقائهم التقليديين، فرنسا والولايات المتحدة بشكل خاص. تعرف غودلي بعد اقل من اسبوع على وصوله الى بيروت في شباط (فبراير) ١٩٧٤، على نظريات المتطرفين المسيحيين في تقسيم لبنان.

في الواقع حمل السفير الجديد، قبل مغادرته واشنطن نصيحة بعدم «لعب دور الماريشال او حاكم الولاية». ومن ينظر الى الوضع الاميركي في ذلك الوقت لن تدهشه النصيحة. فالولايات المتحدة تلفلف فضيحة ووترغيت، ومعارك الهند الصينية في نهايتها. والمخابرات الاميركية تتعرض لحملة أمر بها الكونغرس، وبات الرأي العام مشغولا بها. كيسنجر لم يعد صانع المعجزات، كما كان في بداية عصر نيكسون. اخفاق المخابرات المذل في انغولا بات وشيكا. لذا كان المسؤولون السياسيون فيّ واشنطن يخشون الاشارة امام الكونغرس الى وجود

عسكري اميركي في الشرق الاوسط، الى درجة ان بعثة دعم سيناء، وهي منظمة اميركية بحتة، أُنشئت للاشراف على انسحاب القوات الاسرائيلية وفقاً لاتفاقيات سيناء الثانية، عُهد بها الى مؤسسة خاصة بدلاً من الجيش. (لاسباب مشابهة، انتظر هؤلاء المسؤولون نهاية عام ١٩٧٩ لتقديم بضعة مشاريع، حول قوة انتشار سريع في الخليج الفارسي). الا ان السياسيين الموارنة لم يعيروا اهتماماً لهذه الانعزالية الاميركية الجديدة ـ تغافل مدهش، من جانب طائفة، كان استمرارها مرتبطاً عبر القرون، بتفسير صحيح للاحداث في الخارج. خلال صيف ١٩٧٤ استغلت تركيا انهيار الطغمة العسكرية اليونانية واجتاحت قبرص. رغم وجود هذه الجزيرة على بعد لا يفوق المئتي كلم عن شواطئهم، لم يتنبه اللبنانيون الى ان الولايات المتحدة لم تتدخل لحماية الاكثرية اليونانية ضد الاتراك المسلمين. نصح غودلي ودبلوماسيون آخرون المسيحيين بالاعتدال والتفاهم واحبطوا آمال الموارنة في انزال اميركي جديد. واستمع المسيحيون بشرود، وكرروا، دون كلل، الحجج نفسها.

لم يصغِ احد، لما قاله غودلي. في بيروت، وظن الكثيرون ان توازنا في القوى بين الفلسطينيين وحلفائهم من جهة، وبين المسيحيين من جهة اخرى، قد يمنع الكارثة.

لم يستطع السياسيون المسيحيون ـ ولم يرغبوا ـ ان يدركوا ان الاميركيين لا يريدون الغوص في مشاكلهم المضنية، ولا في نظامهم السياسي، الاكثر انحطاطاً من اكثر امارات الخليج تخلفاً. لم تبدل شيئاً لا الأمثلة المتكررة ولا الشروحات المتواترة. لقد اقفلوا اذهانهم عن كل الاشارات المناقضة لهذا الدعم الاميركي الذي ينتظرونه من الاعماق. اما ذاكرتهم الانتقائية فتسمح لهم بغض النظر عن كل ما حصل منذ التدخل المثالي عام ١٩٥٨. كانت الولايات المتحدة زعيمة «العالم الحر»، واقوى دولة في العالم، ودولة مسيحية ايضاً، إذاً هي حليف مطلق. خليج الخنازير، مارتن لوثر كينغ، اغتيالات الاخوة كينيدي، فييتنام،

كمبوديا، لاوس، كنت ستيت، ووترغيت، كل ذلك لم يترك اي تأثير على القادة الموارنة. المهم، ان الولايات المتحدة شجعت منذ سنوات، الحكم اللبناني ـ اي المسيحيين والموارنة ـ على احكام الطوق على الفلسطينيين. اما الآن، فقد باتت الميليشيات المسيحية على استعداد للمواجهة القصوى، لأن الجيش في ايار (مايو) ١٩٧٣، لم يكن على مستوى انجاز المهمة. واي انزال جديد للمارينز يكون شيئا مثالياً دون ان يكون لا غنى عنه. لأن المسيحيين، هذه المرة يستطيعون انجاز العمل بأنفسهم اذا قدمت لهم واشنطن الدعم السياسي، والسلاح، والمعدات، اي بكل بساطة التشجيع. وكما تذكر غودلي بعد سنوات: «الله يعلم كم نصحنا الموارنة، ولكن بأشد البسمات براءة، فضّلوا عدم الاصغاء».

ذلك لانهم دائماً يعلمون اكثر من الجميع، ايضاً. ولا يقبلون الرفض مطلقاً. فغودلي وحده، معاد لقضيتهم بينما يتوهم الموارنة ان الادارة الاميركية، والبيت الابيض والكونغرس الاميركي، يعشقونهم احد الذين يجسدون هذه التوكيدات الثابتة ـ والادعاءات الوهمية بدعم اميركي محقق ـ هو وزير الخارجية السابق شارل مالك، روم ارثوذكس، اكثر مارونية من الموارنة على مستوى التعنت. دراساته في هارفرد، الاصدقاء الاميركيين الذين تعرف اليهم طوال سنوات عمله كسفير في واشنطن، وفي الجامعة الاميركية كأستاذ، علاقاته مع اسرة روكفلر، علاقاته الشخصية مع ريتشارد نيكسون ـ كل ذلك، احاطه بهالة كافية، داخل المعسكر الماروني. منطو على نفسه، ليمنع الآخرين من انتقاد قصر نظره الاستراتيجي. أثناء رئاسة نيكسون، كان شارل مالك يمضي عطلة الاسبوع احياناً في البيت الابيض. في نهاية ١٩٨١، كان لا يزال له من النفوذ، بحيث وظف علاقاته الاميركية للقاء بسكرتير الدولة الجديد، الكسندر هيغ.

احد المسؤولين الكتائبيين روى لي كم بذل من الجهد، عبثا،

لاقناع القيادات المارونية بأخطاء مالك، قبل أن يزيد الوضع تفاقماً: «في بداية الحرب، ادعى مالك ان المارينز سينزلون متى وأين يريد. ولكن، مرت الشهور ولم نرَ شيئا، فاضطر للاعتراف: «طبعاً، انهم يتهيأون، ولكنهم سيأتون». اجبت، والغيظ يتملكني: «من خلال لقاءاتي مع الدبلوماسيين والصحافيين الاميركيين، توصلت الى الاستنتاج بأن الولايات المتحدة لن تساعدنا». لكنني، كنت شابا، اما هو فالشيخ بيار يصغي اليه بانتباه. وشمعون رفيق دربه منذ الخمسينات. طبعاً قالت السفارة: لا مارينز! لكننا ننتظر مفاجأة إلهية، ثورة عراقية اخرى، اي شيء، لا يهم. لم يتوقف مالك عن التكرار: «لا تخشى شيئا، سأذهب الى الولايات المتحدة، سأظهر على شاشة التليفزيون، ما يهم في اميركا هو الرأي العام».

طيلة السنتين، قبل بداية المعارك في نيسان ١٩٧٥، وبعدها، لم يستطع أو لم يُرد كيسنجر الاهتمام بلبنان. فهو يحب العمل حالما تنفجر الازمة، ليركز عليها جل اهتمامه. لم يحتل لبنان مطلقاً اولوية اللائحة في المشاكل الهامة، قبل فوات الاوان، بالنسبة للبنان، ولكيسنجر ايضاً. هذا الاخير كرّس الاشهر الاولى من سنة ١٩٧٥ لمحاولة فك الارتباط في سيناء. في البداية، لم تعترض الحكومة اللبنانية مطلقاً على هذه الاتفاقات، الا انها أوعزت الى السفارة الاميركية في بيروت «بأنه يجب الا يُنسى لبنان»، الذي تتنازع النفوذ فيه قوى عربية متنافسة، تمول صحفاً لها في بيروت، والآن عبر تمويل جيوشها الخاصة من بين حشود الميليشيا التي تعج بها بيروت. لا مبالاة سكرتير الدولة هذه تجاه لبنان كانت مدهشة، نظراً لاهتمامه الدقيق بمصر، سوريا، الاردن، وبكل الدول العربية المجاورة لاسرائيل. فلبنان، رغم صغره، وتعقيده له حدود مجاورة لاسرائيل، لذا من الطبيعي ان يثير مزيداً من الاهتمام.

ان التفسير الذي يمكن ان نقدمه لجمود كيسنجر، ان هذا الاخير

وقع ضحية تقنيته الخاصة التي تعتمد التركيز التام على اكثر المشاكل إلحاحاً، مهما كان نوعها، وعلى تجاهل المشاكل الاخرى. رغم شهرته، كساحر، كان كيسنجر في الواقع عاجزاً عن مواجهة اكثر من أزمة في وقت واحد.

لهذا نسي لبنان. ولهذا ايضاً لم يرشد سفراءه، ولم يستمع الى معلوماتهم ـ حتى عندما كان الامر يتعلق بمعلومات لها صلة مباشرة بمشاريعه. ونادراً ما كانت البرقيات الديبلوماسية القادمة من بيروت تغادر سلة «الواردات» في مكتب سيسكو. في الاشهر الاخيرة التي سبقت بداية الحرب الاهلية، الح عدة موظفين شبان في السفارة على غودلي لإرسال كمية من البرقيات، مما دفعه اخيراً الى القول بأنه يعلم تماماً ان كيسنجر لن يقرأها، وان غيره يجب ان يكون على صلة بما يحصل. في تموز (يوليو) ١٩٧٥ هدأت المعارك نسبياً، لتعود الى الاشتعال مجدداً قبل ان ينجز كيسنجر مفاوضات سيناء الثانية. من المحتمل ان يكون تزامن تجدد القتال في لبنان مع اتفاقات سيناء، هو الذي دفع الدول العربية المعارضة لهذه الاتفاقات الى اتهام الولايات المتحدة بأنها خلف هذه الاضطرابات. ألم يكن توقيت الاشتباكات دقيقاً لتحويل الانتباه العام عن اتفاقيات فصل القوات؟ أحد الديبلوماسيين المقربين جداً من المفاوضات أسرّ لي فيما بعد: «لا اظن ان كيسنجر كان منزعجاً من الاضطرابات في لبنان، إلا أنها لم تكن جزءاً من مشروعه».

على كل حال، بينما كان لبنان يتجه شهراً بعد شهر، نحو الانتحار الوطني، لم يظهر على السطح اي مشروع اميركي، مهما كان نوعه. بالمقابل، ادرك الفاتيكان الخطر بوضوح. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥، ارسل البابا الكاردينال باولو برتولي. كان الاول في سلسلة من المبعوثين توافدوا فيما بعد، ليحض الموارنة على الاعتدال. الا ان مهمته، وما لحقها من مهمات، باءت بالفشل. فرحل ولسان حاله يقول: «هؤلاء الناس، ليسوا مسيحيين» كما شاع في ذلك الوقت في بيروت.

وصل بعده وزير الخارجية الفرنسية السابق كوف دي مورفيل. رغم مكانته الشخصية، ورغم ما تتمتع به فرنسا من حظوة تاريخية لدى الموارنة، فإن حظ المبعوث الفرنسي لم يكن افضل من حظ الكاردينال. رغم البراهين اليومية المناقضة، كانت بعض الاصوات تؤكد ان اللبنانيين لا بد ان يعودوا الى الحكمة والتعقل. احد اصدقائي، من اصحاب المصارف المرموقين، لم يأبه للائحة القتل والدمار المتنوع التي قدمتها له، بل أكد لي ان اعمال بناء بنك «ناردوني موسكو» لم تتوقف، وهذا يعني ان الروس لم ييأسوا من لبنان بعد، ودعاني الى رؤية الامور كذلك.. في الخريف، توقفت الاعمال المذكورة. بعدها بفترة قصيرة رحل صديقي الى البرازيل مهاجراً كمئات الآلاف من اللبنانيين والغرباء هناك.

أمام دهشة اللبنانيين من جميع الاتجاهات ـ والكثير من الفلسطينيين ـ لم يفعل الاميركيون شيئاً ملموساً. «انها مأساة يونانية حقيقية.. قال لي أحد الديبلوماسيين الاميركيين النافذين، فيما بعد، كنا محاصرين بسياسة تحديد سلطاتنا. التدخل، كان الشيء الوحيد، لكنه سيكلف غالياً ـ معركة حقيقية هذه المرة، وليس مجرد نزعة كما في ١٩٥٨. بسبب فييتنام، لا نستطيع القيام بأي شيء فعال...» هذا الصبر الاميركي، امام ازمة بهذه الاهمية، كان محيراً الى درجة ان كثيرين ممن يعرفون الشرق الاوسط جيدا ايقنوا انه لا بد ان يكون للمخابرات الاميركية سياسة ما ـ مع، او دون الموافقة الرسمية لحكومة فورد. هذه السياسة السرية، هي على الارجح، مساعدة الميليشيات المسيحية للبقاء في ساحة القتال، لاضعاف منظمة التحرير واسداء خدمة للمخابرات الاسرائيلية الموساد. وفقاً للنظرية نفسها، كان الاميركيون بحاجة لملاطفة الموساد وتعاونهم، خاصة بعد ان زعزعت سلسلة من الفضائح الثقة الخارجية في فعالية الـ(سي. آي. إي) وفي كل الاحوال، ان تشعبات الموساد مع الوكالة الاميركية تمتد الى ما وراء الشرق الاوسط، الى الكتلة السوفياتية. هذه المتغيرات يعرضها ايفلند في كتابه Ropes of

Sand، وكذلك روجر موريس احد اعوان كيسنجر السابقين، في كتابه A Certain Greatness. في هذين الكتابين، وخلال اللقاءات معهما، يشير الكاتبان الى ان مكتب المخابرات الاميركية في اثينا ـ وكذلك الاسرائيليون فيما بعد، بناء على طلب الولايات المتحدة ـ ساهموا في ايصال السلاح، بكميات كبيرة، الى الميليشيات المسيحية.

هذه الاشارات تحولت عند اللبنانيين الى وقائع ثابتة. خاصة ان الاتهامات التي ساقها كمال جنبلاط، وآخرون غيره، عن تقديم المخابرات الاميركية ٢٥٠ مليون دولار لاسرائيل لتفجير الحرب في لبنان وارسال السلاح والمعدات الى الميليشيات المسيحية، تلاقت مع تصريحات مصدر لا يرقى اليه الشك.. السناتور جيمس ابو رزق الذي اعلن انه سمع في الادارة الاميركية ان المخابرات الاميركية قدمت للاسرائيليين ما بين سبعين الى ثمانين مليون دولار لتشتري دعماً لها، اصوات مندوبي افريقيا السوداء في الامم المتحدة. ولم يعلم اذا انفقت الدولة العبرية المبلغ لهذا الشأن. ولكن عملياً كان من المستحيل اثبات او نفي هذه التأكيدات. رغم بعض العوامل التي تبين لا معقولية هذا الكلام، منها تفكك المخابرات الاميركية، وخضوع عملياتها السرية لفحص دقيق من الكونغرس طيلة عامي ٧٥ ـ ١٩٧٦، فإن علاقاتها مع الكتائب منذ الخمسينات أمر مؤكد. احد رفاق السلاح لآل الجميل، داني شمعون، قائد ميليشيا النمور، أكد ايضاً ان المخابرات الاميركية في عام ٧٤ ـ ١٩٧٥ قدمت للكتائب، بواسطة الجيش اللبناني عدة ملايين من الدولارات. اثناء المعارك في ٧٥ ـ ١٩٧٦، تساءل حتى بعض الديبلوماسيين الاميركيين، ألم تمدّ الـ(سي. آي. إي) يد المساعدة للمسيحيين. رغم ذلك لم تكف الميليشيات المسيحية عن الشكوى، طيلة الحرب الاهلية، من غياب اي تحرك اميركي لمساعدتهم.

في آذار ١٩٧٦ استدعى كيسنجر دين براون السفير الاميركي السابق في عمّان. عُرف عن هذا الاخير مقدرته على حسن التصرف في

اسوأ الظروف: بعد يومين من الاستدعاء وصل براون الى بيروت. كان ذلك في ٣١ آذار (مارس) ١٩٧٦. وفي جعبته شرطان يجب الالتزام بهما: التكرار للمسيحيين بأن المارينز لن ينزلوا، وان الولايات المتحدة تريد منهم ان يكونوا «اقوياء كي يتمكنوا من التفاوض».

اول قرار اتخذه براون، هو تأريخ الحرب، رغم احتجاجات جورج لمبراكيس المسؤول الشاب لشؤون السفارة، الذي اكد ان الادارة الاميركية تلقت يومياً تقريرين مفصلين منذ نشوب المعارك، قبل سنة تقريباً. اراد كيسنجر ـ ومعه براون طبعاً ـ معرفة اطراف النزاع؛ اي انه اعتراف ضمني بأن سكرتير الدولة لم يجد الوسيلة بعد لمتابعة التراجع البطيء للوضع عن كثب. في السفارة نفسها، لم يثر وجود براون الهمم. الانطباع العام ان الولايات المتحدةبعد هذه اللامبالاة، ليست قادرة على التصرف السليم، على افتراض انها تريد ذلك اخيراً. من واشنطن تسربت شائعات تؤكد ان الرئيس فورد وكيسنجر ارسلا براون، لمنع رونالد ريغن ـ منافس فورد الخطير للرئاسة ـ من اتهام الحكومة بالتقصير، تجاه ما يحصل في لبنان.

عاش المسيحيون نشوة الفرح. أخيراً فهم الاميركيون. الا ان اوهامهم كانت، وللاسف، قصيرة الامد. أتى امراء الحرب الى براون ليستوضحوه قصد كيسنجر الحقيقي «كونوا اقوياء». سرعان ما عادوا بانطباع مفاده ان الولايات المتحدة تريد ان يطلبوا المساعدة من اسرائيل. اكد شمعون ذلك بشكل غير مباشر، في يومياته. في ٢ نيسان (ابريل) قائلا: لم اظن في يوم من الايام ان الاميركيين سيأتون لنصرة المسيحيين. لكن في جعبتي سهم آخر: «تبادل وجهات النظر مع زوار مهمين، يفضلون التكتم»، مشيراً الى لقائه مع وزير الدفاع الاسرائيلي شمعون بيريز، على متن سفينة اسرائيلية في عمق مرفأ جونية. «النتائج ايجابية، اضاف قائلاً. وسوف تؤتي ثمارها اذا استمرت المعارك».

رغم انقاذ السوريين لهم ـ وتحولهم لما يعتبرونه شرطة حماية الى جانب اسرائيل ـ لم يرضَ المسيحيون. لقد تخلى عنهم الغرب مرة اخرى، خصوصاً الولايات المتحدة، رغم ثقتهم المطلقة بأن واشنطن فهمت اخيراً. لم يفكروا الا بالانتقام، على طريقتهم الغربية دائماً.
خلال بضعة ايام بدأوا بإثارة ضجة نشروها كما ينتشر كلام الانجيل، مفادها ان براون عرض على مسيحيي لبنان كافة الرحيل على متن سفن اميركية الى الولايات المتحدة او كندا. ادرك الاميركيون ان مجرد نفي اي تفصيل عن هذه الرواية، يعني ان هذا المشروع موجود بالفعل. اذا رفض الاميركيون مساعدتهم، فلأنهم دون شك، انذال التاريخ. سعى المسيحيون عبر هذه الاشاعة، لاحراج من خذلهم، مؤكدين انهم لن يتحركوا من ارضهم. لن يصبح مسيحيو لبنان ابدا فلسطينيين جدداً، ولن يتخلوا عن الارض التي، يلحون (بطريقة كيفية، انها جزء من العالم حيث تعاقبت الغزوات دائماً) انها خاصتهم منذ ستة آلاف سنة.

مثل الكثيرين قبله، اكتشف براون الى اي مدى كان صعباً اضافة كلمة، او فكرة، امام القيادات المسيحية التقليدية التي يتجاوز متوسط عمرها السبعين عاماً.

غادر براون لبنان كما اتاه. الاثر الوحيد لمروره كان الانتخاب المبكر المضحك المبكي لرئيس جديد للجمهورية، الياس سركيس الذي لم يرضَ شمعون ان يصوت له الا بعد ان قبض ٤ ملايين ليرة لبنانية. فيما بعد اعلن أحد الديبلوماسيين الاميركيين ان تشجيع هذا الاخير على العمل، كمن «يحاول ادخال المعكرونة المطبوخة في ثقب الباب».

في كانون الاول (ديسمبر) استقبل كيسنجر، غسان تويني مبعوث الرئيس سركيس، لمناقشة المساعدة الاميركية لاعادة إعمار لبنان بعد الحرب، لأن هذه الاخيرة انتهت رسميا الشهر الفائت. بعد الحديث عن ذكرياتهما معاً اثناء الدراسة في هارفرد، بعد الحرب العالمية الثانية، قال

كيسنجر لزائره: «لنتحدث كطالبين قديمين في هارفرد. يجب ان تعلم ان رئيس الولايات المتحدة وسكرتير الدولة عاكفان شخصياً، منذ ستة اشهر، على مراجعة جميع البرقيات الواردة من لبنان». ما لم يقله كيسنجر، انه قرر الاهتمام بلبنان بعد اكثر من سنة على استمرار الحرب، وان ايامه باتت معدودة بعد انتخاب جيمي كارتر لرئاسة البيت الابيض.

الحقيقة، قال لي احد الديبلوماسيين الاميركيين: بالنسبة للولايات المتحدة، كان لبنان دائماً شأناً ثانوياً جداً. وهي لا تريد ان يحصل اي تغيير هام في الشرق الاوسط، دون رضاها، كما انها من القوة بحيث تستطيع منع لبنان من التسبب في حرب جديدة شاملة في المنطقة. الا ان هذه السياسة تعادل، بطريقة لا واعية على الارجح، القضاء على لبنان. هذا احد البنود السرية والاساسية لاتفاقيات فصل القوات في سيناء ولمباحثات كمب ديفيد في ١٩٧٨. الا ان من يعرف الشرق الاوسط جيداً يدرك ان الجهود الاميركية للتوصل الى اتفاق شامل في هذه المنطقة من العالم، بقيت في نقطة الصفر. وبغياب مثل هذا الاتفاق، بقي لبنان ساحة اقتتال تتبارى فيها القوى كافة. في بداية ولايته، كان كارتر اكثر تصميماً ممن سبقه، على حل مشكلة الشرق الاوسط المعقدة، الا ان الامر انتهى به الى تأسيس الدعائم التي سترتكز عليها سياسة بيغن العدوانية.

عندما نغوص حقيقة في عمق الاشياء، يقول احد المسؤولين الاميركيين، يتبين لنا ان النظرة الاميركية الى لبنان تنطوي على شيء من الاحتقار. هذا اللبنان، هل هو موجود حقاً؟ وفي حال الايجاب، لماذا تنبغي حمايته من هزات لا بد لكيان بهذه الغرابة ان يتعرض لها؟ بالاضافة الى ذلك ان لبنان اختراع فرنسي، وتقليديا، لا تتحمس واشنطن كثيراً لمنتجات الاستعمار الفرنسي. كما عبر عن ذلك البريطانيون في أوج مجدهم.



الاستقبال؟

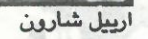
عندما كانت بيروت ذات فائدة للولايات المتحدة، عملت هذه الاخيرة على منع الآخرين من استخدامها مركزاً للتنصت. اما الآن، فإن الاحداث الهامة تحصل في مكان آخر. ولم تعد بيروت مركز الشرق الاوسط المصرفي. فحجم فواتير النفط العربي قد تضاعف بسرعة لا تتلاءم مع العاصمة اللبنانية الصغيرة: مليارات البترودولارات باتت تتجه رأسا الى لندن والبنوك الاميركية. حتى اللبنانيون لم يعودوا وسطاء في امارات الخليج الفارسي، يُستشارون ويمررون الطلبات الى الاميركيين او الى الغربيين: كما ادركت المؤسسات الغربية ان عليها ان ترسل موظفيها هي الى الخليج الفارسي اذا ارادت الحفاظ على زبائنها. بيروت، كانت فندقاً لرجل الاعمال. لا يعني ذلك ان اللبنانيين لا يكسبون المال من الخليج الفارسي، بالعكس، انهم يكسبون اكثر من اي وقت مضى، ولكن سلطتهم في القرار تضاءلت. هكذا يسير العالم، والاميركيون ليسوا رومنطيقيين.

اذا اراد الرومان امبراطورية، قال لي احد الاصدقاء اللبنانيين ممن يمتهنون التأريخ، عليهم ان يدفعوا الثمن». ولكن اذا كان الرومان الجدد لا يبحثون عن امبراطورية. فما العمل؟ الحل الوحيد هو الخضوع لأهواء القوة العظمى الاقليمية، اسرائيل، التي احرزت هذا المقام ليس بفضل الدعم الاميركي فقط، بل وبفضل مزاجها العدواني ايضاً. يجب الا نندهش اذا كانت الدولة العبرية، رغم سياستها المأزقية غالباً، موضع احترام واعجاب. لقد لعب الاسرائيليون الدور الذي لعبته القوى الامبريالية السابقة ردحاً طويلا من الزمن. انهم، على الاقل، يعرفون ماذا يريدون كما يبدو.

السياق الاسرائيلي



مناحيم بيغن



اريل شارون



ديفيد كيمحي



سعد حداد

لا اذكر التاريخ بالضبط، ولكن الحرب كانت في بداياتها. لنقل في نهاية تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٥، لأن جميع المشاركين في الحلقة، دون استثناء تقريباً، كانوا على زيهم المعهود، بذلة «الثلاث قطع»، زي النخبة اللبنانية ايام السلم. محامون، تجار، اطباء، معلمون، لم يُخفِ اي منهم ان حلقاتهم الدراسية تعالج مشاريع تقسيم لبنان ـ اي اقامة دولة مسيحية منفصلة ـ اذا لم يتمكن المسيحيون من حكم البلد كاملاً. اللغط الشائع حول هذه المشاريع الجذرية هو الذي قادني الى «الكسليك» وجامعتها «الروح القدس». الرهبان الذين يديرون هذه الجامعة اغنياء وحازمون. يتحدر تلاميذهم من اوساط اكثر بساطة من اولئك البرجوازيين الشبان من الجنسين الذين يلتحقون بالجامعة اليسوعية، او بالجامعة الاميركية. تنفق الكسليك من عائداتها الضخمة التي تدرها عليها ممتلكاتها الواسعة لشراء كمية كبيرة من الاسلحة التي يستخدمها الشبان الموارنة، الذين يقاتلون وحول عنقهم صليب ضخم من الخشب، وصورة للسيدة العذراء على عقب البندقية.

ناقشنا في السياسة. او بالأحرى، تحدثت عن معوقات قيام دولة مسيحية، فقلت ان لا احد سوف يعترف بهذه الدويلة كما يتصورون. ولن يمد لها احد يد المساعدة. انسحب الجميع بعد أن مكثوا لحظات. واحد فقط بقي معي: لن يتخلى المسيحيون مطلقاً عن النضال، سوف يعودون الى الجبال، ! ويقاومون كما فعلوا ذلك دائماً.

اجبت معترضاً: ان الطائرات والمروحيات والعربات المدرعة والمدافع الطويلة المدى تجعل من الجبال ملجأ غير فعال. اجاب بغرور بديهي: «اذن سنلجأ الى الشيطان» واضاف: على كل حال، ان مسؤولي الكسليك على علاقة بإسرائيل منذ اتفاق الهدنة عام ١٩٤٩ بين اسرائيل ولبنان، الذي يسمح لرجال الدين الموارنة باجتياز الحدود لزيارة اديرتهم وباقي المنشآت التي تملكها كنيستهم في اسرائيل». اذكر ايضا الى اي مدى كنت حائراً: فبالنسبة للمسيحيين، التعامل مع اسرائيل خطيئة قاتلة. ولا ازال اعي أثر حرب ١٩٦٧، نشوة مسيحيي لبنان وهم يرون الاسرائيليين يذلون المصريين في حرب الايام الستة. ومن المؤكد انه في السنوات العشر التي تلت ذلك التاريخ كان لمسيحيي لبنان وللاسرائيليين عدو مشترك هو الفلسطينيون. لم اتخيل ان المسيحيين اغبياء الى درجة طلب المساعدة من حليف موضع ريب من الدول العربية كافة، لأن العقل الماروني ـ ومنذ قرون ـ لم يتحالف مع قوى شديدة القوة، بل مع قوى بعيدة، رغبة في البقاء اسياداً في بلدهم، اللهم الا في حالات الخطر الشديد. والاسرائيليون قريبون جدا ـ وشديدو القوة ـ وهم من سيقود اللعبة، وليس الموارنة.

يقول احد الاسرائيليين المختصين بالشؤون العربية: «فقط عندما تريد اسرائيل جمع التبرعات والمساعدات من يهود اميركا، تدعّي ان العالم العربي واحد موحد ومصمم على رمي اسرائيل المسكينة في البحر. اما في الحقيقة فإن الشرق الاوسط ليس سوى موزاييك شعوب وثقافات، وانظمة تحكم شعوباً ومجموعات غير راضية. اذا استطاعت اسرائيل الاتصال بهذه المجموعات كافة، المعادية للعروبة والاسلام، فإنها ستتمكن من تفتيت العالم الاسلامي قطعا، وتعيش سعيدة حتى آخر ايامها. حتى النجاح الجزئي في هذا المشروع سوف يقلل الضغوط عن اسرائيل، ويحول عنها انتباه اعدائها الألداء. لم تكن اي فكرة من هذه الافكار جديدة بشكل خاص. فخلال النصف الاول من الستينات، قدمت

اسرائيل اسلحة ومعدات سوفياتية، مما غنمته من الجيوش العربية في حرب ١٩٦٧، الى الاكراد المناهضين للنظام العراقي، وقبل ذلك بقليل، مررت عبر اثيوبيا مساعدات من النوع نفسه الى الانفصاليين عن النظام المركزي في جنوب السودان. ويشاطر المسيحيون الراديكاليون في لبنان وجهة النظر هذه، ويعتبرون اسرائيل قوة اقليمية عظمى، حازمة وعدوانية، وحليفاً ممكناً في الوقت الذي تخلى الغرب عنهم.

يضاف الى ذلك ان بلديهما متجاوران. ففي نهاية الحرب العالمية الاولى، حين تقاسمت بريطانيا وفرنسا بقايا الامبراطورية العثمانية في الشرق الاوسط، قررت فرنسا ان تقسم الاراضي التي سمحت لها الامم آنذاك بالوصاية عليها، الى خمس دول، منها لبنان الكبير، يحكمه المسيحيون. من اجل ذلك الحقوا بجبل لبنان ـ المسيحي تقليدياـ مناطق ذات اغلبية اسلامية هي صور وباقي الجنوب، وطرابلس والشمال، وكذلك سهل البقاع الخصيب في الشرق. كل ذلك لبناء دولة قابلة للحياة اقتصادياً. عام ١٩٣٦، وقبل ان تتشكل لجنة «بيل» لتضع حداً للعنف في فلسطين، أيد البطريرك الماروني قيام دولة عبرية في هذه المنطقة. في السنة التالية، اعلن دافيد بن غوريون، رئيس الوكالة اليهودية آنذاك، امام حزب العمل الصهيوني العالمي المجتمع في زوريخ ان «لبنان هو الحليف الطبيعي ليهود ارض اسرائيل. . ان محاذاة لبنان ستؤمن للدولة اليهودية حين تتحقق حليفاً صادقاً». وفي اشارة الى الحدود المشتركة اضاف بن غوريون «ان ذلك سيتيح لنا امكانية التوسع بموافقة ومباركة جيراننا الذين يحتاجون الينا». كان من الواضح ان اهم مراكز التجمعات المسيحية تقع شمالي الحدود الاسرائيلية، ولكن المسيحيين يسيطرون على منطقة هامة من الشاطىء تسمح، دون صعوبة، بالتنقل البحري عبر المرافىء الاسرائيلية. (بعد انهيار الامبراطورية التركية مباشرة، في ١٩١٨، حاول الصهاينة عبثا اقناع بريطانيا العظمى بالمطالبة بجنوب لبنان، باسم فلسطين، بما فيه مياه الليطاني، لكن فرنسا هي التي

حصلت عليه آنذاك. وفي عام ١٩٢٠ رُسمت الحدود المعروفة حاليا). عام ١٩٤٨، وخلال ما يطلق عليه الاسرائيليون حرب الاستقلال، احتل جنودهم لبنان حتى الليطاني ولم ينسحبوا منه الى حدودهم الا في السنة التالية.

بعد اقل من عشر سنوات على ذلك، كتب موشى شاريت، رئيس حكومة اسرائيل آنذاك، في يومياته، عن الفترة التي تغطي الاحداث ابتداءً من الثلاثينات، وقد نشرت هذه اليوميات باللغة العبرية عام ١٩٧٩ بعد ان تمكن ابنه من الالتفاف على محاولات الادارة الاسرائيلية لمنع ذلك. وقبيل ان يتمكن الفدائيون الفلسطينيون من التهديد المادي لاسرائيل يتحدث شاريت عن مشاريع بلبلة لبنان وتقسيمه لتكريسه نظاماً خاضعاً لاسرائيل. ويبيّن في مقاطع مختلفة من يومياته اهتمامه بزجر الاحلام المتطرفة للموارنة الذين يأملون بمساعدة الصهاينة لاستعادة الخسارة التي فقدوها بتأسيس لبنان الكبير عام ١٩٢٠.

في ٢٧ شباط (فبراير) ١٩٥٤، كتب شاريت ان بن غوريون رئيس الحكومة السابق الذي استقال لتوه، وبنهاس لافون وزير الدفاع، وموشي دايان قائد الاركان، كانوا يحلمون بانقلاب في سوريا لكي يغزوا لبنان. اما بن غوريون فيعتقد انه اذا اجتاح العراق سوريا، وهو امر ممكن، «فستكون اللحظة المناسبة لدفع لبنان ـ اي الموارنة ـ وتحريضهم على اعلان دولة مسيحية».

اعترض شاريت قائلاً: «انه حلم اجوَف، فالموارنة منقسمون، ومن يؤيد الانفصال المسيحي ضعيف، ولا يجرؤ على ذلك. كما ان لبنان مسيحياً يعني انه سيتخلى عن صور، وطرابلس، والبقاع. ولا يمكن لاي قوة ان تعيد للبنان حجمه السابق قبل الحرب العالمية الاولى، هذا بالاضافة الى انه سيفقد كل امكانية للحياة اقتصادياً». اقترح بن غوريون غاضباً. مبررات تاريخية للبنان الصغير: «واذا حصل هذا الامر فلن

تتجرأ القوى المسيحية على الوقوف بوجهه». قلت انه ليس هناك عامل واحد مؤات لخلق مثل هذه الحالة، واذا ما ابتدأنا ببلبلة الامور وتحريكها، فإننا سرعان ما نجد انفسنا قد غرقنا في عمل لن يجرَّ علينا سوى العار. إثر هذه الكلمات، شُنت علي عاصفة تتهمني بقلة الجرأة وبقصر النظر السياسي. يجب ان نرسل المبعوثين وننفق المال. قلت، لا مال لدينا. اذن نلجأ الى الوكالة اليهودية. من اجل عمل كهذا يمكن ان نغامر بمئة الف، خمسمئة الف، مليون دولار، كل ما يمكن من اجل تحقيقه. حينئذٍ سيحصل ترتيب جديد في الشرق الاوسط وسيبدأ عصر جديد. لقد تعبت من الوقوف بوجه العاصفة.

في اليوم نفسه الذي كتب فيه شاريت هذه الكلمات كان بن غوريون يقول في احد «الكيبوتزات»: «ان لبنان هو الحلقة الاضعف في سلسلة الدول العربية، ان مسيحييه يشكلون اغلبية لبنان التاريخي، هذه الاغلبية تمتلك تراثاً وثقافة مختلفة تماماً عن باقي الدول. حتى داخل حدوده الموسعة (واكبر خطأ ارتكبته فرنسا كان في توسيعها) فإن المسلمين ليسوا احراراً فيما يشاؤون، رغم اكثريتهم (وهذا لست أكيداً منه)، وذلك خشية الانفصال المسيحي. ان قيام دولة مسيحية إذاً، مسيرة طبيعية. فالجذور التاريخية موجودة وستلقى دعم القوى الكبرى المسيحية، الكاثوليكية والبروتستانتية. في الايام العادية، يبدو الامر مستحيلاً نظرياً، وذلك اولاً بسبب نقص المبادرة وقلة الشجاعة عند المسيحيين انفسهم. ولكن، في ايام الاضطراب والفوضى هذه، وفي ظل الحرب الاهلية، تتغير الاشياء ويقول الضعفاء: نحن ابطال، ومن المحتمل (لأن لا شيء مؤكداً في السياسة) ان اللحظة باتت مؤاتية لقيام دولة مسيحية على حدودنا، ولن يحصل شيء دون مبادرتنا ومساعدتنا الحيوية. ويبدو لي ان هذه هي الآن المهمة المركزية، او على الاقل احدى المهام المركزية لسياستنا الخارجية والتي ينبغي ان نجند لها الامكانات والقدرة والوقت والعمل بكل الوسائل الممكنة لاحداث تغيير اساسي في لبنان. على

الياهو ساسون وكل المختصين بالشؤون العربية ان يتحركوا. اذا احتجنا للمال علينا الا نبخل بالدولارات. هنا يجب ان نركز قوانا كافة. قد نضطر لاحضار روفان سيلواه (خبير آخر بالشؤون العربية) للهدف نفسه. لن يُغفر لنا اهمال هذه الفرصة التاريخية. وليس هناك ما قد يثير القوى العالمية. في الواقع لسنا بحاجة للعمل «بطريقة غير مباشرة». ولكن يجب ان يتم كل شيء بسرعة، وبكل قوانا.

«حتماً، لا يمكن بلوغ الهدف المذكور دون تقليص حدود لبنان، ولكن اذا وجدنا في لبنان نفسه، او خارجه، اشخاصاً يمكن ان نجندهم لتأسيس دولة مارونية، فلن تكون هناك اي حاجة لحدود موسعة ولا لجموع اسلامية واسعة، واعتبارات من هذا النوع لن تكون لها اهمية. لا اعلم اذا كان لدينا اشخاص في لبنان اذا ما قررنا القيام بالمحاولة المقترحة، على كل حال هناك عدة طرق للعمل».

بلهجة متعبة الى حد ما، اجاب شاريت في ١٨ آذار (مارس)، رداً على رسالة من بن غوريون: «لا يعقل ان نخلق من الخارج حركة غير موجودة في الداخل. يمكن ان نبث روحاً في حركة اذا كانت موجودة. ولكن، كما اعلم، ليس في لبنان اليوم اي حركة تسعى لجعل هذا البلد دولة مسيحية تصبح القرارات الحاسمة فيها بين يدي الطائفة المارونية. ان تحويل لبنان الى دولة مسيحية هو اليوم خارج كل بحث، اذا ارتبط الامر بمبادرة خارجية. لم أُخفِ تحفظي بشأن «المبادرة الخارجية»، لانني لا استبعد نهائياً امكانية حصول هذا الامر ضمن سلسلة صدمات تصيب الشرق الاوسط، وتؤدي الى اعادة توزيع جذرية، وتغيير للصور الحالية وخلق تشكيلات جديدة».

قال شاريت: المسيحيون ليسوا اكثرية في لبنان، كما ان الاقلية الأرثوذكسية لا شأن لها بدولة مسيحية يسيطر عليها الموارنة. والقيادات المارونية نفسها رأت ان افضل ما يناسبها هو شراكة مع المسلمين. ان

اقتراح بن غوريون سيكون إذاً اقتراحاً مأساوياً لانه سوف يمزق، وبضربة واحدة، نسيج التعاون بين المسيحيين والمسلمين داخل الاطار اللبناني الحالي حصيلة عمل وتضحيات جيل كامل، كما سيدفع مسلمي لبنان إلى احضان سوريا. واخيراً كمرحلة نهائية للعملية، سوف يتلقى لبنان المسيحي مصيبة تاريخية نتيجة ضمه الى سوريا وبلبلة هويته داخل سوريا الاسلامية الكبرى.

اراد شاريت بتفنيده لحجج بن غوريون معرفة ما الذي يدفع للظن بأن المسلمين سوف يقبلون بالانفصال، في المناطق التي يكثرون فيها، عن باقي اجزاء البلد، وبأن جامعة الدول العربية او الغرب سوف يكتفيان بالتفرج دون التدخل، وان «الحرب الدامية! التي يجب ان تتفجر بالضرورة، ستبقى محصورة في لبنان ولن تؤدي مباشرة الى دخول سوريا الحرب». ان جبل لبنان لم يصبح قابلاً للحياة الا بعد ضم المناطق الاسلامية اليه في عام ١٩٢٠. «وللعودة الى الصيغة السابقة - تابع شاريت - لن يقتصر الامرعلى عملية جراحية فقط، بل سيحتاج الى بتر لاعضاء، لا يمكن للبنان العيش بدونها».

على ذلك، اجاب رئيس الحكومة اجابة لا صلة لها البتة بالحمائم «سأكون مسروراً لهذه البلبلة (داخل الطائفة المارونية)، ان بالنسبة لما ستحدثه من اختلال، او بالنسبة لما ستؤدي اليه من اضطراب داخل جامعة الدول العربية، مما سيحوّل الانتباه بعيداً عن الصراع العربي الاسرائيلي، الى تلك الشرارة في الرغبة في الاستقلال المسيحي». الا انني اخشى - قال شاريت - ان تعتبر إثارة هذا الموضوع من جانبنا، عملية انتهازية تستفيد من حياة آخرين وسعادتهم، في سبيل فائدة مؤقتة لبلدنا. كما اخشى ان يفوق الضرر الذي سيلحق بنا حين ينتشر الموضوع علناً، سواء من الدول العربية او من القوى الغربية، نتائج النجاح المحتمل لهذه العملية».

لم يقنع جواب شاريت المنطقي بن غوريون، ولم يثنه عن عزمه في مشروع تفكيك لبنان. بعد اكثر من سنة، في ١٦ ايار (مايو) ١٩٥٥، واثناء اجتماع لكبار وزارتي الخارجية والدفاع، عاد بن غوريون بعد ان اصبح وزيراً للدفاع، الى ما يسميه شاريت «حلمه القديم» في التدخل في لبنان. في ذلك الوقت كان التوتر يسود بين العراق وسوريا، وكانت «امكانية اجتياح العراق لسوريا» واردة، مما دفع بن غوريون لاقتراح كسب الدروز والشيعة في مشروع التفكيك. اما بالنسبة الى دايان، فأضاف شاريت قوله: «كل ما يبقى علينا ايجاده، هو ضابط، حتى كابتن بسيط نكسبه الى قضيتنا، او نشتريه حتى قبل ان يعلن نفسه منقذاً للسكان الموارنة. حينئذٍ، يدخل الجيش الاسرائيلي الى لبنان، ويحتل الاراضي الضرورية، ويقيم نظاماً مسيحياً حليفاً لاسرائيل، ويسير كل شيء على ما يرام. اذا اصغينا الى قائد الاركان، علينا ان نباشر العمل منذ الغد حتى دون انتظار اي اشارة من بغداد. ولكن ازاء هذه الحالة، لا بد ان يصبر وينتظر اجتياح العراق لسوريا. كما ان بن غوريون لم يتأخر في الاشارة الى ان مشروعه يجب ألاّ ينفَّذ إلا في اطار غزو العراق لسوريا».

ويتابع شاريت الذي لم يشأ الغوص في تفاصيل نقاش عقيم امام ضباط قيادةالاركان، فيكتفي بتحذير وزيره قائلا: «لن تكون النتيجة لبناناً مسيحياً متماسكاً، بل حرباً بين اسرائيل وسوريا». امام الحاح بن غوريون، شكلت مجموعة مشتركة من وزارتي الخارجية والدفاع لتهتم بلبنان، برعاية شاريت الذي كان يتوقع منها تصاميم خلخلة الوضع في هذا البلد. الا ان شاريت اشتكى من «قلة الجدية المخيفة» للعسكريين ومن «مواقفهم تجاه البلدان المجاورة، خاصة فيما يتعلق بالمسائل الشديدة التعقيد كوضع لبنان الداخلي». وقال. «رأيت بوضوح كيف ان الذين انقذوا البلد ببطولتهم وتضحياتهم إبان حرب الاستقلال يمكن ان يتسببوا في كارثة اذا تركناهم يتصرفون بحرية في الاوقات العادية».

وفي معرض رده على بن غوريون يقول شاريت: «ان هذا الاخير لا

يزال يتصور لبنان كما كان ايام الامبراطورية العثمانية، جسماً مستقلاً ذا اغلبية مسيحية مارونية. ولكن في لبنان الكبير، فقد الموارنة منذ زمن تفوقهم العددي، والارثوذكس منجذبون نحو الفلك السوري، والمسلمون يشكلون اغلبية متنامية، نظراً لنسبة الولادات المرتفعة عندهم، واللاجئون الفلسطينيون اضافوا الى هذه الاغلبية عدداً، فأصبح الموارنة اقلية تعادل الثلث، وفقدت طائفتهم كل جرأة واندفاع كما ان اغلب قادتها في حالة تناغم مع المسلمين ومع جامعة الدول العربية، وكل محاولة اسرائيلية لدفعهم في طريق الثورة قد تؤدي الى فضحهم عالمياً وتسبب لهم هزيمة ساحقة».

بعد اسبوعين من ذلك التاريخ، اشتكى شاريت، كما ورد في يومياته، من دايان: «لانه يؤيد فكرة تنظيم خدمات ضابط (لبناني)، مستعد للعب دور فاقد للشخصية، كي يتسنى للجيش الاسرائيلي تلبية رغبته في «تحرير» لبنان المسيحي من نير مضطهديه المسلمين». ورغم وصفه لهذا المشروع في ١٧ حزيران (يونيو) بأنه خرافة، يعترف شاريت: «في الحقيقة كانت لنا صلات مع مجموعة ما» داخل لبنان، و«محاولات عدة للاتصال بمجموعات اخرى، وان التركيز كان على ترتيب علاقات داخل الجيش (اللبناني)».

خلال الشهر نفسه، يشير شاريت الى رغبة دايان في رفض معاهدة امنية قدمتها الولايات المتحدة لانها «تقيد حريتنا في العمل العسكري»، والى ان قائد الاركان صاغ نوعاً من عقيدة «الحرب تساوي السلم» وفقاً للنموذج الذي ذكره جورج اورول عام ١٩٨٤. لذلك «على الدولة ان تخترع المخاطر وان تعتمد اسلوب التحريض الذي يليه الانتقام، وفوق كل ذلك، الأمل بحرب جديدة مع الدول العربية، حتى نتمكن اخيراً من التخلص من مشاكلنا ومن اكتساب مساحات جديدة». اما بن غوريون فيرى «ان الامر يكلف عناء دفع مليون ليرة لعربي كي يبدأ الحرب».

هذه المقتطفات من يوميات شاريت لها جانب غير عادي، اذا نظرنا اليها على ضوء ما حل بلبنان منذ عام ١٩٧٥. فقد اجتاحته الحرب الاهلية، ووضعت اسرائيل يدها على ضابط مسيحي مرتد هو الرائد سعد حداد الذي نفذ اوامرها في المنطقة الحدودية في جنوب لبنان. ووافقت القوى الغربية على التفكيك الفعلي للبنان، لا لإنقاذ المسيحيين المهددين ـ كما تكرر ذلك الحكومات الاسرائيلية تبريراً لتحركاتها ـ بل بسبب لا مبالاتها. وقد اصبح لبنان تحت الاحتلال العسكري، ونجح الجنرالات الاسرائيليون في تحريك الخيوط داخله حتى كادوا ان يسيئوا الى شهرة بلادهم العالمية وإلى أمنهم، وأخيراً، ساهمت تعقيدات العلاقة مع المسيحيين في حرب بين اسرائيل وسوريا لم تردها لا هذه ولا تلك.

عندما اندلعت الحرب الاهلية اخيراً في نيسان (ابريل) ١٩٧٥، اصبح جنوب لبنان وللمفارقة، منطقة سلام نادرة في بلد باتت معظم اجزائه تئن من وطأة العنف والدمار. السبب كان بسيطا: تراجع الفدائيون من المنطقة الحدودية وتوجهوا نحو بيروت للمشاركة في المعارك الاساسية. خلال عام ١٩٧٦، تمكن الاسرائيليون من استثمار الوضع الصعب لمسيحيي الجنوب فانتظرت اسرائيل بصبر، الى ان بات هؤلاء محاصرين بين الوحدات المسلمة التي انشقت عن الجيش الرسمي، وفي اللحظة التي اقفلت فيها هذه الوحدات منافذ العاصمة، وقطعت المياه، تدخلت اسرائيل، فوجد فيها مسيحيو الجنوب ملاذاً.

فجأة، افتتح ممر بات اسمه «الجدار الطيب» بين اسرائيل وجنوب لبنان. اخيراً الحلم الصهيوني بات حقيقة وبحجة مساعدة مسيحيي المنطقة الحدودية، احتلت اسرائيل اقتصادياً وعسكرياً مناطق جنوبية حدودية. وخلال سنوات، نجح الجنود الاسرائيليون في وقف التسلل الفلسطيني عبر الحدود. منذ ذلك اليوم اصبح استخدام التجمعات المسيحية المعزولة في تلك المنطقة وسيلة لتحقيق الحلم الاسرائيلي في تأمين وجود جنيني على

الارض، يمكن دعمه وتقويته حين تتطلب الظروف ذلك. لم يقتصر الظن على اللبنانيين وحدهم بأن اسرائيل تنوي ضم الارض التي احتلتها حتى نهر الليطاني، الطامعة بمياهه منذ زمن طويل. الديبلوماسيون الغربيون ايضاً، الذين لم ينسوا القرى المارونية الحدودية التي ضمتها اسرائيل في عام ١٩٤٨، كانوا على ثقة بأن اسرائيل تتقدم ما استطاعت الى ذلك سبيلاً.

قبل ستة اشهر من افتتاح «الجدار الطيب» كان مسيحيو الجنوب، الذين يبحثون عن سلاح ومعدات، على اتصال بإسرائيل. بدأ الاتصال داني شمعون قائد ميليشيا «النمور» عام ١٩٧٥. كان ذاك خياراً منطقياً. فكميل شمعون يعتبر جزءا من الصورة الشرق اوسطية منذ حوالى اربعين سنة. ووفقاً للمقاييس الاقليمية هو رجل دولة حقيقي، ورئيس جمهورية سابق. عام ١٩٥٥، قبل خمسة وعشرين عاماً تقريباً، نجد في يوميات شاريت اشارة الى زيارة مبعوث لبناني خاص من طرف الرئيس شمعون يحمل الرسالة التالية: «لبنان على استعداد لتوقيع سلام منفصل اذا قبلنا الشروط الثلاثة التالية: ضمان الحدود بين البلدين، مساعدة لبنان اذا هاجمته سوريا، وشراء فائض محاصيله الزراعية»، بمعنى آخر، لم يكن قدوم السلاح من اسرائيل امراً جديداً. خلال الحرب الاهلية عام ١٩٥٨ تلقى الرئيس اللبناني من الاسرائيليين خمسمئة رشاش طومسون، وبريتا، وبرن. بعد بضع سنوات، تعاون رابين مع شمعون، كما كتب في مذكراته حين كان قائداً للمنطقة الشمالية، ليضعوا حداً لتسريب السلاح من سوريا الى لبنان، خشية انقلاب يطيح بالرئيس. الا ان المساعدة الاسرائيلية المادية الحقيقية، التي شملت المحروقات والمدفعية الثقيلة ودبابات «السوبر - شيرمن» الاميركية الصنع، والآلات الالكترونية المتقدمة، وحتى الثياب، لم تبدأ بالوصول الا بعد دخول القوات السورية فعلياً الى لبنان في ربيع ١٩٧٦.

ارادت اسرائيل تجميد خصميها الرئيسيين، السوريين

والفلسطينيين. أما الميليشيات المارونية في الشمال، التي انقذها التدخل السوري، فرأت في اسرائيل قوة تعويضية، تسمح لها بمواجهة نفوذ منقذها. ولاحظ الاسرائيليون حين قدموا خدماتهم انهم امام مجموعتين متمايزتين من امراء الحرب. بدا لهم شمعون في بادىء الامر افضل من آل الجميل الذين يشبهون النازيين الذين تأثر بهم بيار الجميل عقب رؤيته للالعاب الاولمبية في برلين عام ١٩٣٦. (مع العلم ان آل الجميل يقيمون منذ زمن طويل علاقات متينة مع القلة اليهودية في لبنان. وقد كان الكتائب حماتهم شبه الرسميين كما برهنوا على ذلك خلال حرب الايام الستة، اذ ضربت مجموعة من الميليشيا طوقاً محكماً حول الحي اليهودي في بيروت، وادي ابو جميل، منعاً لدخول عناصر غير مرغوب فيها). بالمقابل، كان شمعون معادياً للسوريين تماماً، بينما تضم الكتائب جناحاً ناقش في اللحظات الاخيرة تحالفاً مع السوريين.

تدبر الاسرائيليون أمرهم في البداية، كي لا يظهروا للفريقين اللبنانيين، الحليفين والمتنافسين، انهم يساعدون الاثنين معاً. حصل اللقاء الاول على مستوى القمة في نيسان (ابريل) ١٩٧٦ بين رابين رئيس الحكومة آنذاك، وكميل شمعون على متن سفينة حربية اسرائيلية داخل مرفأ جونية المسيحي. يتذكر بيريز وزير الدفاع في ذلك الوقت، ومهندس هذا اللقاء: «لقد اتصل بنا كل فريق على حدة». وروى لي احد الاسرائيليين الذين حضروا المفاوضات انه عندما حان دور الشيخ بيار لمقابلة الزوار، بدا مرتبكاً نوعا ما «فهي المرة الاولى التي يقابل فيها رئيس حكومة اسرائيلية ولا بد انه يحتاج لتجاوز الحاجز النفسي. وبالرغم من عصبيته، كان ذكياً، محنكاً، وذا احترام».

حرص الاسرائيليون منذ البداية، على مناصفة ما يرسلونه من اسلحة ومعدات بين الفريقين. هذه القسمة المتساوية سمحت لشمعون الذي لم تكن ميليشياه سوى مجموعة صغيرة قياساً الى الآلة العسكرية الكتائبية،

التي تعمل منذ عدة اجيال، بجذب اعداد من الرجال. الا انه لم يتمكن من مواجهة الكتائب لا عدداً ولا انضباطاً. اضاف الشمعونيون الى رصيدهم من الحرب، ما جمعوه من اثمان السلاح الذي باعوه الى الكتائب والى الميليشيات المسيحية الاخرى. منذ تموز (يوليو) بلغ حجم المعدات الاسرائيلية المرسلة نسبة دفعت احد الديبلوماسيين الاميركيين في بيروت الى القول: «إن المسيحيين يتدبرون امرهم جيداً بمساعدة اسرائيل، حتى انه لا داعٍ لأن نتدخل، على افتراض اننا نجرؤ على ذلك».

منذ البداية اوضح الاسرائيليون لموارنة الشمال ان استعدادهم لمساعدتهم للدفاع عن انفسهم، لا يعني استعدادهم للقتال مكانهم «مبدأ نيكسون»، هذا ما كان يطلقه بيريز على السياسة الاميركية التي تسلح الحلفاء الاجانب، دون ان تقاتل الى جانبهم. واضاف مشيراً الى مسيحيي لبنان: «انني معجب بهم. لقد قاتلوا بشجاعة، رغم انهم رومنطيقيون نوعا ما بنظرنا». ملمحاً، على ما يبدو، الى نقص تنظيمهم العسكري. مع مرور الوقت بدأ المسيحيون يشركون الاسرائيليين في تفاصيل خططهم اللبنانية كافة، وفي مناسبات عدة، اوشكوا ان يثيروا مواجهة مع سوريا، اوسع مما تريد اسرائيل. الا ان قادة حزب العمل الاسرائيلي، من خلال عدة لقاءات لي معهم في ١٩٨٠، بعد ان فقدوا السلطة، اصروا على انهم كانوا شديدي الصراحة مع المسيحيين؛ «لم اخدعهم مطلقاً» قال لي رابين. وكأنه ظن انني سأقول له إن اسرائيل حاولت الإفادة من عدم خبرة امراء الحرب. ويؤكد المسؤولون الاسرائيليون، وحتى بعض الموارنة، كداني شمعون، ان المسيحيين لم يطلبوا ولم يوعدوا بأي شيء آخر سوى المساعدة المادية، الا في حالة التعرض للمذابح. الا ان الموارنة يحبون الاشارة ايضاً الى انهم والاسرائيليين كانوا في مناسبات عدة على وشك القيام بعمليات هامة مشتركة، لكنها كانت تلغى في آخر لحظة.

حتى في ظل حكومة رابين، اكدت التصريحات الرسمية على حماية مسيحيي لبنان. كان بعض الاسرائيليين، اكثر حدة فيما يتعلق بعلاقات بلاده مع المسيحيين، وارتأى ان تقتصر على الشريط الحدودي، لا ان تمتد الى بيروت والى قلب المنطقة المسيحية ايضاً في الشمال. الاسرائيليون ذوو الاطلاع يعرفون تماماً ان المسيحيين لا يشكلون اكثر من عشرة او خمسة عشر بالمئة من السكان، في المنطقة الحدودية.

يقول أحد الاسرائيليين المطلعين على ما يدور في أوساط القوات المسلحة: « في الواقع لا شأن لنا بهؤلاء المسيحيين. ان علاقتنا معهم تشبه الزواج الحديث: بضع سنوات معاً وبعدها من يدري؟ اجل، من يدري؟ اجل، لقد ساعد مسيحيو لبنان على تمرير اليهود العراقيين والسوريين الى اسرائيل، حتى منتصف الستينات، ولكن علينا ان ننظر الى الامور كما هي: فنحن شديدو القسوة مع رجالنا. نستخدمهم حتى الامتصاص. عندما بدأ المسيحيون علاقتهم مع اسرائيل على مستوى عال كان ذلك مكسباً لنا. ولكن هم، ماذا جنوا؟ مزيداً من الاسلحة لتحدي السوريين».

«ان مصلحة اسرائيل لا تقتصر على ميدان المعلومات. ففي هذا المجال، لنا صلات مع المسيحيين منذ زمن بعيد جداً. وهي ليست في ارباك السوريين وانهاك منظمة التحرير الفلسطينية فقط، لكنها ايضاً ان تكون لنا منذ اليوم كلمتنا في شأن الحكومات اللبنانية القادمة. انه دائماً شيء جميل ان يكون لنا اصدقاء في بلد معاد».

الا ان السياسة الاسرائيلية مع مسيحيي شمال لبنان، كانت تتلخص في المحافظة على رأس الغريق خارج الماء. فقد اشتكى امامي داني شمعون مثلاً من الاسرائيليين الذين لم يمدوه بما يلزم خلال حصار تل الزعتر الذي استمر اثنين وخمسين يوماً عام ١٩٧٦. «كانوا يريدون تأخير الاحتضار ما امكن». كما اردف أحد المقرّبين من والده: «لم يشأ

الاسرائيليون مطلقاً ان نربح هذه المعركة. فهم لم يزودونا بأي طلقة الا للدفاع عن انفسنا». بعد بضعة اسابيع من اللقاء الاول بين الاسرائيليين وشمعون في عرض البحر في جونية، غادرت الدفعات الاولى من الميليشيات المسيحية الى اسرائيل، عبر قبرص، لتتلقى تدريباً عسكرياً مكثفاً. وبين ليلة وضحاها، برزت بعض الملامح الاسرائيلية النموذجية في سلوك الميليشيات، من احذيتهم واسلحتهم وزيهم الى طريقتهم في حمل الرشاش. والى جنوب لبنان، وصل بعض افراد الميليشيا من جونية، عبر مرفأ حيفا الاسرائيلي، لشد ازر اخوانهم في المناطق المسيحية.

منذ بداية عام ١٩٧٦، كانت السياسة الحدودية ـ خصوصاً تلك المتعلقة «بالجدار الطيب» ـ مثار تناقضات وجدل. واذا كانت السياسة الاسرائيلية تبدو انتحارية في بعض الاحيان، فإن هذا لا يمنع اعجاب العديد من الديبلوماسيين الاميركيين بها، لانها على الأقل موجودة. يبدو ان السياسة الاميركية الوحيدة البارزة، تتجسد فيما تطلق عليه الاوساط الديبلوماسية «حرب السفارتين»، اي السفارة الاميركية في بيروت، والسفارة الاميركية في تل ابيب. (في الواقع، حتى هذه الاخيرة نفسها كانت منقسمة، فالسفير صموئيل لويس، غالباً ما كان يفرض آراءه على مرؤوسيه الذين لا يشاركونه توجهاته الثابتة المؤيدة لاسرائيل). السفارة في بيروت، تطالب بإقفال «الجدار الطيب»، انسجاماً مع تكرارها لسيادة واستقلال لبنان ووحدة اراضيه. بينما يردد لويس ومعاونوه في تل ابيب وجهة النظر الاسرائيلية.

كانت السفارة في بيروت عاجزة عن فرض وجهة نظرها، رغم ان المصالح السياسية الاميركية باتت على المحك. هكذا اخفق دبلوماسيوها في محاولاتهم كافة لاقفال إذاعة «صوت الامل» التي بناها عام ١٩٧٩، انجيليون من كاليفورنيا بمساعدة الاسرائيليين، في المنطقة الحدودية الواقعة تحت نفوذ الرائد حداد.

إن افضل ما يعكس انتصار سفارة تل ابيب على سفارة بيروت، في السبعينات، هو تسامح واشنطن إزاء استعمال اسرائيل الواسع للاسلحة الاميركية في لبنان. مرة واحدة على الاقل، وضع احد الضباط الاميركيين، من مراقبي الامم المتحدة العسكريين في جنوب لبنان، امام الضباط الاسرائيليين صوراً للبنانيين مدنيين ضحايا القصف الاسرائيلي بالسلاح الاميركي. وهدد الضابط بنشر الصور، اذا لم يتوقف القصف في قطاعه.. رضخ الاسرائيليون. تبنى جون غونتر دين السفير الاميركي في بيروت، موقفاً مشابهاً. فأدان عام ١٩٨٠ مرتين خلال اسبوع واحد الهجمات الاسرائيلية القاسية على جنوب لبنان التي تسببت بقتل المدنيين اللبنانيين وليس الفدائيين الفلسطينيين.

بعد أقل من اسبوع على امتعاض الادارة الاميركية من تصريح دين، نظراً لاقتراب الانتخابات الاميركية، هوجم موكب هذا الاخير في بيروت وأمطرت سيارته «الكرايزلر» السوداء المصفحة بوابل من رصاص الاسلحة الاوتوماتيكية، وألقيت قنبلة يدوية ما بين سيارة السفير وسيارات الامن اللبناني المرافق له. كان الموكب قد ابتعد لتوه عن منطقة تقع بالقرب من منزله داخل العشرة كيلومترات المربعة مما تبقى من الاراضي التي تسيطر عليها الحكومة اللبنانية المركزية. فتح مرافقو دين الأحد عشر، النار على المهاجمين فأرغموهم على التوقف. أُلقي القبض على ثلاثة منهم لفترة وجيزة، ثم تركوا. في بيروت ساد لغط عام ينسب هذا الهجوم الى القوات اللبنانية التي تعمل وفقاً لاوامر اسرائيل. بعد انتصار ريغان في الانتخابات، ألح الاسرائيليون على نقل دين من لبنان، فرحل بعد اشهر.

توج العنف بالاجتياح الاسرائيلي عام ١٩٧٨. كان التدمير على مستوى ما حصل في فييتنام. ارتكبت فظائع لا مثيل لها. مدنيون بالمئات قضوا تحت وابل القصف الجوي والبري. مائتا الف شخص نزحوا نحو الشمال، هرباً من المناطق الخطرة. الفلسطينيون تراجعوا الى شمال

الليطاني . . . اخيراً وبعد ضغوطات اميركية شديدة اضطر الاسرائيليون للتوقف قبل ان يسلموا المنطقة بأكملها لميليشيا الرائد حداد. وسحبوا جنودهم إثر رسالة من كارتر الى بيغن يهدد فيها هذا الاخير بمنع شحن الاسلحة ووقف المساعدة الاقتصادية والموافقة في الامم المتحدة على اقتراح بإدانة الاحتلال الاسرائيلي. فاستسلم بيغن.

فيما بعد، تذكر احد المسؤولين السياسيين في واشنطن ان وزير الخارجية الاسرائيلي آنذاك، موشي دايان، واثناء محادثاته مع الاميركيين، في إحدى زياراته للولايات المتحدة، أنكر وجود الدبابات م ـ ١١٣ الاميركية الصنع في جنوب لبنان. (لأن ذلك يعتبر خرقاً لاتفاق ١٩٥٢). واصرّ على ان هذا التقرير غير صحيح. «إلا ان إحدى الصور التي التقطتها الاقمار الصناعية، في طقس جيد، بيّنت بوضوح هذه الآليات في احدى القرى الجنوبية. استشاط كارتر غيظا حين رأى الصورة. وقال لا احب ان يُكذب علي، سوف أخبر الكونغرس ليضع حداً للمساعدة اذا لم تغادر هذه الآليات لبنان خلال اربع وعشرين ساعة.

ما لبث كارتر، ان كف عن قساوته. على كل حال، حتى حين كان كذلك، لم يكن لبنان على رأس الاولويات في علاقاتنا مع اسرائيل: «كان الثالث او الرابع. حتى في عامي ١٩٧٨ و١٩٧٩، حين اثقلنا على بيغن ـ كنا نرسل له احياناً ثلاث برقيات يومياً ـ كان ذلك من نمط المشاكل الثانوية. ثم وبسبب الاهمال التام، توقف الامر نهائياً. لم يبق في واشنطن شخص واحد يهتم بلبنان، او على استعداد للتورط من أجله».

طيلة شهر آب (أغسطس) ١٩٧٨، حاولت كل من فرنسا والولايات المتحدة، اقناع القادة المسيحيين بالتخلي عن الارتماء في احضان اسرائيل. كتب شمعون في يومياته ان سفير فرنسا هوبير أرغو أنذره بأن اسرائيل «غير مستعدة لشن حرب من اجلهم». فأجاب شمعون: «ان الفكر الانهزامي لعام ١٩٤٠ لا يزال يسيطر على الاوساط الديبلوماسية

الفرنسية». أما باركر، السفير الاميركي فنصح شمعون بألا يحصر نفسه في مسألة الاختيار بين اميركا واسرائيل. فأميركا أكثر مصداقية، لأن اسرائيل لا تستطيع الوفاء بوعودها كافة. إزاء هذه الصورة في ذهن الساسة اللبنانيين، كان الاسرائيليون يطلقون التصريحات المعادية للسوريين المؤيدة للمسيحيين. بيغن نفسه تحدث عن المذبحة، رافايل إيتان قائد الاركان اعلن ان جيشه «مستعد لكل الاحتمالات في لبنان»، كما قارن عدة اعضاء في الكنيست، المسيحيين في لبنان باليهود في غيتو فرصوفيا عام ١٩٤١، وأدانوا الضغوط الاميركية التي تمنع اسرائيل من مساعدتهم. في ٢٣ آب (اغسطس) سافر شمعون بحراً الى اسرائيل حيث استقبل في منزل بيغن، بحضور دايان وزير الخارجية، وعازار وايزمن وزير الدفاع: «رغم التحذيرات والتهديدات الاميركية، قرر بيغن واصدقاؤه مساعدتنا دون تحفظ، ضمن إمكاناتهم ودون اي شرط سياسي او اي شرط آخر». هذا ما ذكره شمعون في يومياته. احد الاصدقاء اللبنانيين نصح الرئيس الاسبق بألا يثق ثقة عمياء بالقادة الاسرائيليين، فأجابه هذا الاخير ان معرفتك بالسياسة، تشبه معرفتي باللغة الصينية.

كان بعض الاسرائيليين مقتنعاً بأن بيغن تمادى في الكلام اكثر مما يفكر واعطى انطباعاً فعلياً لشمعون هذه المرة، بأن اسرائيل ستساعد مسيحيي لبنان للتخلص من السوريين. الا ان منطق الامور في السياسة الشرق اوسطية، كان يدفع البراهين في اتجاه مغاير لمثل هذه التحليلات. فمفاوضات كمب ديفيد بدأت في ٦ ايلول (سبتمبر) لتنتهي في ١٨ منه. حتى الاسرائيليين كانوا يرون ان بيغن قد تورط في الوعد الذي قطعه للبنانيين، وان لا خيار امامه سوى التضحية بأصدقائه المسيحيين لانقاذ مصلحته العليا التي تتلخص في تحالف اسرائيل مع الولايات المتحدة. بعد ايام من توقيع اتفاقات «كامب ديفيد»، اندلعت اشتباكات جديدة في بيروت بين مسيحيين وسوريين. في تصريحين

منفصلين ـ لكنهما وللغرابة متشابهان اعلن كل من نائب الرئيس الاميركي ولتر مونديل، ووزير الخارجية الفرنسية لوي دي غرينغو، ان المسيحيين هم الذين اثاروا السوريين.

زادت اتفاقات «كامب ديفيد» التي نصت على سلام منفرد بين اسرائيل ومصر، من الاحساس بالكارثة لدى اللبنانيين، لأن هؤلاء ادركوا منذ زمن ان قطيعة مماثلة في العالم العربي ستكون نتيجتها انفجار العنف على ارضهم بالذات. ورأى بعض القادة المسيحيين ان مثل هذه الاتفاقات تعطي لسوريا الذريعة المثالية لتنتقل الى الهجوم، نظراً لأن اسرائيل باتت مقيدة اليدين. لكن في كل الحالات أصيب امراء الحرب بالاحباط من قلة اهتمام الدولة العبرية. هذا دون ان نتكلم عن غياب مساعدتها العسكرية. احد المسيحيين النافذين من ذوي الاطلاع كان على ثقة تامة بأن الاسرائيليين مارسوا معهم مزحة غليظة: «خلال القصف في ايلول وتشرين الاول (سبتمبر واكتوبر) كان الشباب ينتظرون على الشاطىء الليلة تلو الليلة، الا ان الانزال الاسرائيلي لم يحصل مطلقاً».

في أحد الايام العصيبة دعا شمعون ضباطه الرئيسيين للبحث في تعطيل قدرة المدافع السورية من عيار ٢٤٠ ملم المنصوبة في التلال المشرفة على بيروت. هذه الاسلحة كانت تزرع الرعب وتدمر ابنية بأسرها. ادرك شمعون ان هجوماً على الارض غير ممكن، وان نصب بطاريات مضادة أمر صعب نظراً لطبيعة الارض، فتناول قصاصة ورق انتزعها من دفتر صغير ودوّن عليها بضع كلمات ثم دفعها الى سكرتيرته. بعد اربع ساعات عادت السكرتيرة ومعها الرد. عبر نظارتيه السميكتين تمعن في الرسالة المطبوعة وصرخ: «أنذال». ثم رمى الورقة بعد ان عصرها بين يديه. بعد ان خرج الرئيس التقطها احد الحضور، وقرأ: «نأسف لعدم استطاعتنا القتال الى جانبكم» دون توقيع.

عندما اعلن وقف اطلاق النار في تشرين الاول (اكتوبر) لم يقر القادة المسيحيون بذنبهم، اما بعض نظرائهم الاسرائيليين فطرحوا على الاقل تساؤلاً: ألم نوشك ان نتحرك عبر هؤلاء الشياطين اللبنانيين؟ من غرفته المحصنة تحت الارض، التي بقي فيها اثناء القصف السوري، دعا شمعون اسرائيل الى ان تكون على مستوى ما تمثل، اي ضمناً ان تحفظ وعودها. وجواباً على سؤال كم سيدوم وقف اطلاق النار؟ قال شمعون للجيروزالم بوست: «بصراحة، الامر يتعلق بجدية الوعود الاسرائيلية. اذا التزمت اسرائيل، فإن الميليشيات سوف تفتح النار لاثارة السوريين. ان قياداتنا تعتمد على اسرائيل لخلق دولة مسيحية تغطي عشرة آلاف كلم مربع من الارض اللبنانية». الا ان هذه المساحة، ليست في الحقيقة سوى تلك المساحة الشهيرة للـ١٠٤٥٢كلم^{2}. اذاً ضاعف شمعون الرهان، فانطلق من تأسيس دويلة مسيحية الى استعادة الهيمنة المسيحية على البلد بأسره من دون اي رابط بين الفكرتين.

في الفترة نفسها تقريباً، اعلن بيغن انه سيفكر «الف مرة» قبل ان يرسل جنوداً اسرائيليين بعيداً داخل لبنان لانقاذ مسيحيي الشمال. ويبدو لاول مرة ان رئيس الوزراء قد حمل محمل الجد انذارات واشنطن في تهدئة الصقور الاسرائيلية. على كل حال، وخارج اطار بعض التصريحات المشجعة والمؤيدة اثناء المعارك بين المسيحيين والسوريين، اكتفت اسرائيل بقصف بعض المواقع الفلسطينية على الشاطىء جنوب لبنان، بعيداً عن بيروت الشرقية ومسيحييها، الذين يتلقون الضربة السورية. هذا السلوك الاناني لم يغب عن بال حلفائها اللبنانيين الذين اقتنعوا أن اسرائيل قد تخلت عنهم، الا انهم سرعان ما نسوا هذا الدرس وحاولوا ان يجروا الاسرائيليين مرة ثانية، الى مجابهة جديدة مع السوريين. كان الامر بالنسبة لهم ـ من القصف على الشرقية الى استحالة المساعدة الاسرائيلية ـ كارثة حقيقية. مع الوقت، حاول

بعض القادة الموارنة في الاشرفية ان يقللوا من مسؤوليتهم الذاتية ويحملوا وزر العمليات السورية الى سليمان فرنجية، حليفهم السابق. مؤكدين انه هو الذي اقنع السوريين بتدمير القطاع المسيحي من العاصمة انتقاماً لمقتل ابنه طوني على يد الكتائب في حزيران (يونيو) الماضي. كانت صرخات الميليشيات ترتفع منددة بالمذبحة التي حصلت، لكن عدد الضحايا في الواقع لم يتجاوز المائتين مطلقاً، معظمهم من المدنيين، كما جرت العادة. وما الروايات حول احراق الجثث في شوارع العاصمة الا محض اختلاق. الحقيقة ان المسيحيين ارتكبوا اخطاء فادحة في تقييم الامور.

اخيراً انسحب السوريون من بيروت الشرقية. الا ان الكثير من المسيحيين ظل مقتنعاً بأن الثمن الذي دُفع - خسائر مادية، وتمزق اجتماعي واقتصادي - كان باهظاً جداً.

بعد شهر تقريباً، صادفت في الكسليك، احد الرهبان الذين اعرفهم منذ زمن .سألته عما كان الهدف الحقيقي فأجاب: «ظننا أن بإمكاننا اللعب مع الاسرائيليين، كما يفعلون تماماً مع الاميركان».

■ وما الذي حصل؟

- لا شيء. لقد تسببنا في احداث عجزنا عن ايقافها.

■ كان ذلك مغامرة غريبة ولا شك، حتى وفقاً لمعاييركم، اليس كذلك؟

- اجل. شخصياً لم اقتنع ابداً. ولكن مثل القديس توما اردت رؤية البرهان وما اذا كان وجوده حقيقياً. الا ان الامر لم يكن كذلك. فالاسرائيليون لم يحركوا ساكناً.

هذا الدرس لم يحفظه، لا امراء الحرب المسيحيون، ولا الصقور

الاسرائيليون، الذين يتقاسمون الاتجاه نفسه، ولم يمنعهم من تكرار المحاولة دون اعتبار للمخاطر التي تهدد مصالحهم الاساسية. في البداية، كانت كل مغامرة جديدة توحي بأن «لا بديل عن الجرأة لكسب الأمور». الا ان بعض الانتصارات السهلة في البداية، جعلتهم في دوامة حقيقية لا مثيل لها من العنف والوحشية والفظاعة. اثناء غزو لبنان عام ١٩٧٨، ارتكب الاسرائيليون انفسهم فظائع مخيفة، وشهدوا فظائع مماثلة قام بها حلفاؤهم اللبنانيون. حتى موقف وايزمن تجاه لبنان، فالله يعلم انه لم يكن موقفاً حمائمياً. ففي كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ اعلن هذا الاخير تغييراً في سياسة بلده: ومن الآن فصاعداً لن تضرب القوى الاسرائيلية رداً على هجمات الفدائيين الفلسطينيين ضد الدولة العبرية، «بل اين ومتى ترى ذلك مناسباً». من هنا ولدت فكرة الهجوم الوقائي، التي حولت جزءاً واسعاً من ارض لبنان ومن اراض ابعد من ذلك الى منطقة للاهداف الحرة.

ترك وايزمن الحكومة بعد شهرين. باتت الغارات الاسرائيلية على لبنان اكثر جرأة وتعقيداً. كادت ان تصبح «فناً من اجل الفن»، كما لاحظ ذلك أحد عسكريي الامم المتحدة.

كان جنوب لبنان ايضاً بالنسبة لاسرائيل، حنفية سهلة تفتحها وتقفلها ساعة تشاء، اما لتصعيد الضغوط الاقليمية او لتخفيفها. ولكي يسير أمر هذه الحنفية على ما يرام، يجب ان يبقى الفلسطينيون خصماً حياً. والله يعلم اذا كانوا ذوي فائدة لحكومة بيغن اثناء الانتخابات. هكذا تحول لبنان الى ما يسميه احد الخبراء العسكريين الاسرائيليين ارضاً خصبة «للمناورات الكبيرة على اهداف بشرية حية».

ترك سكرتير الدولة الاميركي الجديد، ألكسندر هيغ، اثناء جولته في الشرق الاوسط، انطباعا لدى اسرائيل بأن الادارة الاميركية «تتفهم حاجة هذه الاخيرة لمحاربة الارهاب». هذا ما اكده لي ايضاً ديفيد

كيمحي مدير عام وزارة الخارجية الاسرائيلية، وأحد اكبر مسؤولي الموساد، المكلفين بشؤون المسيحيين في لبنان.

عندما وصل ألكسندر هيغ الى تل ابيب كانت المعارك على اشدها في زحلة بين السوريين وميليشيات بشير الجميل. هذه المدينة المسيحية، سكانها مئة وخمسون الف نسمة، تقع على السفح الشرقي للسلسلة اللبنانية وتشرف على سهل البقاع الخصيب. اكثريتها الساحقة من الروم الكاثوليك وليس من الموارنة؛ لم يكن للكتائب فيها سابقاً اي نفوذ ملحوظ. الا انه، ومنذ تموز (يوليو) الماضي، الذي شهد تصفية نمور شمعون في الغيتو الماروني، دفع منطق آل الجميل لمد سلطتهم الى اكبر عدد ممكن من المناطق المسيحية. كما ان تحقيق انتصار في زحلة سوف يسمح لبشير بزيادة قواته ويقوي مطامحه في دور قائد المسيحيين كافة، وليس الموارنة فقط.

قبل عيد الميلاد تماماً، شن رجاله في زحلة معركة قصيرة ضد السوريين، إلا أنها كانت دامية، ما لبثت ان هدأت الامور اثرها. بعد بضعة اشهر أرسل الاسرائيليون، وفقاً لمصادر المعلومات الغربية، مروحيات لنقل رجال بشير ومعداتهم الى الجبل، فوق المدينة. أدرك السوريون، متأخراً نوعاً ما، أن زحلة تشرف على الطريق الاستراتيجي بين بيروت ودمشق، والتهديد سوف يتفاقم اذا ما تمكن الاسرائيليون من شق طريق عبر خطوط قوات الطوارىء الدولية وصعدوا جنوبي البقاع ليتصلوا مع رجال بشير. حين اكتشف السوريون طريقاً قيد الاعداد، يصل زحلة بالغيتو الماروني عبر الجبال، تأكدت مخاوفهم. وهكذا ردوا في أول نيسان (ابريل) بالطريقة الوحيدة التي يعرفونها في التعامل مع الميليشيات المسيحية بأقصى قسوة ممكنة.

في اليوم الاول ابتهج اهالي زحلة اذ فقَدَ السوريون في محاولتهم للتمكن من مواقع مرتفعة، ثلاث آليات مصفحة واكثر من

عشرين جندياً. كان الرد في اليوم التالي قصفاً عنيفاً على بيروت الشرقية، أوقع العديد من الضحايا وأفرغ القطاع المسيحي من سكانه حوالى ستة اشهر. خلال هذه الفترة بدأ حصار زحلة الذي لم ينتهِ الا في ٣٠ حزيران (يونيو) يوم الانتخابات في اسرائيل، حيث أُعتبر ان الاسرائيليين مشغولون لدرجة لا تسمح لهم بالتدخل لعرقلة الامر. قبل ان تغادر ميليشيات الجميل زحلة في باص - ليحتفى بها بشكل مسرحي في مركز القيادة العامة لبشير في بيروت الشرقية - وجدت الولايات المتحدة نفسها غارقة حتى أذنيها في أزمة عالمية هامة. وقد اضطر ريغان، لغياب تأثيره في دمشق، الى اللجوء لحلفائه السعوديين، ليفاوض عبرهم سبيل السلام بين المتقاتلين.

لم يكن لألكسندر هيغ أي فائدة منظورة في مفاقمة ازمة زحلة (مع العلم ان استثناءه لدمشق من جولته الشرق اوسطية، أهان السوريين واكد حذرهم تجاه حكومة ريغان). فعلت منظمة التحرير الفلسطينية المستحيل لتبقى خارج الصراع رغم سياق العمليات الاسرائيلية المتواصلة ضد مواقعها. فالفلسطينيون، بخبرتهم الطويلة في تقديم الضحايا، يعرفون جيداً انه من غير المناسب ان يظهروا حتى أرنبة انفهم اثناء الحملة الانتخابية الاسرائيلية. اثناء هبوطه في اسرائيل، ادان ألكسندر هيغ «وحشية جيش الاحتلال» السوري في لبنان، فكان هذا التصريح هدية غير متوقعة للذين يريدون الاستفادة من الازمة. لم يكن الصقور الاسرائيليون معادين لفكرة بث الفتنة قليلاً في الخارج، خاصة في اجواء حملة انتخابية يبحث فيها بيغن عما يغطي به نتائج سياسته المالية المشؤومة. اما مسيحيو لبنان فيرغبون في الدعم الاسرائيلي وفي إثارة ازمة عالمية لكي يرغموا السوريين على مغادرة بلادهم. في نهاية المطاف، احبطت آمال هؤلاء وهؤلاء، والرابح الوحيد من العملية بأسرها كان سوريا.

في بداية الازمة أعيد استظهار الموضوعات القديمة المألوفة. حتى

قبل ان تبدأ المعارك، كانت اجهزة الاستخبارات الاسرائيلية تكيل الثناء لبشير الجميل امام الصحافيين الاجانب، وتقترح على هؤلاء اجراء المقابلات مع هذا الزعيم المسيحي الشاب. خلال الايام الاولى للمعارك، دعت اجهزة الدعاية لدى الميليشيات المسيحية، كما فعلت عام ١٩٧٨، العالم بأسره لانقاذ المسيحيين المحاصرين المهددين بالإبادة. وأمام دهشتهم، نجحت هذه المناورة. فقد ساهمت الصحافة لا ارادياً في العملية، عبر نقلها للإدعاءات المسيحية حول احداث لم يسمح لصحافي واحد بتغطيتها فعلياً. احدى وكالات الصحافة الاميركية اصرّت على عدم اعتبار مسيحيي زحلة من الروم، وذلك لكسب تعاطف اكبر عدد ممكن من الجمهور في الولايات المتحدة. قلة من المراسلين في بيروت بسبب التبديل الدائم بين صفوفهم تعرفوا مسبقاً على الحملة الدعائية للميليشيات المسيحية. (في هذا الوقت، حصل الاسرائيليون والمسيحيون على نتائج باهرة من التنسيق الدعائي فيما بينهم وقد شرح لي حاييم هرتزوغ سفير اسرائيل لدى الامم المتحدة ورئيس الدولة العبرية فيما بعد، انه اذهل الممثلين العرب، حين عرض امامهم برقيات وردته من اميركيين من اصل لبناني، تهنىء اسرائيل لانها حمت مواطنيهم من منظمة التحرير الفلسطينية. في الكنائس المارونية في الولايات المتحدة أقيمت الصلوات لاجل السفير المصاب، ولاجل اسرائيل ومسيحيي لبنان. «واجهنا الكثير من الصعوبات في تنظيم اللبنانيين في اميركا، ـ أسرّ لي هرتزوغ ـ لكننا نجحنا اخيراً في تعليمهم خيوط المهنة كافة».

قبل ثلاثة اشهر من الانتخابات سارع الصقور الاسرائيليون لفظياً الى الدفاع عن حلفائهم المسيحيين، املاً في تثبيت امكانية انتخاب بيغن مجدداً. هذا الاخير اكد في مناسبات عدة، إن الولايات المتحدة تغيرت «وانها تتفق معنا الآن في ان السوريين ليسوا عنصر استقرار، بل قوة احتلال متوحشة على استعداد لذبح الاقلية المسيحية من رجال ونساء

واطفال». لم تصدر واشنطن اي تكذيب رسمي. موشي آرينز، رئيس لجنة الدفاع والشؤون الخارجية في الكنيست، وسفيراً في الولايات المتحدة ووزيراً للدفاع فيما بعد، أعلن انه منذ الحرب العالمية الثانية، لم تشهد مدينة تدميراً كالذي اصاب زحلة. وزير الزراعة آرييل شارون، ادان الصمت الذي يخيم على العالم امام مذبحة لبنان» وذكر، زوراً، ان عدد ضحايا الحرب منذ ١٩٧٥ بلغ مئة وعشرين الفا جُلّهم من المسيحيين. حاييم بارليف، الجنرال المتقاعد، مسؤول قضايا الدفاع الوطني داخل المعارضة العمالية، ظن نفسه هو الآخر مضطراً للمزايدة، فأكد ان مساعدة الاسرائيليين للمسيحيين قد تصل الى تدخل مباشر حتى في شمال لبنان. ولأول مرة منذ بدايات العلاقات بين اسرائيل ومسيحيي لبنان، اتفق اكبر حزبين سياسيين اسرائيليين على امكانية مساعدة مسيحيي الشمال وتزويدهم بأكثر من السلاح والمعدات المألوفة.

إلا أن الجنرال بن غال، من القيادة الشمالية، بصراحته العسكرية، كان اكثر الذين ادركوا سيكولوجية الميليشيات المسيحية. فأعلن ان المصالح الاسرائيلية والمسيحية متطابقة لان كلاهما يرغب في ارغام سوريا على مغادرة لبنان. وبرر «المبادرة» المسيحية، اشارة الى وجودهم الاستفزازي في زحلة، بأنها ذات اسباب نفسية داخلية وسياسية خارجية. واضاف: «اذا ساد الهدوء ثلاث سنوات، فسوف يُنسى حتى الوجود المسيحي نفسه». بتعبير آخر، كانت زحلة معركة، «اما ان تخاض الآن، واما فلا». وبصفته قائداً للجبهة الوحيدة «النشيطة» في الجيش الاسرائيلي كان بن غال يدافع عن مواقعه ايضاً. فلو بقيت هذه الجبهة هادئة، لبرزت احتمالات اشكال من المفاوضات مع السوريين والفلسطينيين معاً، او كلاً على حدة. رغم ذلك لم يتردد بن غال في اعتبار اصدقائه المسيحيين قوة غير كافية لمواجهة الجيش السوري، فأشار لهم: «بعد حد معين، انتم مهددون بانفجار سيؤدي الى كارثة».

أدى خطر حصول هذه الكارثة، الى نقاش على اعلى مستويات النخبة السياسية الاسرائيلية بين الحمائم والصقور. والقراءة المتأنية للصحافة الاسرائيلية تظهر عمق المعارضة التي اثارتها ازمة زحلة. كانت اسرائيل امام منعطف تاريخي. فقراراتها لا تمس الآن مسيحيي لبنان والسوريين فقط، بل جملة علاقات حقيقية وواسعة خصوصاً مع واشنطن. فبيغن وجنرالاته يتجهون نحو نمط في العمل يهدد بإيقاع الاسرائيليين في فخ مبهم لاكثر بلدان الشرق الاوسط تعقيداً وخيانة. لا يعرفون عنه شيئا. فلبنان ليس سيناء اخرى «غير مأهولة». وهو ليس ضفة غربية وقطاع غزة. انه البلد الأكثر كثافة سكانية في الشرق الاوسط، فيه خليط عجيب من الاقليات. فيما بعد فقط تساءل شمعون بيريز، زعيم المعارضة العمالية بعد مجزرة شاتيلا، عما يفعله الجنود الاسرائيليون في بيروت الغربية، هذه المدينة التي تعج بالحقد والكراهية، وتثقلها الاسرار التي نعجز عن ولوجها؟.

إلا أن اسرائيليين آخرين، احسوا قبل ثمانية عشر شهراً بالاخطار المحتملة في عملية زحلة. يقول الصقور: «إننا ملتزمون اخلاقياً بانقاذ المسيحيين». فيرد الحمائم: من سيصدقنا؟

ـ يجب ان نضرب الآن، ـ يلح الصقور ـ لان سوريا معزولة وسط العالم العربي، بعيدة عن مصر، علاقاتها سيئة مع العراق ومصر، ومشوشة مع العربية السعودية.

ـ في الحقيقة ـ يقول الحمائم ـ إن تدخلاً الى جانب المسيحيين في الشمال سيكون افضل وسيلة لانهاء حالة العزلة التي تعيشها سوريا، وربما يشكل ذريعة للعراق ليوقف حربه المدمرة ضد ايران.

ـ لا بأس ـ يقول الصقور ـ ان حرباً ضد سوريا تسمح لنا باختبار نوايا مصر، فإذا هبت لنجدة سوريا، سيكون لاسرائيل الذريعة المنتظرة لرفض

التخلي عن آخر قطعة أرض لا تزال تحتلها في سيناء. أما اذا لم تتدخل، فإن الهوة التي تفصلها عن العالم العربي ستزداد اتساعاً.

ـ يجيب الحمائم: ان تكتيكاً من هذا النوع لن يزيد اصدقاءنا، لا في مصر، ولا في واشنطن، ونحن نحتاج لمثل هؤلاء دائماً.

ـ ان سحق الجيش السوري، اهم قوة عسكرية في غياب مصر، سوف يسمح لاسرائيل بعشر سنوات من الأمان.

ـ على ذلك يرد الحمائم: ان السوفيات سيعيدون بناء القوة العسكرية السورية مباشرة، وقد يحصل ذلك بأسرع مما فعلوه بعد حربي ١٩٦٧ و١٩٧٣، لأن معاهدة تعاون وصداقة وُقعت بين موسكو ودمشق.

أصرَّ الصقور ان اللحظة مؤاتية لسحق الفدائيين الفلسطينيين في بيروت وخارجها، والقضاء على بنيتهم التحتية تماماً. ولكن، يقول الحمائم كم مرة ادعى العسكريون الاسرائيليون انهم سحقوا هؤلاء الفدائيين انفسهم؟ لم يمنع هذا التساؤل الصقور من الالحاح ان مساعدتهم لمسيحيي لبنان، مهما كان السبب، ستحقق تبعية هؤلاء الكاملة مما يؤمن لاسرائيل حليفاً جديداً، اضافة الى حليفها المصري.

يجوز، قال الحمائم، ولكننا امام احتمال وجود قوات الامم المتحدة على الارض اللبنانية كافة، بدل أن تكون في الجنوب فقط، رغم ما يسببه ذلك لاسرائيل من ازعاج في المناورة.

الصقور: ان حكومة ريغان غير معادية لطرد السوريين والمقاتلين الفلسطينيين من لبنان.

الحمائم: سيجد السوفيات انفسهم مضطرين للتدخل وفقاً لنص معاهدتهم مع سوريا.

الصقور: ولو، ان حرباً صغيرة ضد سوريا سوف تزيد من حظ بيغن في اعادة انتخابه وتحول الانظار عن التضخم وعن الازمة الاقتصادية العامة.

الحمائم: هذا صحيح، لكن ليس هناك اقل شعبية من ضحايا حرب في بلد كإسرائيل، لا يزال يعاني صدمة خسائره من حرب ١٩٧٣.

هذه المرة، كانت حجة الحمائم هي الاقوى، ولم يخف الجنرال يهوشا ساغي مسؤول المخابرات العسكرية الاسرائيلية والخصم اللدود لتحالف «الموساد» مع «القوات اللبنانية»، اثناء مؤتمر صحافي، كشف فيه هويته ايضاً: «ان تعبير المذبحة الذي يستخدمه المسيحيون هو محض دعاية». وان عدد الضحايا المسيحيين يقدر بمئة وخمسين تقريباً. (في الواقع، طيلة فترة حصار زحلة، لم يقع اكثر من مئة قتيل من المسيحيين.). في منتصف نيسان (ابريل) ذكرت الصحافة الاسرائيلية ايضاً ان قسماً كبيراً من الادارة الاسرائيلية، يعتقد ان قيادات الميليشيا هي المسؤولة عن بدء المعارك ـ اما عن سوء تقدير، واما عن تخطيط حقيقي ـ من اجل دفع اسرائيل ضد سوريا في حرب لا ترغبها اي من الدولتين. ايغال يادين ايضاً ادان الذين سيجرون البلد الى فخ صراع موسع. كما طلب من الحكومة ان تضبط الرائد حداد «الذي يقصف السكان المدنيين في صور وصيدا بقذائف اسرائيلية».

في الثامن من نيسان (ابريل)، بعد ثلاثة ايام من مغادرة هيغ للقدس، وحتى قبل ان يرجح اتجاه الحمائم، أرسل دافيد كيمحي الى لبنان يحمل انباء غير سارة لبشير الجميل. دام اللقاء الذي كان عاصفاً ساعتين. قرأ كيمحي تصريحاً رسمياً للحكومة الاسرائيلية ـ دون ان يعطيه للجميل ـ مؤرخاً في ٢٨ آب (اغسطس) ١٩٧٨، تلتزم فيه اسرائيل «بالنظر ايجابياً» الى استخدام قوتها الجوية اذا هاجمت الطائرات السورية مسيحيي لبنان. لم يكن هذا الدعم هو ما يحلم به هؤلاء. ابتلع بشير الاهانة برباطة جأش. وبعد اقل من اسبوع كان يمكن سماعه وهو يردد: « ان الاسرائيليين اليوم لم يعودوا كما كانوا في ١٩٤٨، و١٩٥٦ و١٩٦٧. لقد فقدوا ثقتهم بأنفسهم. اننا نحن اليوم ما كانوا هم بالامس». يجوز، ولكن الوضع عملياً لا يبرر اطلاقاً هذه التصريحات لقائد حاذق. وبلغة عسكرية، لم تكن مواقع ميليشياته في زحلة وحولها، قادرة على الصمود مع أو بدون «الطريق الاستراتيجي الطويل» الذي لم

ينجز ابداً. في الواقع كان الوضع ميدانياً يستحيل معه الدفاع عن زحلة من قلب المنطقة المسيحية. وحتى يلقنوا بشير درساً، استولى السوريون على الطريق في قطاع جبل صنين. كانت العملية نفسية قبل كل شيء لان السوريين كانوا يسيطرون على خط المرتفعات بأكمله، باستثناء خمسة عشر كيلومتراً. هذه الطريقة التي وصل بها السوريون، اضافة الى وجودهم الفعلي ادى الى زرع الرعب في الغيتو الماروني. فقد باتت اهم مراكز الموارنة، بما فيها جونية، بيروت، والجبل، تحت مرمى المدفعية السورية. وفي ٢٥ نيسان (ابريل) نقلت المروحيات السورية الى خط المرتفعات هذا مجموعات من القوات الخاصة سرعان ما تمكنت من الوضع هناك بعد ان فوجىء رجال الميليشيات بوجودهم. بعد اقل من اربع وعشرين ساعة ادانت واشنطن رسمياً ما سمته «تغييراً ملحوظاً في الوضع الراهن». ثم اضطرت للتأكيد، دون اقناع، ان التصريح لا يهدف الى اعطاء الضوء الاخضر للتدخل الاسرائيلي. على كل، كان الامر على الاقل، عودة الى الموقف العلني المعادي للسوريين الذي اشار اليه هيغ اثناء زيارته لاسرائيل. حاول ريغان استدراك الوضع فكتب في رسالة الى الاسد جاء فيها: «ان سوريا تستطيع ان تلعب دوراً مركزياً في تحقيق سلام عادل في الشرق الاوسط».

رغم كل ذلك، اسقطت الطائرات الاسرائيلية من طراز ف١٥ ـ وف١٦، يوم الثلاثاء في ٢٨ نيسان (ابريل) مروحيتين سوريتين في سهل البقاع شمال طريق بيروت ـ دمشق. هذا الحادث الخطير حصل في الوقت نفسه الذي وصل فيه عبد الحليم خدام في سيارته الى المصنع، على الحدود اللبنانية السورية متوجهاً الى القصر الرئاسي في بعبدا لفرض «السلم السوري» على زعماء الميليشيات المسيحية الذين تركتهم اسرائيل لغاية الآن امام مصيرهم. كان الانطباع لدى كثير من اللبنانيين ان اسرائيل، جرياً على عادتها، سوف تتدخل لقطع الطريق

على أي حل سياسي للوضع الداخلي في لبنان بحجة انه لا يتوافق مع مصالحها الخاصة.

«رد حافظ الاسد بسرعة وحزم. في اليوم التالي ٢٩ نيسان (ابريل) ومع خيوط الفجر الاولى، كان السوريون يجتازون الحدود المجاورة في قافلات من الشاحنات المغطاة ونصبوا ثلاث بطاريات من صواريخ ارض ـ جو السوفياتية. . أنذر رئيس الحكومة الاسرائيلي السوريين مهدداً بتدمير الصواريخ اذا لم يتم سحبها بأسرع ما يمكن.

ابتهج المسيحيون، لا لأن رد الفعل الاسرائيلي المتأخر طمأنهم، بل لان بلدهم بات الآن مركزاً لأزمة عالمية. تضاعف حبورهم حين ارسلت حكومة ريغان، فيليب حبيب، احد المستشارين الحكوميين السابقين من اصل لبناني، الى الشرق الاوسط لتسوية المشاكل.

اتهم الخبراء العسكريون الاسرائيليون بيغن بأنه وقع في فخ شديد التعقيد. اذ ما كان ينبغي مطلقاً الامر بضرب هذه المروحيات، لانه حين فعل ذلك قدَّم للسوريين المبرر الذي يبحثون عنه منذ زمن طويل، لتفادي الخط الاحمر، ونشر الصواريخ في لبنان. صحيح ان وجود هذه الاجهزة شمالي طريق بيروت ـ دمشق لا يهدد امن اسرائيل، ولكن لو قبلت اسرائيل مبدأ وجودها في لبنان، فما الذي يمنع السوريين من نقلها الى الجنوب؟

داخل اسرائيل كانت الضغوط تزداد، وحبيب يسعى لمنع بيغن من ضرب هذه الصواريخ. لجأ بيغن بعد عجزه عن تنفيذ تهديده، وبعد أقل من اربع وعشرين ساعة على مغادرة حبيب لاسرائيل، الى ضرب اهداف لبنانية زاعماً انها للفدائيين.

لا شيء من كل ذلك اعجب مسيحيي لبنان الذين بدأوا الحديث، دون اقناع، عن تغيير المعسكر لان «الروس على الاقل يبقون الى جانب اصدقائهم». هذا الكلام يعبر عن مدى الاحباط الذي شعروا

به وهم يرون العالم بأسره، ما عداهم، يستفيد من الازمة. هذا بالاضافة الى ان سوريا عادت من جديد دولة اساسية في الشرق الاوسط. اما الاكثر ايلاماً للقيادات المارونية، فكانت النقاشات العلنية في البرلمان الاسرائيلي حول العلاقات معهم. بينما نفوا هم لغاية الآن، كل تهم التعامل مع اسرائيل. الا انهم باتوا الآن موضوعاً من مواضيع الانتخابات الاسرائيلية بين بيريز وبيغن. لم يكن لدى اي من الزعيمين الاسرائيليين اي قلق من الاحراج ـ وحتى من الصدمة ـ التي اصابت حلفاءهم المسيحيين، إثر هذه النقاشات العلنية.

في هذه اللحظة، التي هبط فيها بشير الجميل الى القاع، اتجه الاميركيون نحوه رسمياً. بعد لقائه الاول مع حبيب الذي لم يحصل منه على اي شيء فعلي، اعلن بشير الجميل ان التفهم الجديد الذي يبديه الاميركيون تجاه قضيتنا يعتبر «انتصاراً كبيراً بعد ست سنوات من النضال».

سقوط الجميع

مع تشكيل حكومة بيغن الجديدة في بداية آب ١٩٨١، غطَّت تناقضات السياسة الاسرائيلية في لبنان موجة حقيقية من العدوانية العسكرية. كان المهندس الأساسي للسياسة الجديدة وزير الدفاع آريل شارون الذي تمكن اخيراً من وضع اليد على هذه الحقيبة التي طالما رغب فيها، تلبية لميوله التي لم تبارحه طيلة حياته للعنف، والمغامرة والسلطة. عام ١٩٥٦، اثناء حملة السويس عصى شارون الاوامر ودفع كتيبته من المظليين ضد القوات المصرية في ممر متلا في سيناء حيث فقَدَ ثمانية وثلاثين جندياً، مما اعتبر كارثة على الجيش الاسرائيلي ذي الحرص الشديد على دماء رجاله. عانت مهنته باستمرار من هذه اللطخة، في الخمسينات حين كان على رأس الوحدة ١٠١ شن سلسلة من الغارات الحدودية ادت الى مقتل العديد من المدنيين العرب - ويقال ان فظائع ارتكبت. عام ١٩٧٣ ترك شارون الجيش - لم تتم الموافقة على ترقيته الى رتبة قائد للاركان بسبب فضيحته السابقة عام ١٩٥٦ - قبل اشهر تقريبا من حرب العبور بين مصر واسرائيل. في هذه الحرب تبسَّم له الحظ واصبح البطل الاسرائيلي الاوحد. بعد ان تمكن من تبديل وضعية ميؤوس منها بخطوة نادرة الجرأة وناجحة عبر اجتيازه لقناة السويس ومحاصرة الجيش المصري الثالث في صحراء سيناء. سمح له هذا الانتصار بعد الحرب بالانخراط في عمل سياسي يميني.

بعد اشهر، تقريباً، من وصوله الى الوزارة، اعلن شارون ان منطقة

النفوذ العسكري الاسرائيلي، يجب ان تمتد في الثمانينات، الى ابعد من العالم العربي «لتشمل تركيا، ايران، الباكستان، وصولاً الى افريقيا الوسطى والشمالية». وان اسرائيل «هي رابع قوة عسكرية في العالم». ونظير الكثيرين ممن سبقوه في وضعية مماثلة، كان شارون يؤيد السياسة الهجومية، ويفضل خوض معاركه في ارض العدو. اما اهدافه لتحقيق هيمنة اسرائيل على الشرق الاوسط بأسره فلم تكن مستترة. فهو يريد سحق منظمة التحرير الفلسطينية بما لها من قوة عسكرية وسياسية في لبنان، ضم اراضي الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلة، الاطاحة بالملك حسين لاعطاء الاردن للفلسطينيين الذين يشكلون ثلثي سكانه، زعزعة سوريا والعراق، والايحاء للممالك المحافظة المؤيدة للاميركيين في الخليج الفارسي بمزيج من الرعب والعرفان بالجميل لانقاذهم من ابتزاز منظمة التحرير وحمايتهم من توسع الثورة الايرانية.

هذه «الهيمنة العبرانية» تستعيد لنفسها الحلم القديم بإلغاء هيمنة المسلمين السنّة على مجمل الشرق الاوسط، عبر إيجاد دويلات مستقلة تحكمها اقليات دينية، او على الاقل تشجيع طموحات هذه الاقليات. هذا ما فعله تحديداً الفرنسيون والانكليز خلال انتدابهم على هذه المنطقة نفسها. لذا يجب مساعدة مسيحيي لبنان. ولم ينس الدروز والمسلمين الشيعة ايضاً، الذين يتواجدون في مناطق اكثر قرباً من الحدود الاسرائيلية.

إن أي تدخل في شؤون دولة مجاورة يتطلب بالتأكيد اسساً اقتصادية صلبة. مع العلم ان دين اسرائيل الخارجي ٢٥ مليار دولار وترتبط بالولايات المتحدة ارتباطاً تاماً، عبر الدعم العسكري، والمالي، والديبلوماسي. ان خمسة وعشرين عاماً من التسامح الاميركي والعناد الاسرائيلي - يضاف اليها منذ ١٩٧٥ شحنات ضخمة من المال والسلاح لقبول اسرائيل بالانسحاب من سيناء وبمشروع سلام كامب ديفيد - هي التي شجعت احلام العسكريين الاسرائيليين.

قبل اكثر من عشر سنوات، كان يسر موشي دايان القول لزواره: «ان الاميركيين يقدمون لنا المال، والمعدات والنصائح. نأخذ المال والمعدات، اما النصائح فلا». على كل حال، وكما يشير ديبلوماسي اميركي له خبرة طويلة في الشرق الاوسط، لاسرائيل دائماً «خطوة ونصف الى الامام» على حُماتها الآن، ورغم الانتقادات العالمية المتنامية ضد العدوانية الاسرائيلية، فإن الولايات المتحدة لا تقدم الا النصائح. هكذا اعدت حكومة بيغن الحرب الاسرائيلية ـ العربية الخامسة. بالنسبة للاسرائيليين، انه اول صراع من نوعه لا يكون فيه وجود دولتهم مهدداً. ما لم يدركه لا بيغن ولا شارون ـ رغم التحذيرات التي اطلقها كبار الخبراء الاسرائيليين قبل واثناء الغزو. ـ إن هذه الحرب ستدفع اسرائيل وسط مجتمع ملبّد قد يكون الاكثر وحشية و«إرهاقاً» في الشرق الاوسط.

قادت اسرائيل غزوها في لبنان، كما يرسل الملاكم السيء لكماته. كان ياسر عرفات متأكداً انها تتحضر لذلك منذ بداية ١٩٨٢. اما بشير الجميل فقال لمديري بعض الجرائد اللبنانية في آذار، «لا تندهشوا اذا نظرتم من نافذة مكتبكم، وشاهدتم الدبابات الاسرائيلية في الشارع». وخلال زيارة لواشنطن في الخريف الماضي، سُئل اخوه امين متى ـ وليس هل ـ سيحصل الغزو. كما أخبر الزعيم الدرزي وليد جنبلاط، الذي استقبل خلال الشتاء بأن الهجوم بات اكيداً.

إن الاسرائيليين الذين اصبحوا خبراء في فن الامر الواقع، بدأوا عملياً منذ موافقتهم على اتفاقات وقف اطلاق النار في ١٩٨١ باختلاق الحجج الملائمة لاجتياح لبنان. . رغم تحول عمليات الفدائيين في السنوات الاخيرة ـ بما في ذلك المجموعات الانفصالية ـ الى مجرد بهلوانيات حقيقية، كالطيران الشراعي، لانقاذ اسطورة قدرتهم على التسلل الى الاراضي الاسرائيلية. لم يتوقف سعي اسرائيل العنيد نحو هدفها. في كانون الثاني (يناير) امضى شارون ليلة ويومين في بيروت الشرقية مع الميليشيا المسيحية تحضيراً للغزو. في منتصف شباط (فبراير)

باتت العملية احد الاسرار الشائعة في العاصمة اللبنانية وواصلت اسرائيل شحن الاسلحة والمعدات الى المسيحيين. كان مكانهم المفضل في طبرجا في خليج صغير، لُقِّب «السفارة الاسرائيلية» نظراً لنشاطه الكثيف خارج اوقات العمل. اثارت هذه العلاقات لدى المسيحيين الذين يبحثون يائسين عن اي اشارة تبرهن على دعم الولايات المتحدة، غمزات ودهشات. كما اثارت المخابرات الاميركية المركزية اموراً مماثلة حين اتصلت بالقوات اللبنانية. في ربيع ١٩٨٢ كان القرار ينبع اساساً من الرغبة في الاقتراح على بشير الجميل اضافة الى امكانية تجديد اتفاقه مع اسرائيل تقديم المعلومات من جانب القوات اللبنانية حول منظمة التحرير وسوريا. كم باتت بعيدة تلك الايام التي اتهم فيها بشير الجميل بمحاولة اغتيال السفير جون غونتر دين!

في ٢٠ ايار (مايو) سافر شارون الى واشنطن حيث التقى سكرتير الدولة ألكسندر هيغ على انفراد، مما يفسر عدم صدور اي نص رسمي عن محادثاتهما. اكد هيغ بشدة، الذي لم يخف ابداً ميوله الاسرائيلية، انه لم يشجع او يؤيد مشاريع غزو الوزير الاسرائيلي. اما هذا الاخير فقال بأنه ذهب ليبلغ الاميركيين، بأن اجتياح لبنان سيحصل مهما كلّف الامر، وعلى الولايات المتحدة الا تفاجأ، كما حصل معها، اثر الغارة ضد المفاعل النووي العراقي. في لبنان، قال شارون لهيغ، «لا يسمح الوضع بأن نتأخر كثيراً». اكد الرئيس السابق كارتر فيما بعد ـ ما نفاه بحدة الشخص المعني ـ ان سكرتير الدولة اعطى الضوء الاخضر للعملية الاسرائيلية، هذا على كل حال ما يظنه اغلب الناس في الشرق الاوسط. اعتاد العرب، في اجواء التفكك السياسي المتردي الذي يعيشونه، على تحميل الولايات المتحدة مسؤولية كل شيء، كي يخفوا عجزهم الذاتي. الا ان معرفة مدى التبعية الاسرائيلية للولايات المتحدة، تجعل من المنصف التأكيد ان واشنطن وحدها كانت قادرة على ايقاف بيغن وشارون عندما بوشر الغزو. وبالتجربة، نحن نعلم، ان السياسة السلبية

المذكورة لم يكن لها اي تأثير على بيغن، كان على حكومة ريغان لو ارادت حقاً وضع حد للحرب في لبنان ان تتدخل بطريقة فعّالة، وحتى قاسية. او نندهش بعد ذلك، حين نعلم ان بشير الجميل اكتفى بالاصغاء، عندما قال له الديبلوماسيون الاميركيون ان واشنطن ستعارض الغزو؟ ثم اجاب: «ومع ذلك سيجتاح الاسرائيليون».

تدل البراهين المتوافرة على ان حكومة ريغان لم تفعل شيئا لتمنع العملية في مراحلها الاولى، خلافاً لرد الفعل الحيوي للرئيس كارتر في آذار ١٩٧٨ عندما اجتاح الاسرائيليون جنوب لبنان. في ١٩٨٢، رفضت الولايات المتحدة عدة مرات، الموافقة على قرارات مجلس الامن، بانسحاب اسرائيل المباشر من لبنان. لا بل ذهبت الى ابعد من ذلك وصوتت الى جانب الاسرائيليين الذين يؤكد، ماكيافيليو الشرق الاوسط كافة بأن هيغ كان ضالعاً معهم..

كانت الذريعة الرسمية للغزو في ٣ حزيران اثر اصابة السفير الاسرائيلي في لندن بجروح خطرة. وفقاً لعقيدة الهجوم الوقائي، تعتبر اسرائيل لبنان و(م. ت. ف). مسؤولين عن اعمال العنف ضد رعاياها، اينما حصلت في العالم.

بعد قصف عنيف لأنحاء جنوب لبنان كافة في ٤ و٥ حزيران (يونيو)، بدأ الاجتياح في اليوم التالي... واعلنت الحكومة إن هدف «عملية سلامة الجليل» اقامة منطقة منزوعة السلاح بعمق اربعين كيلومتراً تمثل ثلث الاراضي اللبنانية، من اجل حماية شمال اسرائيل من صواريخ ومدفعية (م. ت. ف).

... في غضون يومين اندفع شارون نحو الشمال، وشوهدت ارتال من الدبابات في الضواحي الجنوبية لبيروت وارتال اخرى اخترقت الشوف... في ١٣ حزيران (يونيو) اجتاحت الآليات الاسرائيلية بعبدا حيث مقر الحكم اللبناني ـ المركزي وسيادته. وفقاً لكل الظواهر، كان الوزير

الاسرائيلي يسعى للالتقاء بحلفائه المسيحيين، الا ان هذه الحركة المتعمدة بدت وكأنها اشارة تحدٍ لبشير الجميل لتحريضه على طرد الياس سركيس من القصر الرئاسي. مساء ١٣ حزيران كانت (م. ت. ف). و٥٠٠ ألف من المدنيين الفلسطينيين واللبنانيين المسلمين، محاصرين في بيروت الغربية، بعد ايام اطلق المسؤولون الاسرائيليون، اثر ضغوطات اميركية حادة، وعوداً بعدم الدخول الى العاصمة.

... منذ البداية، كان الحل العسكري العملي الوحيد هو تدمير مركز تواجد (م. ت. ف) وبنيتها التحتية. هذا بالإضافة الى ان ارغام (م. ت. ف) على مغادرة لبنان سيضعف الكيان السياسي والديبلوماسي لعرفات.

أحس هذا الاخير باقتراب الخطر. لكنه، على كل حال، كان عاجزاً. لقد اطمأن قبل الغزو الى تأكيدات الديبلوماسيين الاميركيين، بعدم السماح للاسرائيليين بتنفيذ مشروعهم. اما الآن، واذا تمكنوا من طرد منظمة التحرير من لبنان ـ او في احسن الحالات، دفعها الى العودة لممارسة الارهاب، وتدمير شرعيتها السياسية والديبلوماسية ـ فسيكون امام اسرائيل فرصة جيدة لضم الضفة الغربية وقطاع غزة، الموالية دائماً لزعيم منظمة التحرير، رغم اخطائه المتعددة.

عندما امر شارون قواته بالتوجه نحو بيروت، كان يجب ان يتغير النغم، لذا اعلنت الدولة العبرية ان قواتها المسلحة ستقدم خدمة جلّى للعالم بأسره وتخلصه من «مركز الارهاب الدولي» في بيروت الغربية... واشار الاسرائيليون الى انهم لا يقومون بغزو للبنان، بل على العكس، انهم يحررونه من النير الفلسطيني والسوري بتضحية لا مثيل لها. أو لم يروا بأم أعينهم الشابات المسيحيات الجميلات وهنّ ينثرن «الرز» ويوزعن الزهور عند مرور «المحررين» الاسرائيليين؟

في البداية لم يكن للصلف والرضا الاسرائيليين اي حدود. الآن

وقد «تحرر» لبنان، كما يقولون، فعلى الولايات المتحدة ان تدرك انها ستكسب اكثر من الاسرائيليين أنفسهم، دون اراقة نقطة دم جندي اميركي واحد. فالسوريون سيقعون في الفلك الاميركي، وسيدركون اخيراً ان خصمهم المقتول، انور السادات كان على حق حين اكد ان واشنطن وحدها تمتلك الاوراق كافة. هذا السقوط للنفوذ السوري سيكون له وزنه ايضاً لدى الممالك والامارات المؤيدة للاميركيين في الخليج الفارسي التي تقسو عليها سوريا وتشعر بالتهديد الايراني، لأن التحالف الايراني ـ السوري الآن، لم يعد يمثل شيئاً.

في اليوم التالي لحصار قوات شارون لبيروت الغربية، وللقصف العنيف الذي تعرضت له من البر والبحر والجو، استقال هيغ. وقد فعل ذلك اثر ضغوط فعلية. صحيح ان لبنان ليس سوى جزء ـ وقد يكون ضعيفاً ـ من الاسباب التي أدت لاستقالته، ولكن من المؤكد ان ما اتفق عليه مع شارون في واشنطن قد سقط. (يؤكد الديبلوماسيون الاميركيون المطلعون جداً انهم واثقون من حصول مثل هذا الاتفاق).

سُرَّ فيليب حبيب واعضاء السفارة من الاستقالة. وظنوا ان بإمكانهم الآن العمل على تأمين المصالح الحيوية للولايات المتحدة. . التي لم تتبع اي سياسة حقيقية في الشرق الاوسط، او انها سعت نظرياً الى سياسة مستحيلة، في الجمع بين حليفين في وقت واحد: اسرائيل والدول العربية المعتدلة. هذه السياسة سوف تتطاير شر تطاير في اللحظة التي تقرر فيها اسرائيل توجيه اهانة، او ممارسة اذلال ما، بحيث يُضطر حتى المعتدلون العرب انفسهم للاعتراض على حُماتهم الاميركيين المزعومين. كانت المصداقية الاميركية على المحك. لم يتجرأ الاسرائيليون مسبقاً ان يذهبوا بعيداً الى هذا المدى، كما لم يكن الاميركان والعرب تحت رحمتهم الى هذا المدى.

ولاول مرة، في سلسلة حروبهم الطويلة ضد العرب، استخدم

الاسرائيليون طائراتهم لقصف عاصمة عربية. الا ان حرب شارون الخاطفة تحولت الى حرب حصار، خلافاً للعقيدة العسكرية الكلاسيكية في اسرائيل، التي تسعى لحروب سريعة وغير مكلفة. وكباقي اطراف النزاع في لبنان لجأ الاسرائيليون الى المدفعية الثقيلة، مما يعني انهم لا يريدون المخاطرة بخسارة هامة (قبل، حوالى الـ٦٠٠ رجل) لأسر بيروت الغربية. اين اصبح اذن اولئك الجنود الاسرائيليون المظفرون الذين يربحون المعارك «بانتظام» ضد الجيوش العربية في رمال سيناء القاحلة وفي اراضي الجولان؟

لقد انقلب مفهوم اسرائيل، الدولة الغربية، ضدها. وتبخَّر ذلك الادعاء بالتميز الاسرائيلي في العالم المعاصر. ذلك ان العالم يرى الآن، ومن على شاشات التلفزة صور الاعتقالات في حر الشمس لآلاف الفلسطينيين واللبنانيين، وصور التعذيب والاذلال. هذه الانطباعات السلبية ليست الا من صنع اعداء اسرائيل، ومن اختراع خبراء في العداء للسامية. وهكذا اختصرت الحكومة الاسرائيلية رد الفعل. اما محاولات الرقابة على ما تبثه الافلام، واشرطة الفيديو عما يفعله الاسرائيليون، فكانت سبباً اضافياً للعار والخجل، لأن البلد الذي يدعي بأنه الديمقراطي الوحيد في المنطقة تقلص الى تبني اساليب هي في العادة، حكر على الديكتاتوريات. ان صور الفظاعات التي ارتكبت خصوصاً في بيروت، لا يمكن ان تعيد البريق الى الصورة التقليدية لدافيد اليهودي وهو يصارع جوليات العربي. لم تكن الولايات المتحدة مسرورة من وحشية القصف الذي كان ينصب حمماً على بيروت الغربية. اما شارون يؤكد لهم ان هذا العنف ضروري لارغام منظمة التحرير على مغادرة بيروت. توصل المفاوضون الاميركيون والفلسطينيون، ووسطاؤهم اللبنانيون، الى الاتفاق على استعداد عرفات للمغادرة في آخر تموز (يوليو)، وبأقصى سرعة ممكنة. لقد برهن الفلسطينيون على قدرتهم على تحمل اسوأ ما يمكن ان تواجههم به اسرائيل. وتأملوا ان يحصلوا،

عبر زيارة لوفد من الجامعة العربية، على اعتراف ما من حكومة ريغان، كأن تقبل هذه الاخيرة باللقاء معهم مباشرة. لكن المهمة اخفقت.

اشتد الحصار على بيروت الغربية. منع عنها الماء والكهرباء، باتت الخضار والفواكه، وحتى الخبز نفسه امراً نادراً. هذا بالاضافة طبعاً الى القصف المتواصل وتدمير البناء تلو الآخر بشكل هستيري لم يسبق له مثيل.

بات المسلمون واقعيين. لقد ادركوا انهم خسروا الحرب، لا هذه فقط، بل حرب ١٩٧٥- ١٩٧٦. دفعتهم صراحتهم للاعتراف بذلك. قد يكون المسيحيون اكثر سهولة للعيش، بعد ان ربحوا فعلياً - لا بجدارتهم فحسب، بل بفضل اسرائيل.

أما مسيحيو الغيتو الماروني، فقد فركوا ايديهم انتظارا، بعد ان عُلم ان الاسرائيليين ينوون اقتحام بيروت. ان الامر سيكون بسيط جداً. الا لبعض الاذكياء منهم الذين شاهدوا جنوداً يدخلون ويخرجون منذ العام ١٩٧٥، ولم ينسوا ان المسيحيين صلّوا لقدوم السوريين في ١٩٧٦ وما لبثوا ان ندموا. كل ذلك لم يمنع سيدات المجتمع الراقي المسيحي من التفاخر والتباهي بالجلوس مع الضباط والجنرالات والكولونيلات الاسرائيليين. «شالوم!» كان يطلقها السائقون المسيحيون امام الحواجز الاسرائيلية، ليسمعوا في اغلب الاحيان اجابة بالعربية. هل هم بهذا الذكاء، ليتكلموا العربية! تساءل المسيحيون بدهشة. اكتشفوا اخيراً ان القادمين الجدد ليسوا رواد الكيبوتزات ذوي العيون الزرقاء، الذين يتكلمون الانكليزية والفرنسية، كما تصوروهم في مخيلتهم، ولكن تسعة اعشار هؤلاء الرجال ذوو شعور مجعدة وسحنة تميل الى السمرة، وهيئة عربية لانهم وبكل بساطة يتحدرون من الشرق الاوسط. في البداية، منعت القوات اللبنانية، الفتيات المسيحيات من الاختلاط بالغزاة، وكثير من المسيحيين كان لديه انطباع بأن هؤلاء يحتقرونهم كما يحتقرون اي

عربي آخر. هذا الانطباع كان يزعج القوات اللبنانية بشكل خاص، الذين يُسمّون حلفاءهم اليهود وليس الاسرائيليين (على عكس الفلسطينيين الذين يحاولون اظهار عدم عدائهم للسامية) ويحتقرونهم كجنود، فوضويو الشكل والمظهر، يتهيبون المغامرة قياساً الى ميليشياتهم الخاصة النظيفة والمرتبة، ومقارنة مع اللبنانيين (والفلسطينيين ايضاً) الشغوفين بمعارك الشوارع الخطرة والمخيفة.

اما الغزاة الاسرائيليون، فقد اصابتهم الدهشة من غنى لبنان... بعد اقل من بضعة اسابيع على وصولهم، بدا عليهم اولى مظاهر «اللبننة» المتنامية: فقد اوقفت الجمارك الاسرائيلية على الحدود بعض جنودها وهم يحاولون تهريب مختلف الاطايب اللبنانية - من الحشيش الى السجائر الاميركية.

انتقل مسيحيو لبنان ايضاً من الرضا، الى المستوى المادي. فالحرب مضرة بالاعمال. اغرق الاسرائيليون لبنان بالشاقل، بالمنتجات المنوعة، بالفواكه والخضار بأسعار لا تنافس. في شهري تموز وآب، فاق ما حصّلته اسرائيل في لبنان، مجموع سنة كاملة مع مصر، رغم معاهدة السلام. في شهر كانون الاول (ديسمبر)، قفزت التجارة بين البلدين، باتجاه واحد طبعاً، الى حدود العشرين مليون دولار. اثار الاسرائيليون غيظ اصدقائهم في القوات اللبنانية حين جعلوا من حيفا مرفأ حراً مختصاً بالترانزيت، ينافس مباشرة «مرافئهم الخاصة» التي تستفيد الميليشيات من معظم عائداتها. الا ان الاسرائيليين سمحوا، بوجود «مرافىء خاصة» تحت سيطرتهم في جنوب لبنان، تخفيضاً لمصاريف الميليشيات الصغيرة المسلحة التي تشرف عليها السلطات الاسرائيلية ضمن اطار تكتيكها الجديد: (فرِّق تسُد). وكما قال لي احد رجال الاعمال اللبنانيين المرموقين: «الاسرائيليون اكثر خبثاً منا بمئة مرة. تبدو نختبتنا امامهم مضحكة ومدعية. لقد درسوا المسألة في العمق ولم يبعثروا جهودهم هنا وهناك».

هذه الملاحظة، تفترض ضمناً ان احفاد الفينيقيين المزعومين، اسياد التجارة منذ القدم، قد وجدوا من هو اقوى منهم. وقد اكد ذلك البيانات التي القتها الطائرات الاسرائيلية فوق المناطق المسيحية في الايام الاولى للغزو. فعدا التحيات العادية بالعبرية والعربية، يرى القارىء تمنيات «بميلاد مجيد» باللغة العبرية. ظن المسيحيون انه متى حل الميلاد سيكون جيرانهم قد عادوا الى بلدهم منذ مدة؛ كان همهم الاساسي، ان يسرع الاسرائيليون في سحق منظمة التحرير قبل ان تتدخل القوى الخارجية لوقف الحرب. حتى الآن لم يتحقق هذا المشروع، ولكن بما ان الاسرائيليين في لبنان، فليعجلوا في انجاز المهمة! «هل ستتحول عن هدفنا مرة ثانية، بسبب تدمير جديد؟» تساءل بصلف احد مسؤولي القوات اللبنانية، اثناء الاسبوع الثاني من الحرب. ان العقاب الذي تلقته بيروت الغربية لغاية الآن ـ الى حد تدميرها ـ لا معنى له الا اذا استطاعت القوات اللبنانية الانتصار وتحقيق اهدافها فيما يتعلق بمستقبل لبنان. المرحلة الاولى اقتلاع جذور منظمة التحرير. لقد شطبت بعناية كلمة فلسطين من الخرائط المعلقة في مكاتب قيادات اركان القوات اللبنانية.

إلا أن الايام تحولت الى اسابيع، وشعر المسيحيون بقلق جدي. لم يحصل شيء او بشكل أدق، لم يحتل الاسرائيليون بيروت الغربية، رغم القصف الذي ينهال عليها. في حزيران (يونيو)، قبل اقالة هيغ، بث الاذاعات الكتائبية، التي تستخدمها الدعاية الاسرائيلية غالباً لاختبار ما، ان «معركة بيروت» ستبدأ لا بل انها بدأت فعلياً. مع العلم ان لا شيء يحصل على الارض. كان رحيل هيغ المفاجىء في الخامس والعشرين من الشهر نفسه، صدمة رهيبة للمسيحيين الذين ظنوا، ان غيابه قد يجبر الاسرائيليين على التوقف. اما هؤلاء، فيبدو ان لا مشروع طويل الامد امامهم، وحتى لا مشروع مفصلاً لأخذ بيروت الغربية. ووفقاً لبعض المصادر، لم يجرؤ شارون على طلب مثل هذا المخطط، خشية منعه، بل اكد ان الغزو يفرض منطقه مباشرة في عمليتي الحصار

والاقتحام. افاد الضباط الاسرائيليون الذين وضعوا مخطط غزو بيروت ان الاوامر بهذا الشأن لم تصدر اليهم الا في الاسبوع الثالث من الحرب.

ماكيافليون ام سذج، في كلتا الحالتين لا يعرف الاسرائيليون شيئاً عن سوسيولوجية لبنان المعقدة، او انهم لم يعيروها اهتماماً. (في تشرين الثاني فقط ـ قررت وزارتا الدفاع والشؤون الخارجية احياء لجنة خبراء مشتركة لمساعدتهما في استكشاف التعقيدات العرقية). ساور القلق كثير من اللبنانيين لجهلهم بنوايا اسرائيل بعد طرد منظمة التحرير، وفيما يتعلق بفرض رئيس للجمهورية شديد الميل نحوهم، أو في ضم قسم هام من البلد. بدا ان الغزاة في حالة من القوة تسمح لهم بارتكاب بعض الاخطاء، وبإعادة تصحيحها قبل ان يتمكن خصومهم ـ او حلفاؤهم ـ من الاستفادة منها. يقول الاسرائيليون، ابتداءً من بيغن نفسه: لدينا كثير من الاصدقاء في لبنان، ونمسك بكثير من المعطيات وليس فقط بعملاء للموساد، الا انه، بالنسبة لأي خبير في الاستخبارات، يعجز مئات الجنود الاسرائيليين ايضاً عن تمييز الشيعي من السني، والارمني من الارثوذكسي.

هذه الغطرسة الاسرائيلية تؤكد بعض التقارير التي تشير الى مساعدة القوات اللبنانية لهم في الاستيلاء على وسط مدينة صيدا. طالما نسق الطرفان في الماضي بحيث يبدو الامر معقولاً. (قبل شهر من الغزو تقريباً، أجبر المسيحيون الطيار السوري الذي سقط في الغيتو الماروني على الاجابة عن استمارة مفصلة قدمها لهم حلفاؤهم العبريون، بينما جمعت المروحيات الاسرائيلية حطام الميغ ـ ٢٣). ما خشي منه المسيحيون حصل. منذ تموز بدأ الاميركيون بلجم الحركة. حتى قبل استقالة هيغ، حاولت ادارة ريغان ان تثير الامر، من اجل الحفاظ على مصداقيتها امام العالم العربي المحافظ وتحويل الحرب لمصلحتها الخاصة. إرتاحت في البداية للصراع، اما الآن، فإنها ترفض رؤيته يمتد الى باقي لبنان خصوصا الى سوريا. اما بالنسبة لأمراء الحرب

المسيحيين فان ذلك يعني ان العمل لن ينجز الا جزئياً. وعلى الجيش الاسرائيلي إذاً ان يتوقف في وادي البقاع، على بعد عدة كيلومترات من طريق بيروت ـ دمشق. تلاشت احلام المسيحيين في رؤية الاسرائيليين يطردون السوريين نهائياً من البقاع وفي بداية «تحرير الـ١٠٤٥٢ كلم^{2}» التي وعد بها بشير منذ زمن. ضاعف المسيحيون توسلاتهم وصلواتهم، لكن اسرائيل رفضت ما اعتبره المسيحيون وعداً قاطعاً. . . فاضطر هؤلاء الى التخلي ايضاً عن حلمهم في الوصول الى الشمال، حيث لا يزال السوريون يؤمنون الحماية لـ«سليمان فرنجية».

حقد الاسرائيليون من جهتهم على المسيحيين لأنهم لم ينضموا الى المعارك، خاصة ضد الفدائيين الفلسطينيين الذين حوصروا داخل بيروت الغربية. نفت القوات اللبنانية بشدة ان تكون وعدت ـ أو حتى اظهرت اي رغبة ـ بالمشاركة، وفي ١٥ حزيران (يونيو) قررت الحكومة الاسرائيلية ان على الجيش اللبناني او الميليشيا المسيحية ان تقاتل على الارض ضد الفلسطينيين. ونتيجة للتأثير الاسرائيلي على الميليشيات قامت في اليوم التالي مجموعة مسيحية ذات تدريب خاص بانتزاع مبنى من خمس طبقات من سيطرة منظمة التحرير، داخل كلية العلوم في الجامعة اللبنانية التي تشرف على المطار وعلى قسم هام من الضاحية الجنوبية. احد الاسرائيليين الذين شاهدوا هذه العملية من مقر اقامته بين تلال بعبدا، اعلن للصحافيين ان الصعب ليس دفع المسيحيين للقتال، بل منعهم من أخذ بيروت الغربية وحدهم. الا ان القوات اللبنانية قدمت للاسرائيليين مختلف انواع المعلومات ـ ارقام الهاتف للتنصت عليها، خرائط الانفاق، مواقع الاحياء العامة والمنشآت ذات الاهمية القصوى ـ وطبعاً، كان الغزاة في الغيتو الماروني، كأنهم في بلدهم. فاحتياجاتهم تنقل عبر جونية، دباباتهم ومدفعيتهم موزعة في بيروت الشرقية بين المرتفعات المكتظة بالسكان المطلة على القطاع الغربي ـ على غرار الفلسطينيين الذين ينشرون مدفعيتهم الثقيلة وسط المباني السكنية. في

تموز (يوليو) وجه شارون إهانة قاسية لحلفائه المسيحيين اثناء حفلة غداء له في فندق ألكسندر في بيروت الشرقية حين عبر عن احتقاره لاولئك الجبناء الذين لا يجرؤون على القتال من اجل حريتهم. في الواقع، ان رغبة الاسرائيليين في رؤية المسيحيين يقاتلون في بيروت الغربية، لم تكن الا رغبة في الحفاظ على حياة رجالهم.

إلا ان بشير الجميل لم يكن على استعداد لإفشال حظه الانتخابي، الذي تحسن كثيراً بعد الغزو الاسرائيلي. «إثر كل عملية كان الاسرائيليون يتوقعون رؤيتنا على الحلبة، يقول احد المسؤولين البارزين في القوات اللبنانية، لكننا نحن، كنا نريد انتخاب بشير. كان باستطاعتنا القيام بانقلاب، حتى دون مساعدة شارون ودون دخوله الى بعبدا». في نهاية حزيران (يونيو)، كان بشير يلعن، في جلساته الخاصة، الاسرائيليين الذين يضغطون عليه للمشاركة في الحرب، ويحرجونه عبر تصريحات علنية بين الفينة والفينة. أفسد قصفهم المتواصل لبيروت الغربية هيئة الانقاذ الوطني التي تأمّل بشير بأن تتحول الى حكومة اتحاد وطني يكون هو رئيسها الفعلي وتشجع طموحاته الرئاسية. لو أعدنا صياغة الاحداث، لكانت الوضعية على الشكل التالي: كان كل من شارون والجميل ينتظر انسحاب الفلسطينيين عند رؤية بوادر الهجوم الاسرائيلي. بدلاً من ذلك، بقي هؤلاء للدفاع. بعد ذلك، تمنى الاسرائيليون والمسيحيون، الدخول الى بيروت الغربية، لكن كل واحد كان ينتظر الآخر ليضحي بقواته. ظنت القوات اللبنانية ان الاسرائيليين لن يتراجعوا عن تنفيذ عمليات تتمنى هي نفسها حصولها، بينما ظن الاسرائيليون ان بشير الجميل مستعد للقتال الى جانبهم ولتوقيع اتفاق سلام رسمي معهم بعد الحرب.

سؤال يطرح نفسه. اذا اراد شارون حقاً إخراج عرفات ورجاله ـ ويمكن ان نتصور مدى النصر الذي يحققه له ذلك على مستوى الدعاية ـ فلماذا حشرهم في بيروت الغربية دون اي مخرج؟ هكذا، أجبرَ الزعيم

الفلسطيني على اتخاذ موقف. لماذا اختار شارون في عملية التواصل مع حلفائه المسيحيين، بعبدا بالذات، ـ وهي مقر ما تبقى من السيادة اللبنانية ـ مكاناً لتجميع دباباته؟ كان من الصعب على المسيحيين، وكذلك على المسلمين، الا يستنتجوا من ذلك ان شارون يحض بشير الجميل على محاولة انقلاب ـ تصمه الى الابد امام مواطنيه ـ وأمام العرب كافة ـ بوصمة التنسيق التام مع اسرائيل.

أدى اتساع القصف ووحشيته الى تضييق الهوة التي كانت قائمة بين الفلسطينيين والمسلمين، بينما لم يجرؤ بشير على الاعتراض على فظاعات حلفائه الاسرائيليين.

إثر احباطه في بيروت اتخذ بشير القرار الحتمي بإرسال قواته الى بعض مناطق الجبل التي طردت منها اثناء الحرب الاهلية، او الى مناطق لم يكن لحزب الكتائب فيها اي وجود سابق. سارت القوات اللبنانية خلف خطى الجيش الاسرائيلي، ناقبة دون استثناء، جروح قديمة، ومثيرة، كما يسهل توقعه، تصفيات دامية حيثما مرت. في الدامور وصيدا، ضايقوا وقتلوا في بعض الاحيان مدنيين فلسطينيين لارهابهم ودفعهم خارج لبنان. في مناطق اخرى كـ«المتن وعاليه أو الشوف»، اضطرت القوات اللبنانية لمواجهة الدروز، الذين بفضل الحماية السورية، يسيطرون فعلياً على هذه المناطق المسيحية ـ الدرزية منذ عام ١٩٧٦. شجع الاسرائيليون في بعض المناطق ميليشيا سعد حداد، وفي اخرى رجال بشير، وقدموا بالمناسبة، سلاحاً لاعدائهم من اليسار المتطرف. وعمداً او عن جهل، كسروا التوازن الهش الذي كان قائماً بين هذه الطوائف اللبنانية التي ترتعش كرهاً ورغبة في الانتقام من بعضها. لقد اتبعوا برضاهم، او رغماً عنهم، مبدأ الامبرياليين الكلاسيكي: فرّق تسُدْ، المألوف في التاريخ اللبناني. وذلك اما بإثارة الاضطرابات، واما

بالسماح بها، فتبرهن القوة الخارجية دائماً على فائدتها بإرسال قواتها للفصل بين المتحاربين. في نهاية عام ١٩٨٢ كان مئات من اللبنانيين الدروز والمسيحيين، قد هلكوا في هذه الصراعات الداخلية.

اعترفت القوات اللبنانية بخجل واضطراب، انها ضلّت في هذه المناطق، لكنها لم تبذل جهداً لمحاسبة نفسها. سقط تكتيكهم. وفقدوا عدة مئات من الميليشيا ـ لم يواجهوا مثل هذه الخسارة الباهظة منذ سنوات ـ وبدلاً من دعم المسيحيين والسماح لهم بالعودة الى منازلهم، تسبب وجودهم في مزيد من العنف ادى الى مغادرة كثير من المسيحيين لمناطق من الشوف لم يبارحوها منذ ١٩٧٥. الحقيقة المزعجة ان بشير بات لا يسيطر تماماً على ميليشياه، خاصة تلك البعيدة عن مركز القيادة العامة في بيروت الشرقية. هذه الميليشيا تتشكل بمعظمها من الشباب الذين اضطروا للهرب من مناطق ولادتهم إبان الحرب الاهلية واللجوء الى قلب المنطقة المارونية. أُرسلت هذه الوحدات الى مناطقها الاصلية، التي يحتلها الجيش الاسرائيلي، ومنذ البداية لم يكن في رأسهم الا الثأر. لهذا السبب بالضبط ضمتها القوات اللبنانية كوحدات صدامية. الإسرائيليون المتآمرون دائماً، تركوا سلاح الجيش اللبناني الى الدروز، بينما اعطوا ثكناته الى القوات اللبنانية. في بعض الاحيان، لم تكن الميليشيات الدرزية اكثر طاعة لقادتها من ميليشيات بشير. «اذا ارسلنا رجالنا، يقول احد مسؤولي الميليشيا المسيحية إتهمنا بإثارة الاضطرابات، واذا لم نفعل، اتهمنا مسيحيو الجنوب، الذين طردوا من قراهم في ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦، بعدم الدفاع عن حقهم في العودة الى بيوتهم.

حين دعمت الحكومة الاسرائيلية، الميليشيا المسيحية في الشوف ضد الدروز، سببت لنفسها مشاكل مع الاقلية الدرزية عندها. فالخمسون الف درزي اسرائيلي ينتخبون نائباً في الكنيست، وثلاثة عشر

ألفاً آخرون يعيشون في الجولان الذي ضُم في السنة السابقة. كثير من دروز اسرائيل يخدمون في القوات المسلحة، خاصة في حرس الحدود الذي يساعد على الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة. في بداية غزو لبنان، المحت الحكومة الاسرائيلية الى القيادات الدرزية عندها الى امكانية نشوء منطقة درزية مستقلة ـ تمتلك جيشها الخاص من ثلاثة آلاف رجل تجهزه اسرائيل ـ ودلت على منطقة حاصبيا، حيث يحكم ضابط درزي اسرائيلي. إلا ان هؤلاء غير راغبين في زعامة دويلة درزية. وما اقلق الاسرائيليين ايضاً، ان بعض الجنود الدروز الاسرائيليين، اتخذوا في الشوف، اثناء المعارك، جانب اخوانهم اللبنانيين، رغم اوامر قياداتهم، بعدم التدخل في هذه الاحداث.

الى جانب ذلك تجلت فعالية الاسرائيليين في نهب المواطنين. خمسمئة وعشرون طناً من الاسلحة والمعدات العسكرية، من المنطقة الغربية، سيارات، تلفونات، تلكس، آلات تصوير تليفزيونية، وحتى مقاعد مدرسية من الخشب، مخلّفين وراءهم في مختلف انحاء لبنان بطاقة زيارتهم المعروفة جيداً: غائط وبراز في ادراج المكاتب، على الأسرّة في الخزائن، في الكنائس والجوامع، وحتى في المستشفيات. انذر المختصون بالشؤون العربية في اسرائيل حكومتهم من اخطار المستنقع اللبناني، ومن احتمالات الخطأ وإراقة الدماء. الا ان شارون وعصبته، لم يعيروهم من الاهتمام اكثر مما اعارت الحكومة الاميركية اهتماماً الى المختصين بالمسائل الايرانية، اثناء وبعد الثورة في هذا البلد.

باستثناء قلة قليلة فقط، كانت اللامبالاة تسود لدى المسيحيين في القطاع الشرقي اثناء حصار بيروت. الشابات في جونية يمارسن التزلج المائي، على بعد عشرين كيلومتراً تقريباً من العاصمة. الراديو يحذر الناس

من عرقلة المواصلات على الطرق المؤدية الى المسابح. واذا كان قسم كبير من سكان بيروت الشرقية قد ترك مسكنه، فليس لانه في خطر، بل لان اصوات القصف العنيف كانت اقرب اليه من بعض احياء بيروت الغربية. كانت التجربة تشتد إيلاماً على الكثير من سكان القطاع الغربي، بسبب صمت اصدقائهم في الجهة المقابلة من المدينة الذين امتنعوا حتى عن الاتصال بهم هاتفياً. لقد شعروا وكأنهم شطبوا عن خريطة العالم.

في ١١ آب، (اغسطس) غادرت بيروت الغربية الى القطاع الشرقي... هناك خرجت مع بعض الاصدقاء للعشاء في احد المطاعم في الجبل. كلما كانت سيارتنا تتجه صعوداً، كان بالامكان رؤية بيروت الغربية بشكل أفضل. على جنبات الطريق، اصطفت عشرات السيارات في اماكن تسمح بالتفرج على بيروت الغربية. قال لي اصدقائي، ان النظارة منذ اسابيع، يأتون الى هنا صفوفاً متراصة. على الطاولة المقابلة في المطعم، بعض افراد القوات اللبنانية يتجاذبون الحديث مع ضباط اسرائيليين. اشتكى صاحب المطعم من سوء الاحوال بسبب الحرب. الن يرحل هؤلاء الفلسطينيون اخيراً؟ استبد بي غضب شديد من الاسرائيليين، واشد منه من الحكومة الاميركية التي تسمح لزبائنها الاسرائيليين بممارسة القتل كما يحلو لهم، خاصة وان العالم يعرف الآن بأن منظمة التحرير ستترك بيروت. (اثناء احدى مرات العنف والتدمير، وبينما كان مقر السفير الاميركي يهتز من جراء القذائف التي تطلقها الدبابات ومدفعية الـ١٥٠ ملم القريبة، اتصل فيليب حبيب بالإدارة الاميركية للاحتجاج. استدعت واشنطن سفيرها في تل ابيب، الذي تقبل كالعادة، الاطروحة الاسرائيلية الرسمية دون اي نقاش اجاب، وفقاً للمصادر المحلية، «لم يحدث شيء». فيما بعد، احتج شارون، بطريقة غير مباشرة، على السفير الاميركي روبرت ديلون، واتهمه بأنه قدم تقريرا

كاذباً عن الاحداث. وانتهى الامر عند هذا الحد). أخيراً تمكن حبيب من وضع التفاصيل النهائية لرحيل الفلسطينيين. . . الذين نزحوا للمرة الرابعة خلال ثلاثة واربعين عاماً. بحراً وبراً، اكثر من ثمانية آلاف فدائي، ثلاثة آلاف وخمسمئة عنصر من جيش التحرير الفلسطيني، والفان وسبعمئة جندي سوري من اللواء الخامس والثمانين، رحلوا دون اي حادث يذكر.

رحل عرفات في ٣٠ آب (اغسطس)، بعد ان رافقه الى المرفأ رئيس الوزراء اللبناني شفيق الوزان، رئيس الوزراء السابق صائب سلام وزعماء آخرون من بيروت الغربية. . احدى المسيحيات المسنات كانت تتفرج على هذا الرحيل من على شرفة منزلها: «الآن، استطيع ان اموت» قالتها مندهشة ومسرورة لأنها رأت الفلسطينيين يرحلون اخيراً.

. . . بعد عدة ساعات من رحيل آخر فدائي، اعلن الرئيس ريغان في اول ايلول (سبتمبر) مشروعاً اميركياً لحل المشكلة الفلسطينية. هذا الاقتراح لا يتضمن اي جديد، لكنه ومن موقع الأشراف الشخصي للرئيس عليه، وجّههُ الى العالم العربي ليبين له ان اسرائيل لا ترغم الولايات المتحدة على سياساتها. على الفلسطينيين، يقول ريغان، الا يحلموا بدويلة في الضفة الغربية وقطاع غزة، بل عليهم البحث عن خلاصهم الى جانب الملك حسين. وعلى اسرائيل، بالتالي، ان تتوقف عن ضم الاراضي وافامة المستوطنات (او «الغاء» التي اقامتها) في الاراضي المحتلة.

رفض بيغن غاضباً المشروع الاميركي من اساسه، لانه كان يأمل تتويج غزوه للبنان بضم الضفة الغربية وغزة نهائياً. وفي اقل من يومين، بدت اولى مظاهر امتعاضه في لبنان. اذ تقدم الجيش الاسرائيلي، خلافاً للاتفاقات مع حبيب، ستمئة متر نحو الشمال، بحجة نزع الالغام من

الطرقات. واصبح مطلا على مخيم اللاجئين الفلسطينيين في شاتيلا وعلى منطقة بئر حسن. لم يكن في نيتهم التراجع. ومهما قال الاميركيون وفعلوا فلن يتزحزحوا سنتيمتراً واحداً. تخلت الولايات المتحدة عن اصرارها بالرجوع الى مواقعهم الاصلية، وقبلت حجة حلفائها، ومفادها ان الجيش اللبناني هو الذي طلب من الجيش الاسرائيلي انجاز هذه المهمة.

في الواقع، اغتاظ الاسرائيليون من سياسة الاميركيين الجديدة، التي رأوا فيها تشجيعاً لبشير الجميل على مقاومة طلبهم في توقيع معاهدة سلام، ودفعاً له نحو المصالحة الوطنية. في كل الحالات، كان بشير سيرتبط مالياً، رغماً عنه، بالدول العربية، لاعادة إعمار ما هدمته سنوات الحرب الماضية: ولكن، اذا اصر بيغن على انتزاع معاهدة السلام منه، فإن العالم العربي سيقاطع لبنان، تماماً كما فعل مع مصر. والولايات المتحدة التي تنوء تحت ثقل اضخم برنامجين للمساعدة الخارجية ـ الى مصر واسرائيل ـ لا تنوي مطلقاً اضافة حمل ثالث. الا ان بيغن كان مصراً على كسب القضية. وكل من قابله في ذلك الصيف، اكد ان اتفاق السلام بالنسبة له يوازي تدمير منظمة التحرير. كان يحلم بامتداد مملكة اسرائيل، ويتحدث عن المستقبل المشرق للاسرائيليين، من بيروت الى القاهرة.

الآن، وبعد سنوات من اللامبالاة، قرر الاميركيون التدخل في لبنان. ولكن اذا كان الاسرائيليون يبذرون القلق في لبنان واذا كان الاميركيون غير راضين عن ذلك، فما الذي يستطيعون فعله؟ عملياً لا يمتلكون اي وسيلة على الارض، واستناداً الى التجارب الماضية، لم تكن هذه الوسائل بالصلابة الكافية لاجبار اسرائيل على التنازل. آخر مرة اتخذت فيها الولايات المتحدة قراراً هاماً ضد الرغبات الاسرائيلية ونجحت في فرضه، كان عام ١٩٥٧، عندما ارغم الرئيس ايزنهاور الجيش الاسرائيلي على

اخلاء سيناء التي احتلها اثناء حملة السويس، بالتآمر مع فرنسا وبريطانيا. منذ ذلك الوقت، والحكومات الاميركية المتعاقبة تقوم بتسليح اسرائيل انطلاقاً من المبدأ الغريب الذي يقول بأنه متى تفوقت القوات الاسرائيلية على خصومها كافة، فإن الدولة العبرية، تطمئن، وتصبح اكثر استعدادا للتفاهم مع جيرانها.

على كل حال، لم يكن الرئيس ريغان على استعداد لمواجهة اسرائيل، رغم انتقاداته لغزو لبنان. وكانت حكومته ترغب في تجنب اي التزام عسكري في هذا الشأن، الى درجة الا يخرج الـ١٢٠٠ مارينز من المرفأ ـ خشية وقوع اي ضحية بينهم.

قُتل بشير الجميل في ١٤ ايلول (سبتمبر)، وبعد يومين ذَبح رجاله المدنيين الفلسطينيين في مخيم شاتيلا. تلاشت اثر ذلك الآمال الاميركية بالإنسحاب. في الواقع، ان موت الرئيس الجديد، والقرار الذي اتخذه شارون بالدخول الى بيروت فجر اليوم التالي، ومذبحة شاتيلا، أرغم كل ذلك الولايات المتحدة على التدخل اكثر في الشؤون اللبنانية كما لم تفعله منذ الخمسينات. حاول ريغان في البداية ان يبحث عن عذر لهذا الخرق للاتفاقات التي صيغت مع حبيب، فأعلن: «انني متأكد ان تحرش الميليشيات اليسارية هو الذي دفعهم لذلك» لكن الامر لم ينفع. لقد ادرك الرئيس ريغان الآن مدى الخطر المحدق بالمصداقية الاميركية في الانصياع لأهواء الصقور الاسرائيليين. لكنه تعقل، دفع ثمنه غالياً. فالشرف الاميركي تلطخ، وهذا المزيج من الخجل الاميركي، والضعف اللبناني ـ الذي بات مرئياً امام العالم اجمع ـ ارغم ريغان على لعب الدور الذي رفضه قبله جميع الزعماء الاميركيون. باتت الولايات المتحدة مضطرة اخيراً الى المشاركة الفعالة في هذه السياسة التي ادت منذ عام ١٩٧٤، مهما كانت نواياها، الى المساهمة في اضطراب قسم كبير من

الشرق الأوسط، في تدمير لبنان، وموت انور السادات. بهذا اعادوا، مرة اخرى، الى السطح، الطبيعة الكامنة لعلاقاتهم الصراعية مع الاسرائيليين.

هكذا عاد المارينز والفرنسيون والايطاليون، ومجموعة صغيرة من البريطانيين. هذه العودة أدت الى تغيير دقيق في ميزان القوى السابق بين اسرائيل والولايات المتحدة.

من البديهي، ان الولايات المتحدة بدت عاجزة عن احترام وعدها المكتوب بحماية الفلسطينيين من الاسرائيليين ومن الميليشيا المسيحية، بعد ان تخلى حليفهم الاسرائيلي عن وعده بأكثر الطرق صلافة، وإهانة، وقتلا.

بعد موت بشير، ومجزرة شاتيلا، تحول الموارنة المتطرفون ضد اسرائيل اكثر فأكثر. جويس، زوجة امين الجميل صاحت: «وكأن بشير لم يكفهم، يريد الاسرائيليون الآن ان يلصقوا بنا هذه القذارة». احد المسؤولين البارزين في القوات اللبنانية، قال لراهب ماروني، والغضب يسيطر عليه: «انت واصدقاؤك، من دفعنا الى هذا التحالف اللعين مع اسرائيل». خلف مرارة هذه الاحاديث، احساس فجائي بأن الاسرائيليين تلاعبوا بهم.

أما القيادات المسيحية، والقوات اللبنانية بعد ان فقدت قيادة بشير الجميل، رأت ان وجودها عام ١٩٨٢ بات اكثر ضرورة للبنان من اي وقت مضى، لحماية الطائفة المسيحية المهددة، خاصة وان بشير لم يعد موجوداً ليفرض هيمنته على الدولة. «ان مسيحيي الشرق الاوسط، لم يكونوا اكثر قوة منذ ١٩٥٨ قال لي احد مسؤولي القوات اللبنانية، ومن الغباء ان نتخلى عن سلاحنا». رسمياً اعلنت قيادة القوات اللبنانية انها لا

تنوي حل ميليشياتها، طالما لم يغادر المقاتلون السوريون والفلسطينيون والأسرائيليون الارض اللبنانية. في خريف ١٩٨٢ كان لدى القيادة الجديدة خمسة آلاف عنصر متفرغ، لذا ضاعفت رسومها لزيادة عائداتها السنوية التي قفزت من مئة الى مئتي مليون دولار. في بداية ١٩٨٣، كان يكفي ان تحك ولو قليلا اكثر من مسيحي في بيروت الشرقية لتكتشف ان عدوه الحقيقي، هو هذا الوجود الاسلامي الذي يقلق الموارنة منذ قرون. لقد رحلت منظمة التحرير، ورحل معها التهديد الذي كان يخيم على الدولة القديمة التي يحكمها الموارنة، ولكن المسلمين لا يزالون في لبنان. من المحتمل ان تتغير عقلية الناس في الغيتو الماروني تدريجاً ومع الوقت، وقد يفهم مسيحيو لبنان ان المسلمين تحملوا كثيراً من العالم العربي. في الواقع، تحمل المسلمون في لبنان اكثر من المسيحيين. منذ عام ١٩٧٥، كان اغلب القتلى من المسلمين وليس من المسيحيين. في ١٩٨٢، خصوصاً اثناء الغزو الاسرائيلي، بالكاد فقدت مجموعة مسيحية حياتها، بسبب سوء حظها، بينما ادت العملية، وفقاً للتقديرات اللبنانية الى ١٩ الف ضحية، اغلبها لبنانية ومدنية. وكما يعلم الاسرائيليون ذلك جيداً، فإن مسلمي بيروت الغربية هم الذين عانوا من الارهاب في العاصمة. وفي هذا القطاع ساد العنف وانتشرت الفوضى لكنه في الوقت نفسه، تمتع بحرية واسعة في التعبير، وبنظرة للعالم اقل اقليمية واقل انعزالية.

هذا بينما، لم يبدُ ان المسيحيين على استعداد لأي تغيير. وقد بقيت السواتر الترابية التي تحمي مواقع القوات اللبنانية في قلب العاصمة، اثناء هدم الحواجز والسواتر داخل بيروت، للدلالة على ذهنية الحصار لدى المسيحيين المتطرفين.

من المحتمل ان تكون لهؤلاء الموارنة حجة ما في الحياة مع السلاح

وخلف السواتر. فالمسلمون خلال السنوات السبع الماضية تغيروا تغيراً ملحوظاً: اصبحوا اكثر عدداً، اكثر غنى، وافضل تعليماً. ووفقاً لبعض مديري البنوك اصحاب الفروع في المنطقتين من العاصمة، فان الثروات الضخمة باتت في ايد اسلامية شيئا فشيئاً. خاصة من الاموال التي تُحصّل في الخارج وترسل الى لبنان. عاجلاً ام آجلاً سوف يحصل احصاء في لبنان ولا بد ان يُعترف بالاغلبية الاسلامية ـ التي يساهم فيها ارتفاع نسبة الولادة لدى الشيعة بشكل خاص ـ كان بشير الجميل، الذي ينوي توحيد بلاده بالقوة تحت حكومة مارونية، على وعي تام بهذا التفوق السكاني للمسلمين، قد أعد بضعة دراسات لتشجيع الـ٦٠٠ الف مسيحي الذين يعيشون في الخارج على العودة الى لبنان، من اجل استعادة التوازن.

ان الدولة ضمن الدولة التي اسسها بشير الجميل، باتت الآن دون سلطة، وتحولت الى فدرالية منهكة بسبب الزعامات المحلية والمطامح الشخصية، لا تربط بينها الا ضرورة التنسيق التي يدرك الجميع اهميتها ـ طبعاً، انهم امام جبنة ممتازة، ـ ولكن شرط بقائهم متفقين.

لم يبدُ ان القوات اللبنانية عازمة في اي حال على التخلي عن رسومها الخاصة، ولا عن سيطرتها المطلقة على عائداتها من مرفأ بيروت، التي تحرم الدولة من المردود المالي، وتؤمن غنى القوات واستمراريتها. لم يكن من السحر إذاً التنبؤ بأن الدولة، حتى لو حكمها رئيس كتائبي، ستصطدم عاجلاً ام آجلاً بالميليشيا المسيحية. ومرة اخرى يقدم التاريخ احد مفاتيح ألغازه: منذ اكثر من قرن، اصبح الموارنة في موقع معارضة النظام المركزي في لبنان. اي حكومة غريبة ـ غربية كانت ام عربية ـ واي مهاجر له رأس فوق كتفيه، لن يرسل الاموال الى لبنان، لاعادة بنائه، طالما استمرت القوات اللبنانية في تحصيل عائدات الدولة. في خريف ١٩٨٢، قدر خبراء الامم المتحدة ان خسارة

لبنان منذ ١٩٧٥، بلغت ما بين ١٢ الى ١٥ مليار دولار. تجارة الترانزيت نحو الداخل العربي توقفت، لا بسبب العنف فقط، بل بسبب قلة فعالية الخدمات، ومنافسة المرافىء الجديدة التي استحدثت في السنوات العشر الاخيرة في سوريا، تركيا، العراق، السعودية وفي الخليج الفارسي. ويبدو ان اسرائيل مصممة على المضي قدماً في ثغرتها الاقتصادية لدى جارها، كما يدل على ذلك نفورها من اغلاق الحدود، والغائها للشكليات الجمركية.

على المدى البعيد، من غير المؤكد ان تستمر سيطرة القوات اللبنانية والكتائب، شبه التامة على مختلف الطوائف المسيحية، وحتى على الموارنة. اذا كانت دروس الماضي تعلمنا شيئا، فهي ان اي احساس بالسلام الطويل يشجع دون شك، عدة احزاب مارونية سياسية على الظهور: «ليس كل اللبنانيين مسيحيين، وليس كل المسيحيين موارنة، وليس كل الموارنة كتائب». وصفة سياسية لبنانية قديمة. سمحت مرحلة الهذيان الجماعي التي رافقت الغزو الاسرائيلي، لبشير الجميل ان يقلب الامور لصالحه مؤقتاً وتوصل، في لحظة صعبة، الى اقناع العديدين، اذا لم يكن جميع اللبنانيين، بأنهم اذا لم يكونوا كتائبيين جميعهم، فهم على الاقل «بشيريون». هكذا صيغت الاحلام، وتبلورت الاسطورة حول عبادة شخصية بشير، كما مهدت لها بدقة القوات اللبنانية. رسومات ضخمة «للرئيس الراحل» تزين الشوارع الرئيسية في القطاع الشرقي. مقتطفات من احاديثه تبثها مكبرات الصوت في اليوم الذي كان ينبغي ان يكون عيد ميلاده الخامس والثلاثين. كما نظمت القوات اللبنانية احتفالاً قارنه المدعوون الغرباء بالتجمعات النازية الكبرى التي طالما اعجب بها الشيخ بيار في برلين قبل ستٍ واربعين سنة.

الا ان هذه المحاولات كافة للحفاظ على بقايا صليب بشير

الحقيقي، كانت، بقوة الاشياء، تتجه نحو الماضي. لكن لا شيء في ماضي لبنان بسمح بالافتراض بأن بشير كان سينجح، ورغم كل ما كان يعد به، فإنه هو ومناصريه ساهموا في اغرب امثلة الانتحار الجماعي في التاريخ المعاصر. بعض المسيحيين يقول إنهم ساهموا اكثر من اي طرف آخر في ذلك.

خاتمة: بعد سنة

قد اكون مخطئاً بشأن اللبنانيين انفسهم وبعجزهم الدائم عن قبول ذواتهم كما هي وبشأن القوى الاخرى ذات الصلة بمأساتهم. في الواقع، حتى في الشرق الاوسط، قلّما شاهدنا تبدلاً للسلطة والنفوذ بمثل هذه السرعة، ذلك انه ومنذ خريف ١٩٨٣ قدمت المعمعة اللبنانية ضحيتين ـ اسرائيل والولايات المتحدة (عدا عن فرنسا، ايطاليا وانكلترا التي ساهمت بجنود للقوة المتعددة الجنسيات). لقد بات بعيداً ذلك الحلم الصارخ بالهيمنة العبرية او الهيمنة الاميركية! وحل محلهم السوريون الذين تعرض لهم الغزو الاسرائيلي عام ١٩٨٢، فعادوا الى السطح واصبحوا الآن، دون نقاش، في وضع قوي تحت قيادة رئيسهم الحاذق حافظ الاسد الذي محا هذه الذكرى المؤلمة، مزوداً بدعم سوفياتي، وبمعدات عسكرية، ولاول مرة بنظام دفاعي جوي، واعاد مجدداً طموحاته كقوة عظمى اقليمية.

يتحمل الرئيس ريغان قسماً كبيراً من المسؤولية فيما آل اليه مسار الاحداث خلال السنة المنصرمة. كما يتبين من المعرفة حتى السطحية للشرق الاوسط، فإن اللحظة الوحيدة التي تسمح بإعمال الماكينة الديبلوماسية، هي أثر المعارك مباشرة. اما ان ندع الامور اسبوعاً، وشهراً في أقصى حد، ويجد المتنازعون جملة اسباب لرفض اي تنازل، فإن شبّاك الحل الديبلوماسي لن يبقى مفتوحاً الى الابد. هذه الفرصة طيلة الخريف القاسي لعام ١٩٨٢، هي التي ضاعت، والله وحده يعلم كيف،

من بين يدي شولتز والادارة الاميركية ووليم كلارك الصديق الحميم للرئيس ريغان ورئيس مركز الامن القومي الذي يمتلك، رغم قلة تجربته، السلطة الحقيقية في ميدان العلاقات الخارجية. لو ان الولايات المتحدة تصرفت بحيوية قبل اكتوبر ١٩٨٢ لكانت القوى المسلحة الاجنبية كافة تركت لبنان، ولتمهّد الطريق امام المصالحة الوطنية بين اللبنانيين. لقد غادرت منظمة التحرير الفلسطينية لبنان، وبات ممكناً تحسين العلاقة الاميركية مع سوريا خاصة وان بريجنيف لم يزود دمشق رغم الحاحها منذ ١٩٨١ بأفضل اسلحة الدفاع الجوي لمواجهة الغزو الاسرائيلي. لقد سمحت نكبة هيغ للاميركيين بطي الصفحة وتحميله وحده مسؤولية الاقتراب الاميركي ـ الاسرائيلي لحكومة ريغان، والاحباطات المتتالية مع دمشق. كان الديبلوماسيون وخبراء السياسة السوريون مقتنعين بضرورة التقارب مع دمشق. الاهم من ذلك ايضاً، ان الاسرائيليين، الذين لديهم كل المصلحة في تشجيع التوتر بين القوى العظمى في المنطقة، بتركيزهم على العلاقات بين دمشق وموسكو، لم يكن بمقدورهم تعطيل هذا التقارب، لأن مسؤولية حكومة بيغن في مجزرة شاتيلا اثارت موجات من الاستياء في الخارج، حتى في داخل اسرائيل، وجعلت كلاً من رئيس الحكومة وشارون وايتان في وضع يصعب معه مقاومة الضغوط الاميركية لا للانسحاب من بيروت الغربية والمطار فقط، بل ومن لبنان بأكمله. ولا يجب ان ننسى بأنه عام ١٩٥٧ أرغم ايزنهاور بن غوريون على الانسحاب من سيناء في ظروف أقل خطورة.

تلعثمت الادارة الاميركية، والتزمت الصمت وبددت آخر الاوراق التي كانت تمسك بها الولايات المتحدة أثر الصراع الاسرائيلي ـ العربي في ١٩٧٣. كانت الاطروحة الاميركية، التي تعتبر ان اعادة جميع الاراضي المحتلة للعرب، هو ما يضمن سلامة اسرائيل، على المحك. لقد تركت حكومة ريغان مبادرتها تجف، لأن شولتز على ما يبدو، كان

شديد الاقتناع بأن سياسته تحفة رائعة تستحق الاعجاب، ولم يدر في خلده ان تبنّي هذه السياسة يتطلب كثيراً من الجهود ـ الدعاية، الضغوط والاقناع. إلا ان كلارك في هذه الاثناء، كان ينشر نفوذه كما يحلو له، فظن ان مكافأة اسرائيل لغزوها لبنان عمل حسن، فمنحها ليس الاجراءات الامنية فقط، بل والعلاقات السياسية ايضاً، بما فيها «مكتب الاتصال»، الذي لم يكن سوى سفارة اسرائيلية مستترة، وكذلك انهاء حالة الحرب، استعداداً لمفاوضات قادمة حول حرية مرور البضائع والاشخاص بين اسرائيل ولبنان. ويبدو انه لا شولتز ولا كلارك ادركا ان فتح هذا الباب للدولة العبرية، يعني اغلاق اثنين وعشرين آخرين بوجهه في العالم العربي، الذي يتعلق به بقاء لبنان اقتصاديا. كل ذلك كان قادماً. وبانتظاره، اجّل الاسرائيليون موعد بدء المفاوضات الى ٢٨ كانون الاول (ديسمبر) حول انسحاب قواتهم هازئين من حبيب ومن باقي المسؤولين الاميركيين. الذين كانوا قد اعلنوا، دون حذر، انه في هذا التاريخ سيكون الاتفاق على الانسحاب قد تم. مرة اخرى، بعد ان شعرت بأنها نجحت وكسبت الوقت، ناورت حكومة بيغن على الولايات المتحدة.

اذا كانت حكومة ريغان عاجزة عن اخراج الاسرائيليين من لبنان، فمن يصدق بأنها تستطيع اقناعهم بمغادرة الضفة الغربية؟ هذا السؤال الذي رُدد دائماً، ساهم بحصة لا بأس بها في قطع المحادثات بين الملك حسين وعرفات التي كانت معدة لتمهيد الطريق في اطار مشروع ريغان امام المفاوضات مع اسرائيل. (هناك سبب آخر لهذا القطع، وفقاً لبعض المصادر الفلسطينية هو اللقاء الضار لكيسنجر مع احد مبعوثي (م. ت. ف) الذي شجع عرفات على الظن بأنه يستطيع انتزاع مواقف اكثر ايجابية من الولايات المتحدة). كان لقاء عرفات والملك حسين «طبخة بحص» كما يقال بالعربية. اما اسرائيل فقد رفضت ومنذ البدء مشروع ريغان. حاول عرفات وحسين ان يظهرا للولايات المتحدة واسرائيل،

وللعالم بأسره، ان العرب فعلوا حقاً ما بوسعهم. سُرَّ الاسرائيليون من خفوت التهديد الاكبر الذي كان يثقل طموحاتهم في الضفة الغربية. فجأة، كثفوا وتيرة اللقاءات، حول التعهد بالانسحاب، مع الولايات المتحدة ولبنان. وكان بديهياً للجميع، باستثناء شولتز على ما يبدو، ان الاسرائيليين على اهبة اقتراح صفقة، بمضمونها وتوقيتها، ستؤدي الى فيتو سوري. بعد مضي اسبوعين من التجوال في الشرق الاوسط، لايجاد مزيد من الابواب المفتوحة، خرج شولتز في ١٧ ايار باتفاق، واعلن دهشته من رفض السوريين له.

في الواقع، اذا وضعنا انفسنا مكان هؤلاء، فإن اسبابهم جد وجيهة للتصرف كذلك. فقد ارتأت الولايات المتحدة ان لا تحيطهم علماً بالمفاوضات التي تشرف عليها بين اسرائيل ولبنان. هذا القرار المؤسف لم يؤدِ الا الى زيادة الحذر. ان المضمون السياسي للوثيقة ـ بنود العلاقات الطبيعية التي يراها شولتز وكلارك عادية جداً ـ وليس المضمون العسكري هو الذي ضايق الرئيس الاسد. ففي نظر السوريين، تتابع الولايات المتحدة جهودها لعزل دمشق، التي بدأتها عام ١٩٧٥، مع اتفاق سيناء وكثفتها عام ٧٨ مع اتفاقات كامب ديفيد التي انتهت بسلام منفصل بين اسرائيل ومصر. كان الاسد مصراً على انه لن يكون هناك «كامب شولتز». ولن يُدفع لبنان في طريق مصر نفسها. وكان كيسنجر، قد اشار الى انه لا حرب دون مصر، ولا سلام دون سوريا. وكما توقع الحمائم في اسرائيل فإن حافظ الاسد اللاعب الحاذق والحذر، طلب في نهاية ١٩٨٢ ـ وتلقى ـ نظاماً دفاعياً جوياً، باستطاعته تحييد التفوق الجوي الاسرائيلي التقليدي. وقدم له الاتحاد السوفياتي في ظل رئيسه الجديد يوري اندروبوف اسلحة SA-5 وTU-124 ورادارات ممتازة بملياري دولار ونصف وآلاف الرجال لتشغيل كل ذلك ـ واعلن رسمياً، على عكس بريجنيف في اواخر ايامه، ان الكرملين الجديد سيكون حليفاً

يمكن الاعتماد عليه. ومع هذا التوظيف القليل، كان اندروبوف يأمل بمحصول عال.

مرة اخرى، اثناء الغزل بين الاميركيين والاسرائيليين، كانت سوريا تنكد عليهم الأمر. اشاحت حكومة ريغان بوجهها، وعوض عن ان تعارض رغبات الكونغرس في زيادة المساعدات لاسرائيل في اطار برنامج المساعدة الاقتصادية، فعلت العكس ودعمت بقوة هذه الجهود. وتخلى وزير الدفاع الاميركي، بين ليلة وضحاها، عن اعتراضاته على شحن الاسلحة التكنولوجية التي تحتاجها اسرائيل لطائراتها المقاتلة ليفي. وفي تموز (يوليو) تراجعت حكومة ريغان عن سياستها إزاء اسرائيل منذ ان احتلت هذه الاخيرة الضفة الغربية عام ١٩٦٧، واعلنت انه من غير ممكن «على المستوى العملي»، وغير «واقعي» الغاء المستوطنات الاسرائيلية في هذه المنطقة، خصوصاً اذا اخذنا بعين الاعتبار «الحقائق على الارض»،. كيف تندهش بعد ذلك من الضحكات القادمة من القدس حيث يقال ان العلاقات بين الدولتين على احسن ما يرام، كما لم تكن عليه منذ عام ١٩٧٣؟ عملياً، يستخلص من كل ذلك ان الولايات المتحدة تخلت عن عشر سنوات من الجهود لتعيد الى العرب اراض احتلتها اسرائيل، مقابل ضمان الحدود الاسرائيلية لعام ١٩٦٧. كيف نفسر اسرار هذا الانقلاب في الفكر الحكومي؟ الاسباب متعددة ومتنوعة: منها ما يعود الى الانتخابات الرئاسية المقبلة في ١٩٨٤ التي تشل تقليدياً الديبلوماسية في الشرق الاوسط، والى خفض سعر البترول، ضمن اقتصاد عالمي لا يزال في ازمة، والى ضعف نفوذ الاوبيك، بتعابير اخرى، بات سلاح النفط العربي عديم الفعالية. لم يجرؤ احد، في الاوساط الرسمية في واشنطن، على القول الى اي مدى تعارض هذه النتيجة العلاقات مع الدول العربية المعتدلة، التي تتهمها الانظمة الجذرية منذ زمن بأنها باعت نفسها للولايات المتحدة المؤيدة لاسرائيل. الا ان الحكومة الاميركية، ومنذ نهاية الربيع، نسبت المشاكل كافة الى

هؤلاء العرب غير النافعين لشيء، واشارت الى ان قليلاً من الاهمال في الشرق الاوسط لن يكون اسوأ الحلول. ووفقاً لتعبير افتتاحية النيويورك تايمز «لندع الشرق الاوسط يُطبخ على نار هادئة».

اعلن الاسرائيليون انهم سينسحبون من طريق بيروت - دمشق، من الضاحية، من العاصمة، ومن الشوف، طالما يرفض السوريون سحب قواتهم، وسيتخذون خطوطاً يسهل الدفاع عنها في «الاولي» شمال صيدا. كانت المغامرة اللبنانية جد مكلفة لاقتصاد اسرائيلي يرزح تحت حمل ثقيل من الاستهلاك المتنامي، يلقى تشجيعاً رسمياً عبر الرغبات الطموحة في الاسكان في الضفة الغربية، وتضخماً مئة وثلاثين بالمئة، واخيراً خمسة وعشرون مليار دولار ديون خارجية. ، هو الاعلى نسبة في العالم، لكل فرد. اما الهبات التي يمنحها الكونغرس آلياً بشكل مساعدات اقتصادية فلا تكاد تغطي هذه الديون. بدأت الحرب تصبح غير مقبولة شعبياً على الاطلاق، ومميتة بشكل متصاعد، لأن ما يفوق ٦٠٠ جندي اسرائيلي قضوا نحبهم، اكثر من ثلثهم منذ ايلول ١٩٨٢. ومن ثم اعلنت حكومة بيغن ان خطوطاً اقل امتداداً تعني تخفيضاً لعدد الضحايا، والمعدات، وللكلفة المدفوعة. هذا الانسحاب يعني ايضاً امتحاناً قاسياً لسلطة الرئيس امين الجميل الذي تخلى عنه الاسرائيليون، رغم وعدهم القديم اثر حربهم، بتحقيق الهيمنة المسيحية السياسية على لبنان.

خلال صيف ١٩٨٣، قام روبرت ماكفرلين، الساعد الايمن السابق لوليم كلارك في مجلس الامن القومي، الذي سيخلفه في اوكتوبر، بجولة لا فائدة منها في الشرق الاوسط من اجل ترتيب سياسي قبل ان يباشر الاسرائيليون انسحابهم. ساعدت سوريا في تكوين جبهة الخلاص الوطني التي تضم الزعيم الدرزي وليد جنبلاط، ورئيس الحكومة السابق رشيد كرامي، ورئيس الجمهورية السابق سليمان فرنجية. تلقى الدروز

السلاح والمعدات من اسرائيل وسوريا، وقد برهن موشي ارينز الذي خلف شارون بعد نشر تقرير كاهان ان الدروز كانوا اكثر اهمية لاسرائيل من المسيحيين. في الواقع، هناك في اسرائيل خمسون الف مواطن من اصل درزي، قسم هام منهم يشارك في شرطة الحدود التي تساعد على حفظ الامن والنظام الاسرائيليين في الضفة الغربية وغزة. اضافة الى ذلك، فإن اراضي الدروز اللبنانيين اكثر قرباً من الخطوط الاسرائيلية، ومن اسرائيل، من المسيحيين الذين يعيشون بشكل خاص شمال طريق بيروت ـ دمشق.

وكتعبير عن التخلي التدريجي لاحلام بلده التي راجت في ١٩٨٢، استقال بيغن في ٢٨ آب، ونسب سكرتيره يوناه كليما فوتسكي هذه الاستقالة الى «قلبه المكسور». واضاف ان رئيس الحكومة ذا السبعين عاماً اصابه اليأس من عدد القتلى الاسرائيليين، ومن التورط العسكري الذي بدا دون نهاية. «فقد ظن اننا لن نفعل سوى الدخول والخروج»، ومن الآمال المحبطة التي دفعتهم للغزو في بادىء الامر. لأول مرة انقسم المجتمع الاسرائيلي وتكوّن لدى اقلية لا يستهان بها رأي اكيد بأن دولتهم تخوض اول حرب غير نافعة. اكثر من اي وقت مضى، بعد حرب ١٩٧٣ أصيبت اسرائيل بأزمة ثقة شلت اوامر الارادة السياسية للقوى المسلحة للتقدم نحو الحرب.

كان بيغن على ثقة بأن خليفته المباشر سيكون بمنأى عن الضغوط السياسية الاميركية بشأن الضفة الغربية، خصوصاً حتى الانتخابات الرئاسية في ١٩٨٤. الا انه، حتى هذا التاريخ، سيزيد عدد المستوطنات الاسرائيلية بشكل كبير مما سيبرر رفض اي حكومة قادمة للتخلي عن هذه الاراضي. بدا لبنان غلطة باهظة الثمن، لكنه ساهم في حماية الخريطة الاستراتيجية التي رسمها بيغن منذ وصوله الى السلطة عام ١٩٧٧. في ظل حكومته فقدت اسرائيل صيتها التقليدي بالبراءة الذي كانت تتمتع به

في العالم اجمع ـ الا في الشرق الاوسط، بالطبع ـ مع توقيعها لمعاهدة سلام مع اهم قوة عسكرية عربية، مصر. وقد ضمد هذا الاتفاق، دون وهن، امام الضربات العنيفة للغزو في لبنان، رغم تمزق العالم العربي والتوسع الاسرائيلي في الضفة الغربية وإلحاق الاراضي التي كانت لسورية سابقاً في الجولان.

لم تكد آخر آلية اسرائيلية تغادر الشوف حتى اندلعت المعارك مجدداً في ٤ ايلول. واستمرت على اشدها لمدة ثلاثة اسابيع. كان الاسرائيليون امام منعطف هام في تاريخهم. رغم بعض التقارير التي تشير الى مشاركة الفدائيين الفلسطينيين المناهضين لعرفات في القتال، رفض الاسرائيليون العودة الى التدخل، خاصة وان الفلسطينيين الموالين لعرفات كانوا محاصرين في مرفأ طرابلس. عندما اعلن وقف اطلاق النار السابع والتسعين بعد المئة في ٢٦ ايلول، كان المحاربون الدروز التابعون لجنبلاط قد مزقوا ارباً احلام الكتائب في السيطرة على الشوف، ولأول مرة خلال هذا القرن، اطلق الجنود الاميركيون نيرانهم على عرب، ليمنعوا حكم امين الجميل من السقوط. وبسبب خطأ العدوانية الاسرائيلية، وقعت حكومة ريغان في شرك وحل السياسة اللبنانية.

تجاهلت حكومة ريغان سوريا عمداً منذ وصولها الى السلطة. الآن يحاول ماكفرلين والامير السعودي بندر بن سلطان ايقاف القصف الذي يتعرض له الـ١٦٠٠ مارينز. وعدم اختفاء حكومة الجميل. لم تفلح البلاغة المعادية للسوفيات القادمة من واشنطن في اخفاء واقع الامر وهو ان الولايات المتحدة مرغمة على التعامل منذ اليوم مع سوريا كقوة كبرى، وحتى على القبول بتعابير الاسد.

كان على الاميركيين ان يعرفوا، اتعاظاً من اخطاء الآخرين، ان التهديد بالتدخل العسكري في لبنان كان دائماً وبشكل غير مباشر لا يتناسب واستخدامه الفعلي. صحيح ان نيران البواخر الاميركية انقذت

الجيش اللبناني في سوق الغرب، القرية الجبلية، شرقي بيروت، الا ان ديبلوماسية المدافع ليست اقصر طرق الديبلوماسية. ادى غياب السياسة المتماسكة منذ نهاية صيف ١٩٨٣ الى مقتل اربعة، ثم اثنين أخرين من المارينز قرب مطار بيروت. لم ينفع انذار الشاحنة الانتحارية ضد السفارة الاميركية في نيسان التي اسفرت عن اكثر من خمسين ضحية من الديبلوماسيين واللبنانيين. اصيب المارينز والمظليون الفرنسيون بأفدح خسائرهم منذ فييتنام وحرب الجزائر، بعد تفجير المقرين التابعين لهما حيث سقط ٢٤١ جندياً من المارينز و٥٨ مظلياً فرنسياً. والحقيقة ان هؤلاء ارسلوا الى حرب منذ نزولهم في لبنان، في السنة الماضية. الا ان كلارك وشولتز رفضا الاعتراف بهذه الحقيقة الاساسية. دون اي احساس تقريباً، كفّت الولايات المتحدة عن دور الوسيط لتصبح فريقاً في النزاع. خلال السنة الماضية، إنسَابَ المارينز وباقي القوات الغربية الى اعماق السياسة اللبنانية. اما مهمتهم في الأصل، فكانت حماية السكان المدنيين من تجدد مذبحة كتلك التي حصلت في شاتيلا، ودعم الحكومة المركزية الضعيفة. لكن ومنذ البداية تقريباً، كان على القوة المتعددة الجنسيات ان تنظر عاجزة الى الجيش اللبناني - الذي يتلقى التدريب والمعدات من اميركا وفرنسا - وهو يحاول اعادة تأكيد السلطة الحكومية عبر ايقاف آلاف المسلمين واحتجازهم، سراً، وطرد السكان الشيعة وتدمير بيوتهم في جنوب بيروت. عندما وضع امين الجميل كتائبيين في كثير من المناصب الهامة في الدولة، كان يبذر الاغتراب المتنامي للمسلمين عن نظامه. وشيئاً فشيئاً على مر الشهور، بدد هذا الاخير الرصيد الضخم من الارادة الحسنة التي رافقت انتخابه، خصوصاً بين اللبنانيين الذين راعهم تصور شقيقه رئيساً. وتدريجياً، بدأ المسلمون الذين احتفلوا بانتخابه، يعتبرونه رئيساً كتائبياً. اما الكتائب انفسهم فلا يكنون له اي تقدير. في بداية حكمه، وللاسف، في اللحظة التي لو نجحت فيها ضربة حظ مماثلة، لبرهن انه ينوي حقيقة ان يكون رئيساً

للبنانيين كافة، الا انه كان يشعر بأنه اضعف من ان يبتعد عن حزبه. في بيروت الغربية عادت الميليشيات التي ظن الاسرائيليون انها اختفت تماماً، الى الظهور مجدداً. وفجأة اصبح كل شيء متأخراً. هكذا استطاع السوريون ببساطة الاستفادة من الاهتراء السياسي. عندما بدأت المعارك الفعلية، في ايلول، دعمت الولايات المتحدة الجيش اللبناني الذي عاد في بعض الحالات، الى عادته القديمة في انقاذ الميليشيات الكتائبية، كما حصل في ايام ١٩٧٥ - ١٩٧٦. عندما نعرف السهولة التي يستخلص بها اللبنانيون النتائج من كل شيء، لن نندهش اذا عرفنا ان البعض ظن ان الولايات المتحدة حليفة الدولة العبرية، ستساعد حتماً، الحلفاء الآخرين للاسرائيليين، اي الميليشيات المسيحية. (الذين لا يجمعهم، كما يبدو الا سلسلة من الخيانات المتبادلة). مقابل هذه الاعتبارات السلبية، كان هناك عاملان ايجابيان: اولاً، ورغم بعض الثغرات الدرزية، حافظ الجيش، خلافاً لما حصل اثناء الحرب الاهلية، على انصهاره. ثانياً كان التصميم والسلاح الاميركي هو المسؤول الى حد كبير عن هذا النجاح.

الى اي مدى يمكن ان نثق بالولايات المتحدة؟ طرح هذا السؤال قبل بضعة اشهر احد المسؤولين الكتائبيين الذين يعارضون ثقة الجميل العمياء في واشنطن ثم اردف قائلا: اين الضمانات؟ فأجابه الرئيس: «خلفك». فالتفت الزائر الى الوراء ليرى صورة للرئيس الشاب يصافح فيها الرئيس ريغان. اي لعبة يلعب امين اذن؟ في الواقع، كان يظن ان باستطاعته الركون الى الاميركيين الذين سيؤمنون له الانتصار، والله يعلم كيف، على امراء الحرب وعلى استعادة سلطته على المعاقل المقتطعة منذ سنوات عدة. كان يظن، فيما يبدو، انه بفضل الدعم الاميركي! سينجح سياسياً حيث اعتقد بشير ان القوة فقط هي التي تؤدي للسيطرة. أسر يوري لوبراني «المنسق» الاسرائيلي في لبنان، الى أرينز أن أمين رفض ادنى مصالحة مع جنبلاط. «لقد قرر ان يراهن بكل

شيء على الاميركيين يتخيل الجميل انهم سيعيدون اليه لبنان بأسره على طبق، من اجل سواد عينيه فقط».

لم يكن هناك حتما، اي سبب للركون التام الى مصدر بهذا التحيز. لقد لعبت اسرائيل لعبتها الخاصة ليس مع لبنان فقط، اذ عندما قررت اضرام النار بانسحابها من الشوف، سعت قبل ذلك عبر اللوبي الفعال جداً في الولايات المتحدة، واصدقائها الاميركيين الى التصويت وفقاً لقرار سلطات الحرب، على بقاء المارينز في لبنان خلال ثمانية عشر شهراً. ايضاً يستطيع الاسرائيليون ان يقوموا بعملهم القذر عبر الولايات المتحدة. لقد عاد لبنان، مرة ثانية، مشكلة ثانوية. الكتائبيون انفسهم شكوا في اهداف امين. احد ابرز اعضائهم اكد لي ان سمير جعجع قاتل طوني فرنجية، القائد الحالي للقوات اللبنانية في الشوف، توسل الى امين الجميل ان يرسل ليلاً جنوداً من الجيش النظامي اللبناني الى بحمدون قبل رحيل الاسرائيليين، لمنع الدروز من السيطرة على الطريق الجبلي الاستراتيجي الذي يشرف على خط بيروت ـ دمشق. الا ان الرئيس لم يلتزم بشيء متأملاً ان خسارة القوات اللبنانية في هذا القطاع تجعلها اكثر طواعية لارادته في المستقبل وللسلطة المركزية. من المحتمل، بالطبع، ان لا تكون هذه القصة إلّا محض اختلاق ليبرر الكتائب اخطاءهم في الشوف. كما اعترف هذا الكتائبي اياه بأن استراتيجيتهم، لم تكن خاسرة في بحمدون فقط في ٦ ايلول، حيث خسروا اكثر من مئة وخمسين رجلاً ـ كارثة فعلية بالنسبة لهم، في معركة واحدة ـ وافرغت المناطق الجبلية في الشوف من كل وجود مسيحي. بل منذ سنة والكتائبيون يسيرون القهقرى في هذه المنطقة وان المسيحيين غادروا حوالى خمسين قرية. بدلا من توحيد المسيحيين وتفريق الدروز، كان لتكتيكهم المفعول العكسي تماماً. فدروز ارسلان المؤيدون للكتائب، لكنهم اقلية، اضطروا للوقوف الى جانب الجنبلاطيين. اي ثأر جميل لوليد جنبلاط الذي لم يتمكن رجاله من اطلاق رصاصة واحدة

على الغزاة الاسرائيليين! بالمقابل كانت القوات اللبنانية تهيمن على الموارنة المؤيدين لشمعون اساساً في هذه المنطقة من لبنان، حيث لم يكن للكتائب تأثير كبير قبل ١٩٧٥. من جديد وقع الموارنة في خضم صراعاتهم القديمة، وسعوا لتصفية حساباتهم الذاتية بدلا من الاتحاد ضد العدو الخارجي. اما صديقي الكتائبي هذا، فلا يعير اي اهمية لكل هذه الخسائر. «على كل حال، انهم ليسوا مسيحيينا»، قال لي، مشيراً بذلك الى ان القرويين الذين قتلتهم الميليشيات الدرزية ثأراً، او الذين نزحوا الى بيروت او الى المدينة المارونية المحاصرة دير القمر هم من مؤيدي شمعون او جنبلاط. اغلبهم من الكاثوليك والروم الارثوذكس، وليس من الموارنة. انهم اذن، وقود للمدافع، اي تماماً، كما كان في ١٩٧٦ الموارنة المؤيدون لشمعون في الدامور، الذين تخلى عنهم الكتائبيون. ان مشهد الآلاف من اللاجئين المسيحيين والفين او اكثر من افراد الميليشيات المهزومين القابعين في دير القمر التي تحاصرها القوات الدرزية، يذكّر اللبنانيين بأحداث ١٨٦٠ يوم حاصر الدروز ودمروا ـ هذا المعقل الماروني نفسه. الفارق الوحيد، ان المهاجمين آنذاك ذبحوا حوالى عشرة آلاف مسيحي في الجبال قبل ان يتدخل الجنود الفرنسيون ليمنعوا مزيداً من سفك الدماء، بينما اليوم، المعادل الحديث لفرنسيي الامس ـ القوة المتعددة الجنسيات ـ لا يتحرك. على كل حال، وعلى سبيل العزاء، يمكن القول إن عدد الضحايا هذه المرة بين المدنيين الدروز والمسيحيين لم يتجاوز الالف.

يبدو ان القوات اللبنانية عاجزة عن حفظ الدرس. فمغامرتها لم تعلمها شيئا على الاطلاق. حلفاء السنة الماضية تخلوا عنهم. اتخذ الاسرائيليون جانب الدروز. الاميركيون ساندوا كالعادة، الحكومة المركزية، اي امين الجميل الذي خانهم حسب زعمهم. مع العلم، ان فادي افرام قائد القوات اللبنانية زار اسرائيل سراً بعد هزيمة الشوف، حيث توسل لأرينز بألا يتخلى عنهم. ووفقاً لبعض مصادر المعلومات

الموثوقة في بيروت، اجابه هذا الاخير بأن الوقت حان لينضج المسيحيون قليلاً ويتعلموا تدبير امورهم وحدهم، كالكبار. فما كان من فرام الا ان سأل: اي شيء يحرك الاسرائيليين ويدفعهم لتغيير موقفهم فأجيب: «معاهدة سلام». لدى عودته الى العاصمة اللبنانية ارسل قائد القوات اللبنانية الى الرئيس الجميل الاب نعمان، ليقنعه بالموافقة على طلبات ارينز. اضطر امين بعد حنق ان ينادي الجرس الرئاسي ليتخلص من الراهب الذي لم يفهم السخرية القاسية في اجابة الاسرائيلي. كان الامر متأخراً جداً.

لأول مرة منذ عام ١٩٧٥، اقتنع اخيراً كثير من اللبنانيين الذين اصروا على الامل رغم كل شيء ان لا مناص فعلياً، وغادروا البلاد.

ومع طريقتها في النظر الى السياسة الخارجية كعلاج مؤقت للجروح كافة، تحولت الحكومات الاميركية المتعاقبة من اللامبالاة المطلقة في ١٩٧٥ الى التسامح إزاء العدوانية الاسرائيلية، ومن هنا الى الالتزام العاجز، متى تخلى الاسرائيليون عن جزء من ارض المعركة.

اذا كانت احداث الثمانية عشر شهراً المنصرمة، قد برهنت على شيء، هو ان لا سلام في لبنان طالما لم تحل المشكلة المركزية وهي مشكلة الفلسطينيين، او فلسطين. هذه هي، وللاسف، عواقب سياسة عقد من الزمان، حيث كانت للولايات المتحدة حرية واسعة في الشرق الاوسط، لم تتمكن خلالها من انجاز شيء هام، باستثناء تدمير بلد، ظن لسذاجته انها لا تزال دولة عظمى قادرة على تسوية المشاكل كافة.

الفهرست

عام ١٩٧٤ تنبأ المؤلف باندلاع الحرب الأهلية. فمُنع بسبب هذه النبوءة «المتشائمة» من دخول لبنان لمدة ستة أشهر. الاّ أنه، وكما يقول، لم يتوقع عنفاً بهذه الضراوة، وتبدلاً سريعاً للتحالفات شمل الشرق الاوسط بأسره.

(جوناثان راندل) مراسل دائم لصحيفة «الواشنطن بوست»، وأحد أفضل الصحافيين في العالم. يقول عنه أصدقاؤه إنه أكثر من يعرف لبنان، مواطنين ورجال سياسة، وعادات وتقاليد. غطّى أهم الأحداث العالمية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي، في الكونغو، في فييتنام... إضافة إلى ما يزيد عن عشر سنوات قضاها في لبنان.

يسلّط الضوء في كتابه هذا على «أمراء الحرب» الموارنة، إدّعاءاتهم وأوهامهم التاريخية، علاقاتهم الاسرائيلية قديماً وحديثاً، جيوشهم الخاصة، دور «القوات» في مجزرتي صبرا وشاتيلا، وهزيمتهم في الجبل، الصراعات المسيحية - المسيحية... كما يكشف عبر علاقاته الواسعة مع الاسرائيليين، مع الموساد، ومع المخابرات الاميركية كيف صعد بشير الجميل وكيف سقط. كيف أدّى «جنون» الموارنة، وحب المغامرة لدى بعض القادة الاسرائيليين، والعجز الديبلوماسي الاميركي الى إغراق شعب في حمام من الدم وتحويل دولة الى ركام.

الثمن: ٣٥ل.ل. أو ما يعادلها